

د. ابراهيم بيومي مدكور

مع الأيام

شيء من الذكريات

اهداءات ٢٠٠٣

ة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
مدير التحرير : عايد عياد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
KITAB AL-HILAL
العدد ٤٧٨ - ربيع أول - اكتوبر ١٩٩٠

المكاتبات ص ب ٦١٠ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ -
تلغرافيا : المصور - القاهرة ج . م . ع .
تلكس : TELEX 92703 HILAL U.N.
فاكس : FAX 3625469
مكتب الاسكندرية : ٢٥ شارع النبى دانيال - ت : ٤٩١٢٦٩٦ / ٤٩٢٤٧٢٠

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٢٥٠ قرشا :

لبنان : ١٧٥٠ ليرة ، الاردن : ١٠٠٠ فلس ، الكويت : ١٠٠٠ فلس ، العراق : ٢ دينار ، السعودية : ١٠ ريالات ، البحرين : ١٢٠٠ فلس ، الدوحة : ٨ ريالات ، دبى : ٨ دراهم ، ابوظبى : ٨ دراهم ، مسقط : ٨٠٠ بيسة ، تونس : ١٦٥٠ مليما ، المغرب : ٢٠ درهما ، غزة والضفة : ١٢٥ سنتا ، الجمهورية العربية اليمنية : ٨ ريالات ، جمهورية اليمن الديمقراطية : ٢ دولار ، ايطاليا : ٣٠٠٠ ليرة ، لندن : ١٫٥٠ جك .

الغلاف تصميم الفنان
محمد أبو طالب

مع الأيام

شيء من الذكريات

د. ابراهيم بيومي مدكور

تقديم

مع الأيام
شىء من الذكريات

شىء من التاريخ

إنه تاريخ القرن العشرين ، الذى ولدت فى فجره ، وتابعت أحداثه حتى اليوم ، وأسهمت فى قدر منها ، وهو كما يبدو تاريخ معاصر . وتسجيل التاريخ المعاصر ليس بالأمر الهين ، لأنه شهادة يجب أن تؤدى على وجهها ، وما أضبرها إذا تحكمت فيها الميول والأهواء ، أو إذا خضعت لعوامل التقرب والزلفى .

ويمتاز عصرنا بسرعة سيره ، وتوالى أحداثه ، وقليلا ما نحاول أن نسجلها فى حينها ، واذا عدنا اليها بعد زمن فقد تخوننا الذاكرة .

وكثيرا ما نستسهل معالجة الماضى البعيد ، ونتحاشى أن نعرض لما يتم فى جيلنا أو فى الأجيال التى سبقتنا ، واذا كنا نستمد من الماضى البعيد عبرة ، فإن فى الماضى القريب ما يعيننا على تدارك نقص ، وإنجاز ما لم يتم انجازه .

ولهذا كله ، رأيت أن أستعرض شيئا مما عشت فيه ، أو وقفت عليه ، لارغبة فى ترجمة ذاتية ، أو فى تنويه بعمل كان لى فيه إسهام .

وسأتابع ذلك ، خطوة خطوة ، سيرا مع الأيام ، ومحاولا أن أستخلص ما يمكن أن يستفاد من دروس . .

د . إبراهيم مدكور

الباب الأول :

عهد
الصبا والشباب

الفصل الأول :

أبو النمرس : قرية على بعد كيلو مترات من القاهرة

إنها قريتي التي نشأت فيها ، وتابعت نموها وتطورها ، ودون أن أعرض لاسمها ، أحب أن أشير فقط إلى إنها عرفت في القطر كله بتجارة خاصة هي تجارة « النمرسي » ويعني بها أدوات المنزل المصنوعة من الصيني أو الزجاج ، وأعتقد أن « أبو النمرس » عرفت ببنيها العاديين أكثر مما عرفت بكبار رجالها ، وكثيرا ما لفت نظر الجالسين على مقهى « بار اللواء » ـ مثلا ـ في النصف الأول من هذا القرن ، شباب متحرك نشط ، يعرض بضاعته وينجح غالبا في بيعها ، ومما يسر أمر هذه التجارة أن شباب أبناء « أبو النمرس » وجدوا في القاهرة لدى بعض أقاربهم أو معارفهم من أهل قريتهم سندا لهم أعانهم على الحصول على بضاعتهم دون حاجة إلى دفع مقدم احيانا ، واذا ما نجح الشاب في مهمته ، سدد كل مايستحق عليه ، ولاسبيل له لأن يتلاعب ، لأن عمه أو خاله صاحب المتجر يعرفه ، ويعرف أسرته .

وكان لتجارة « النمرسي » هذه شأن لفت أنظار الجيش البريطاني أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد لقيت في « أبو النمرس » ضابطا بريطانيا يبحث عن مصانع الصيني

والزجاج فيها لكى يتعاقد معها ، وأدهشه أن الأمر مجرد تجارة .

لقد عرفت « أبو النمرس » أول ماعرفتها ، قرية صغيرة لايجاوز عدد سكانها بضعة آلاف ، حدود الخمسة أو الستة ، وهى موزعة بين أسر محدودة أيضا ، ولكل أسرة حيها أو دربها ، كما يسمونه ، وما أشبه هذه التجمعات بالحياة القبلية لدى جماعة البدو ، فأبناء العمومة وأبناء الخئولة يتلاقون ويتعاونون ، ولهم دار كبيرة ، تجمع بينهم جميعا فى مناسبات خاصة ، ولم تلبث هذه القرية الصغيرة أن نمت على مر الزمن ، نمت حضاريا وعمرانيا ، كما نمت ثقافيا وتعليميا ، وصحيا واجتماعيا .

فمن الناحية العمرانية ، أخذت الأحياء أو الدروب الصغيرة تنتشر فيها حول المبانى القديمة ، وأضيف إلى القرية القديمة مساكن ، شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ، ونما العمران فيها نموا ملحوظا فى الستين سنة الأخيرة ، إلى درجة أن مساحتها المسكونة الآن تكاد تصل إلى عشرة امثال المساحة القديمة ، واستلزم هذا النمو العمرانى ، نموا فى بعض الخدمات ، فلم يكن للقرية القديمة إلا مسجدان واصبح فيها اليوم خمسة مساجد ، وتضاعف عدد السكان ، وزاد زيادة كبيرة ، عن طريق أبناء القرية أنفسهم أو عمن رحل اليهم وعاش معهم واصبح جزءا منهم ، ولايقل عدد سكان هذه القرية التى اصبحت اليوم مدينة عن خمسين ألف نسمة .

وتحولت القرية الصغيرة الى مدينة ، فيها قسم من أقسام البوليس ، يشرف عليها وعلى بعض القرى المجاورة ، وإلى

جانب هذا النمو ، الحضارى والعمرانى ، نرى نموا آخر تعليميا وثقافيا ، ففى العقد الأول من هذا القرن ، لم تكن « أبو النمرس » تعرف شيئا إلا كُتَّاب القرية ، وربما تعددت هذه الكتاتيب ، ولكنها كانت محدودة النطاق ، بحيث لايزيد تلاميذ كل كتاب عن خمسة عشر تلميذا ، وفى العقد الثانى حلت المدرسة الأولية او الالزامية محل كتاب القرية ، وكانت « أبو النمرس » أولى القرى المجاورة فى إنشاء مدرسة أولية فتحت أبوابها لبنيها ، ولمن يسعى إليها من ابناء القرى المجاورة .

وفى العقد الرابع من هذا القرن تحولت المدرسة الأولية إلى مدرسة ابتدائية بل الى مدارس ، وتنوعت هذه المدارس الابتدائية ، ففيها مدرسة للبنين ، وأخرى للبنات ، وانتقل الأمر الى المدرسة الاعدادية ، ثم انتهى الى المدرسة الثانوية ، سيل تعليمى وثقافى متواصل ومتلاحق فتح أبواب التعليم العالى والجامعى لأبناء « أبو النمرس » جميعا . وحصل عدد غير قليل منهم على ألقاب جامعية مختلفة ، فاتجه منهم من اتجه نحو التعليم النظرى أو نحو التعليم العملى .

وصاحب هذا النهوض ، التعليمى والثقافى ، نهوض صحى واجتماعى أيضا ، ففى العقد الأول من هذا القرن لم تكن « أبو النمرس » تعرف إلا حلَّاق الصحة ، ومولدة القرية ، وفى أخريات العقد الرابع من هذا القرن ، انشىء فيها مركز اجتماعى فيه خدمات صحية واجتماعية ، ثم أنشىء مستشفى صغير للعلاج والتطبيب ، وسينمو بدوره ، لكى يصبح مستشفى المدينة ، بعد ان كان مستشفى القرية ، والى جانب المستشفى والمركز الاجتماعى ، عيادات أهلية متخصصة للطفولة أو لأمراض أخرى .

ولاشك فى أن هذا التطور يبعث على الأمل والتفاؤل ، وماهو الا نموذج لأمثلة أخرى تمت فى بعض قرى مصر شمالا وجنوبا .

وكم يذكرنى هذا التطور بما كان عليه ريفنا فى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين ، فقد طغت عليه بعض المدن فى الشمال أو الجنوب ، وأهمل إهمالا تاما فيما عداها من قرى ونجوع ، وأذكر انى اثناء عودتى من بعثتى فى اوروبا عام خمسة وثلاثين ، صادفتنى على الباخرة سائحة فرنسية ، وتبادلنا الحديث عن جمال الريف الفرنسى ، ولم تتردد محدثتى فى أن تقول : أتوقع أن يكون ريفكم فى ظروفه المناخية والجغرافية أجمل من ريفنا ، ورددت عليها بأن اللمسات الحضارية لم تمتد بعد الى هذا الريف ، ومتابعة لرحلتها الى القاهرة ركبت معى فى قطار واحد ، وألقت نظرة يمينا وشمالا ، وقالت جملة مازلت أذكرها : « أين الريف المصرى » ؟

والواقع انه فى ذلك التاريخ لم يكن هناك ريف فعلا ، ولم يكن من يفكر فيه ، ولعل هذا هو الذى ربطنى بموضوع المراكز الاجتماعية التى دعا اليها قسم الفلاح بوزارة الشئون الاجتماعية ، عام تسعة وثلاثين ، وقنعنا بإنشاء أربعة منها فى القطر كله ، لكى تكون تجربة نستطيع أن نتوسع فيها ، وحظيت « أبو النمرس » بواحد من هذه المراكز الأربعة ، أملا أن يكون فى قربها ما يعين على متابعة التجربة وتدارك النقص فيها ، وأشهد أن مركز « أبو النمرس » للخدمة الاجتماعية ، الذى أنشىء عام تسعة وثلاثين ، بدأ بدءا حسنا ، وسار فى طريقه سيرا يدعو إلى التفاؤل ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى

من تعهدوه ، من مشرف اجتماعى ، وطبيب نشيط ، والنجاح والفشل يرجعان أساسا إلى المنفذين والمشرفين .

وكنت أود أن يكون هذا المركز باعثا على متابعة التجربة ، ونشرها فى قرى الريف المختلفة ، وإن كان الايمان بالريف غير ملحوظ بدرجة كافية ، هذا الى انه شغلتنا شواغل أخرى ، وأخصها حرب فلسطين ، وبقينا حتى عام ثلاثة وخمسين عند عدد محدود من هذه المراكز ، بعضها حكومى ، وبعضها الآخر أهلى .

وخطونا بالريف خطوة أخرى فى الماء والنور ، وهما خطوتان موفقتان ، ولهما أثرهما الواضح فى الرقى الصحى والحضارى ، وتكملهما الطرق العامة ، والمرافق الأخرى ، واعتقد أن ما تم فى عشر السنوات الأخيرة يبعث على الأمل .

وبدأنا نحس فعلا بأثر الحكم المحلى ، فخرجنا من مركزية العاصمة الى عواصم أخرى ، تحس بوجودها ، وتتنافس فى أداء رسالتها ، وعلى السادة محافظى الأقاليم عبء ثقيل فى تعهد قرى محافظاتهم ومدنها ، وهم بحمد الله سائرون . واذا كنا قد خرجنا من مركزية العاصمة الكبرى الى المحافظات ، والى المدن الكبرى فى شتى المحافظات ، فانى أود ألا نقع فى مركزية جديدة ، هى مركزية عاصمة المحافظة ، وفى وسع كل محافظ أن يستعين بالجهود الذاتية ، وبالقيادات المختلفة فى جميع انحاء محافظته ، والعبء ثقيل .. والنهوض متعدد النواحى ، ومن الخير أن يضطلع به كل من هو أهل له .

وقد قلنا بالمجالس القروية ، الى جانب مجلس المحافظة والمركز ، وأود أن يكون لمجلس القرية وجود حقيقى ، ورسالة

ملحوظة ، وقد عشت فى العقدين الثانى والثالث من هذا القرن مع مايمكن أن نسميه « مجلس قرية أبو النمرس » الذى كان مكونا من بعض رءوس العائلات ، دون أن ينصبهم الحاكم الأعلى ، أو أن ينتخبهم الجمهور . وكانت لهم لقاءات منتظمة ، عصر كل يوم ، تجمع بين شيوخ الأسر المختلفة ، فيتذاكرون فى بعض المشاكل ، وفى شىء من ضروب الاصلاح ، ولم يعز عليهم قط حل مشكلة ، ولم أشعر فى مجالسهم بمؤيدين ومعارضين ، فهل لنا أن نكون مجلس قرية اليوم فيه شىء من هذه الصورة ؟ واستطيع أن أقرر أن شيوخ قرية « أبو النمرس » ـ وكان عددهم لايزيد على عشرة ـ لم يَدَعُوا خصومة إلا فضوها ، ولا خلافا الا قضوا عليه ، وعُرفت قريتهم بالسلام والمسالمة ، وبالانتماء القوى اليها ، واحسوا حقيقة بأن ذلك واجبهم ، أدوْه عن طيب خاطر ، وسعدوا بنشر روح الوئام والسلام ، أنا أعرف أن الشباب يجب ان يساهم فى هذه الجهود ، ومن المصلحة أن يفتح الطريق أمامه ، مادام يؤمن بالخدمة العامة ، ويرحب بها ، ولعل هذه هى الناحية التى تحتاج الى تربية متصلة فى البيت والمدرسة ، وملخصها رعاية الضعفاء والمحتاجين ، ومعاملة المواطنين على قدم المساواة ، ومحاربة شهوة النفوذ والسلطان ، أو الكسب والاستفادة .

وفى تجربة « أبو النمرس » مايحملنى على أن أوجه النظر إلى أمر آخر ، يجب أن نرعاه فى نهوضنا وعمراننا ، سواء فيما يتعلق بالقرى القديمة أو القرى الجديدة ، ذلك الأمر هو. أن نخطط لما يراد إنشاؤه ، تخطيطا ينزل عنده جميع المنتفعين على السواء ، ويخضع لرقابة متصلة ، ذلك لأن الأرض أصبحت تضيق بنا ، وإذا أحكمنا تخطيطها وفرنا منها

الشيء الكثير ، وها نحن أولاء قد اتجهنا أخيراً نحو الصحراء الشرقية والغربية ، وعلينا أن نتوسع فى ذلك شمالا وجنوبا ، ويكفى أن اذكر بهذه المناسبة « مصر الجديدة » ، التى اصبحت حقيقة مدينة قائمة بذاتها ، مستكملة لكل مرافقها ، ولم نَعُدَّ فيها لاعلى حقل ولا على مزرعة ، وأملى كبير فى أن نرى قريباً « مدينة المقطم » أو مدينة الأهرام ، وقد اتسع صدرها لمساكن ومرافق مخططة ومدروسة ، والصحراء الغربية أفسح صدرا وأوسع مجالا وها نحن أولاء ننشىء ، فيها مدنا جديدة ، ستثبت وجودها يوما ما ، وقد تطلَّب استكمال مدينة « مصر الجديدة » نحو قرن تقريبا .

الفصل الثانى :

الأسرة الكبيرة

مجتمع ينتمى إلى جد أعلى ، ويحمل اسمه ، ويرتبط أفراده بلحمة الدم أو النسب ويسمى « الأسر الأبوية » ولعله أول صورة من صور التجمعات البشرية ، وعنه نشأت القبيلة والنجع والقرية والمدينة ، ويحرص أفراد هذه الأسرة الكبيرة على أن يكون بعضهم إلى جانب بعض فيسكنون دارا واحدة ، إن إتسعت لهم ، أو يبنون دورا متجاورة ، والشعور بالقرابة والانتماء عندهم قوى واضح ، ولرب هذه الأسرة نفوذه وسلطانه ، نفوذه فى الداخل ، فيشعر أفراد الاسرة جميعا باحترام صادق له ، ونزول عندما يأمر به أو يوجه اليه ، ونفوذه فى الخارج يعطيه الحق فى أن يتكلم باسم الأسرة دون أن يخرج أحد من أفرادها على كلمته ، وهؤلاء الأفراد متعاونون متضافرون اقتصاديا واجتماعيا ، ومتمسكون بصلة القرابة فى زواجهم وتكاثرهم ، ومن الأسرات الكبيرة ما كان له تاريخ فى حياة أمة أو مجتمع قديما وحديثا ، وربما دب الفساد فى بعض افراد هذه الاسرة فكان شيخها وربها كفيلا بجمع الكلمة وتوحيد الصفوف .

وقد عاشت هذه الأسرة الكبيرة معنا فى تاريخنا المعاصر

وحتى منتصف القرن العشرين ، عاشت فى الريف كما عاشت فى المدينة ، وعرفنا فى القرية بيت الأسرة الكبير الذى يعيش فيه أبناؤها أو يلتقون فيه كلما دعا الأمر ، وعرفناه في المدينة أيضا ، وفى القاهرة أسر كبيرة عرفت فى اوائل هذا القرن بتخصصها فى نشاط تجارى أو صناعى معين ، وسكن افرادها البالغ عددهم أحيانا نحو المائة أو يزيد ، فى دار واحدة .

وقد نشأت فى أسرة من هذه الأسر الكبيرة التى ضمت نحو ستين فردا بين أجدادٍ وأبناءٍ وأحفادٍ ، فتلاقت فيها أجيال ثلاثة ، على الأقل ، وقد تزيد علىَ ذلك وكان رب الأسرة مسئولا عن بنيه جميعا ، يحرص كل الحرص على ان يتناولوا معه طعام الغذاء والعشاء .

وفى هذه الصلة ما ربط القلوب وحقق الرعاية ، ففتح رب الأسرة الباب أمام اعضائها تعليما وتثقيفا وسلك بهم مسالك الانتاج زراعيا أو تجاريا ، ولازلت أذكر حفل زفاف فى هذه الأسرة الكبيرة جمع بين خمسة من ابنائها ، أخوان لرب الأسرة وثلاثة من أبنائه ، وأقام كل هؤلاء فى دارهم الفسيحة ، وبعد زمن تطلع بعضهم إلى أن يكون له مسكن خاص ، ولم يتردد رب الأسرة فى أن يعاونهم على ذلك ، وأنشأ لكل واحد من أخويه دارا خاصة به ، ولاتزال الدار الكبيرة التى جمعت افراد هذه الأسرة على وضعها القديم ، وإن خرج منها قدر غير قليل من سكانها ، وبقى من بقى خاضعا للتطور الاجتماعى الشامل الذى انتقل من الأسرة الكبيرة الكثيرة العدد الى الاسرة الزوجية المحدودة الافراد ،

واصبحت الاسرة الكبيرة أو الأبوية فى حكم التاريخ ولم يبق منها إلا بقايا هى قطعاً إلى زوال .

والأسرة الزوجية المكونة من الأب والأم وأولادهما هى أسرة اليوم والغذ ولاسبيل أن نعود إلى الوراء مرة أخرى ، لكنا نود لهذه الأسرة أن تؤدى رسالتها على وجهها وأن يحس ربها بمسئوليته إحساس رب الأسرة الكبيزة الذى أشرنا اليه من قبل ، فيقترب من بنيها ، ويرعاهم ويشملهم بعطفه كلما كانوا فى حاجة اليه ، وهى كما قالوا « اللبنة الأولى فى بناء المجتمع » وزحمة الحياة ربما صرفت الأبوين على أداء هذه الرسالة ، ولكنه تقصير لايغفر ، وسيندمون عليه يوم لاينفع الندم ، ومسئولية الأب والأم فى تنشئة بنيهما تفوق كل مسئولية .

ويلاحظ أن الأسرة تحاول أحيانا أن تلقى عبء هذه التنشئة كله على المدرسة ، وهذا خطأ واضح ، فهناك جوانب إن لم يرعها الأب والأم فلن يستطيع أحد سواهما أن يرعاها ، وقد قيل : « من لم يؤدبه والداه أدبه الليل والنهار » . وأدب الليل والنهار غالى الثمن ، وبعيد المنال .

فالتربية الروحية ، والتربية الأخلاقية يجب ان تنبت فى البيت الأول ، واذا لم يحقق الأبوان فى ذلك قدوة عملية صالحة فلن يستطيع أحد سواهما أن يحققها .

ومرحلة الطفولة أضحت قصيرة ، ولكنها ـ نظرا لقصرها ـ تتطلب قدرا أكبر من الرعاية ، وتليها مرحلة أخرى بين التاسعة والثالثة عشرة ، وهى مرحلة حرجة تتطلب يقظة من الأبوين ، ووقوفا على نوع الأصدقاء والزملاء الذين يخالطون

الأبناء والبنات ، ويجب ان يعالج الشباب فى أسرته معالجة خاصة ، يشعر فيها بالاستقلال والزمالة ، فيتبادل أبوه معه الرأى ، ويضع أمامه بعض المشاكل الملائمة ، وقد قيل قديما : « لاعب ولدك سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعا ، ثم أجعل حبله على غاربه » . نشكو من انحراف الشباب ، ومن عدم تقديره للمسئولية أحيانا، ومن الانصاف أن نسأل الآباء : هل أدوا رسالتهم على وجهها ؟

والأسرة الزوجية نفسها أصبحت أشبه ماتكون بمصنع تفريخ لتكوين أسر جديدة هى من صنيعها ، فمضى الزمن الذى كان يسكن فيه الأبن مع أبيه فى بيت واحد ، وإذا كانت أزمة المساكن قد دعت إلى شىء من ذلك الآن فإنها أزمة طارئة ، ومنذ ثلث قرن تقريبا نحس بأن الأبناء متى تزوجوا يحرصون على استقلالهم ، وعلى أن تكون لهم حياة خاصة بهم ، وعقدة البنت محلولة من قديم ، فهى تخرج من أسرتها الأبوية إلى أسرة زوجية جديدة هى ملاذها ومقرها ، ونحن من انصار هذا الاستقلال ، وقد دعونا إليه من قبل ، ولكن ليس معنى الاستقلال انقطاع الصلة ، واهمال حقوق القرابة ، وهذه ظاهرة بدأنا نحس بها ، ونشكو منها ، إلى حد أن الأم اصبحت تحس بقربها من ابنتها وإن تزوجت بعيدا عنها أكثر من قربها من ابنها الذى يعنى بحياته الخاصة ، وفى الواقع أنه كان فى الأسرة الكبيرة معانٍ من تعاطف وتراحم ، وشعور بالصلة والقرابة ، بدأنا نفقدها ، ولانكاد نستمتع بها ، وهنا يجىء السؤال : هل تؤدى الأسرة المعاصرة رسالتها على وجهها ؟

إن أوربا بدأت تشكو من تلاشى الحياة الأسرية وأذكر أنى

زرت عام خمس وخمسين أسرة أمريكية تقيم فى ولاية نيويورك ، وهى مكونة من أب وأم وبنتين إحداهما تعمل فى « سان فرانسيسكو » والأخرى تعمل فى « واشنطن » وقد سألت الأبوين عن بنتيهما فقالا : انهما تصنعان حياتهما كما تريدان ، وقد بقيت فى هذه الأسرة أسبوعا كاملا وظللت أرقب أن أرى احدى الفتاتين أو أن يُسْمَعَ صوتها فى « التليفون » من « سان فرانسيسكو » أو من « واشنطن » ـ وهو يسير كل اليسر ـ ولكن لم يحدث شىء من هذا ، فهل نحن سائرون الى نهاية هذا الشوط ؟ لاشك فى أن ذلك يعد خسارة كبيرة ، ويقضى على معالم الحياة الزوجية التى نفتقدها الواحد تلو الآخر ، ونحس منذ الآن أن شعور رب الأسرة الصغيرة بواجبه ومسئولياته الأسرية فى تضاؤل مستمر ، وهو دون نزاع أضعف من شعور رب الأسرة الكبيرة ، وما أحرانا أن نتنبه إلى ذلك ، وأن نربى فى نفوس ابنائنا وبناتنا روح الانتماء ، والانتماء إلى الأسرة دعامة أساسية للانتماء إلى الوطن ومن لا أسرة له لا وطن له . ١

الفصل الثالث :

كتاب القرية

مبعث النور والعرفان فيها قبل أن تعرف معاهد التعليم الحديثة ، كان الوسيلة الأولى لحفظ القرآن ، وتكوين قرائه ومرتليه ، ولعل الريف المصرى كان أعظم حظا فى هذا من ريف بلاد عربية وإسلامية أخرى ، وشاء التشريع للجندية قديما أن يعفى حافظ القرآن من اداء هذا الواجب الوطنى ، تشريع اريد به فى الغالب الحد من عدد الجنود المصريين ، وعدم تمكين مصر ، منذ بدأ الاحتلال البريطانى ، من تكوين جيش مصرى يعول عليه ، لاسيما وثورة عرابى كانت درسا ، يبعث على الحيطة والتأمل ، ولكن هذا التشريع من ناحية أخرى دفع أسرا كثيرة إلى ان تحفظ أبناءها القرآن ، كى يعفوا من الجندية ، ومن بين هؤلاء الحفاظ من احترف تلاوة القرآن وترتيله فى المناسبات المختلفة ، أو فى بعض المساجد والمجتمعات ، وكان حظ مصر عظيما من هؤلاء القراء الذين عنوا بترتيل القرآن وتجويده ، واستطاعوا أن يغذوا البلاد العربية الأخرى ـ عندما تدعو الحاجة ـ وأخشى ما أخشاه ان نفقد هذا الجانب من تربيتنا الدينية ، ومن رعايتنا للقرآن، ذلك لأن أقسام تحفيظ القرآن التى نلجأ اليها الآن ، لم تصل بعد إلى ما كان يصل اليه كُتّاب القرية ، وما

أحوجنا أن نرعى هذا الجانب رعاية حقه ، وكان بيننا قراء لهم ماض مجيد ، سجلنا من أصواتهم ماسجلنا ، وجدير بنا أن نتابع تسجيل كل صوت يستحق ذلك ، وان ننشىء اجيالا جديدة تخدم القرآن وتحسن ترتيله ، والا عشنا على الماضى دون أن نعد للحاضر والمستقبل شيئا يذكر .

وكُتَّاب القرية أيضا كان المصدر الأول لتعلم القراءة والكتابة ، وكَتَبَتُنا فى القرن الماضى ، وفى العقدين الأولين من هذا القرن ، نشأ أغلبهم فى هذه الكتاتيب .

ولم يكن خطهم جيدا ولكنهم سجلوا عقودا ضرورية ووثائق لم يكن ثمة سبيل لحفظها إلا عن طريقهم ، وحسابات القرية وخطاباتها ، قراءة وكتابة ، إنما قامت على من نشئوا فى كتابها ، واليهم يُرجع دائما لقراءة نص ، او تصحيح عقد ، او سند ، أو كتابة خطاب لغير ، ولم يكن عددهم وافيا كل الوفاء ، لسد الحاجة ، ولكنهمَ كانوا سعداء حين يطلب اليهم اداء هذه الخدمة .

وعرفتُ فى « أبو النمرس » كُتَّابين اثنين فى العقد الأول من هذا القرن ، كانا فى مكانين متواضعين ، وحَرَصَا على أن يكونا على مقربة من مسجد ، أو زاوية للصلاة ، وكان عدد التلاميذ فى كل واحد من هذين الكتابين لايزيد على عشرين تلميذا ، وعلى رأسهم سيدنا وعريفه وكان سيدنا يعرف كل واحد من تلاميذه معرفة تامة ، يعرفه فى شخصه ، ويعرفه فى أسرته ، ويحاول أن يطمئن على أخبار الأسرة كلها ، ويتخذ من تلاميذه أبناء مقربين اليه ، وهم أنفسهم كانوا يشعرون بهذه المودة الصادقة ، وقد يقسو احيانا ، وان كنت لم ار

« الفلقة » فى الكتّاب الذى قضيت فيه بضع سنوات على أن قسوته كانت للخير ، وفى سبيل الخير .

ولم يخل كتّاب القرية من وسائل الترويح ، فقد كان يتلمس المناسبات لكى يروح عن تلاميذه ، فيحتفى بالطفل الذى حفظ سورة او سورتين ويسعد بأن يُكتب له جزء من القرآن فى لوح منمق على يد العريف ، لكى يكون تنويها بنجاحه ، وكان معلم القرية فى كتّابه هذا ، أقرب الى المتعبد بعمله منه إلى الموظف والمحترف .

فما كان يحدد أجرا ، ولايقيد حسابا لكل تلميذ ، بل تترك الأمور لأريحية أولياء هؤلاء التلاميذ ، ومايقدم كان أقرب الى الهدية ، منه إلى الأجر المعلوم .

وكثيرا ماكان معلم هذا الكتاب هو إمام الصلاة ، وخطيب المسجد ، وفى ذلك مايدفع تلاميذه وابناءه ، الى ان يتشبهوا به ، ويسيروا خلفه ، فكانوا يصلون وراءه ، ومن تخلف منهم عن موعد الصلاة ، يسعده ان يؤم مجموعة أخرى من زملائه فى صلاة الظهر ، أو صلاة العصر .

فلم يكن الكُتّاب مجرد معهد لتحصيل معلومات أو حفظ للقرآن ، بل كان وسيلة أيضا من وسائل التربية الدينية والخلقية ، ذلك لأن معلم القرية كان نموذجا فى مسلكه ، يشجع على الصدق ، ويحث على الأمانة ، ويباهى بأبنائه الحسنى السلوك ، واذا بدرت من أحدهم بادرة عالجها بنفسه ، والا اضطر أن يشرك الأسرة معه ، وأحْرص على أن أقرر انه لولا « كتّاب القرية » ما كان يقدر لى ، أن أحفظ

القرآن جميعه ، وقد أكملتُ هذا بدراسة شيء من علوم القراءات على أيدى أستاذ من أساتذتها الكبار ، والقرآن ذخيرة لها شأنها فى سلوك المرء وثقافته ، وقل من يحفظ القرآن كاملا اليوم ، وقد بدأنا نحس بالحاجة الماسة الى تعليم الناشىء وتحفيظه قدرا منه ، وتلك مهمة تتطلب رعاية وحسن اختيار لما يقدم من نصوص قرآنية يجب ان تتمشى مع أعمار التلاميذ .

وأنا لا أدعو إلى أن نعود مرة أخرى إلى كتّاب القرية ، ولكنى أحببت فقط أن أوجه النظر إلى جانبين من جوانبه ، أولهما قرب المعلم من تلاميذه ، واحساسهم بأبوته ، ولعل هذا من ألزم الأشياء فى رياض الأطفال ، والمدرسة الابتدائية ، وعسى ألا نتقيد بأمر الدرجات والمرتبات للسادة المدرسين والمدرسات ، ونتخير منهم آباء وأمهات اكتملت خبرتهم وتقدمت سنهم نوعا لكى نكل اليهم أمر الطفل الناشىء فيما بين الرابعة والعاشرة من عمره .

وأذكر أن أستاذا جليلا فى معهد عال كان يقول : ليتنى أستطيع أن أعود الى رياض الأطفال والمدارس الابتدائية لكى أشعر تلاميذها بشىء من الحنان والمحبة .

وأمر آخر كان سر نجاح الكتّاب فى مهمته على تواضعها ، هو الاكتفاء بعدد محدود من التلاميذ .

تلك قضية أرجو ألا نغفلها ، وقد أخذت بها معاهد التعليم فى البلاد النامية ، ووقفت فصول رياض الأطفال على خمسة عشر تلميذا ، أو عشرين على الأكثر ، وفى مرحلة التعليم الابتدائى على خمسة وعشرين .

ويظهر ان احساسا قويا بدأ يدفعنا إلى العودة الى كتّاب القرية إلى حد أن بعض المفكرين يطالبون بإحيائه ، ولاأدرى : لماذا نحن مولعون بالثنائية فى نظمنا التعليمية ، فنأبى إلا أن نضع مرة أخرى الى جانب المدرسة الابتدائية كتّابا لحفظ القرآن ، ولو عنينا بهذا الأمر فى المدرسة الابتدائية نفسها لربينا الناشئة على حفظ قدر ملائم من القرآن الكريم ، أما القراء والمتخصصون فى التلاوة وتجويد القرآن فطريقهم الواضح هو قسم حفاظ القرآن الذى لايقف عند سن معينة ، وينبغى أن يفتح بابه للراغبين والطالبين ، وأن يقوم عليه من هو جدير به .

الفصل الرابع :

المدرسة الأولية

ضرب من التطور فى مرحلة التعليم العام ، وهو تدرج يسير ورثت فيه « المدرسة الأولية » أعمال « كُتّاب القرية » وهذبتها ونمتها ، وترجع هذه المدرسة إلى أوائل العقد الثانى من هذا القرن ، وقد قدر لى ان أتتلمذ فيها ، وأشهد أن التعليم الأولى فى جملته بدأ بدءا حسنا فى أماكنه واختيار مدرسيه ، ولم تتردد الدولة فى أن تنشىء مدارس أولية فى قرى مختلفة ، وقد توسعت فى ذلك بقدر ما سمحت مواردها ، وانشأت مدارس خاصة لاعداد معلمي المدارس الأولية ، وكان من حظى ان تتلمذت لشيخين من شيوخ هؤلاء المعلمين ، كانا يسكنان على بعد بضعة كيلو مترات من المدرسة ، ولتعذر وسائل النقل استطاع كل واحد منهما ان يركب حماره ليجيء فى موعده ، ولم يتخلف يوما قط ، ولا ازال أذكر سعادتهما حين كانا يُوفقان فى شرح موضوع أو حل مسألة حسابية ، وعرفت فيهما نظام « مدرس الفصل » الذى يضطلع بمواده المختلفة ويلتصق بأبنائه التصاقا تاما ، وهو نظام مقرر فى رياض الأطفال ومرحلة التعليم الابتدائى ، وكلى رجاء أن تمكننا وسائلنا من الأخذ به دائما .

علمتنى هذه المدرسة العناية بتحسين الخط ، واتقان

القراءة ، وقدرا من علم الحساب وتوسعت ـ ما استطعت ـ فى علوم الدين والأخلاق ، واشتمل الفصل على نحو عشرين تلميذا من أعمار متقاربة ، وهذه مسألة لها وزنها فى مرحلة التعليم العام ، وكثيرا مايعز علينا الآن احترامها ، ولم أنس أحدا ممن اشتركوا معى في هذا الفصل الصغير ، فمنهم من تابع السير فى دراسته ، ومنهم من توقف عند مرحلة التعليم الأولى ، وكان له أثر فى تدبير شئون القرية وتصريف أمورها .

وأمر آخر لمسناه فى منتصف القرن الماضى ، وهو أن الوعى التعليمي ينمو باطراد فى مدننا وقرانا ، ينمو بدرجة قد لاتستطيع مواردنا أن تلاحقها ، فقرية « أبو النمرس » التى كان فيها مدرسة أولية واحدة للبنين انضمت اليها بعد عشرين عاما مدرستان أخريان إحداهما للبنات والأخرى مشتركة بين البنين والبنات ، ولا أزال أذكر يوم أن كنت مقررا للجنة المالية بمجلس الشيوخ أن وزارة المعارف حينذاك كانت تطلب عند إعداد الميزانية الاعتمادات اللازمة لمرحلة التعليم الأولى على أساس ما كانت تتوقعه من إقبال التلاميذ ، ثم لايكاد يبدأ العام الدراسى حتى تضطر لفتح فصول جديدة سدا لحاجة الراغبين ، وتلجأ إلى طلب اعتمادات اضافية ، واستمر الأمر على ذلك سنين متوالية ، ونحاول جاهدين أن نقضى على مشكلة المتخلفين عن التعليم ، وكثيرا ما عز علينا ذلك .

ولهذا الوعى النامى دلالته ، وأملنا كبير فى أن تتوافر لنا الوسائل الضرورية لمواجهة هذا الوعى فى مرحلة التعليم العام على مختلف درجاته ، ونلاحظ جميعا أن مشكلة الكم وكثرة العدد تطغى على مشكلة الكيف والإتقان والإجادة . ويوم أن تعود فصولنا الدراسية فى المراحل البادئة إلى

أعدادها المعقولة نستطيع أن نقول إن البناء الأساسى لتكوين المواطن الناشىء تكوينا سليما قد توافر لديها ، ولابد أن نوفر لهذا النشء أماكن ملائمة ، ومدرسين يطمئنون إلى أداء واجبهم ، ويقبلون عليه فى رغبة وإخلاص .

والمدرسة الأولية ثمرة من ثمار الحكم المحلى الذى عرفناه فى صورة متواضعة على شكل مجالس للمديريات ، عرفناها فى العقد الثانى من هذا القرن ، وعشنا معها نحو خمس عشرة سنة قبل أن نتجه إلى الحياة البرلمانية ، ومجالس المديريات حلقة من حلقات التمثيل الشعبى جديرة بأن نستذكرها ، لأنها قامت فى الأغلب على أيدى شيوخ من وجهاء الأقليم ، رغبوا رغبة صادقة فى أن ينهضوا بإقليمهم ثقافيا وصحيا ، وأنشئوا مدارس أولية ، وأخرى ابتدائية وثانوية وأضافوا إليها بعض المستوصفات والمستشفيات ، وأحرص على أن أسجل ـ مع التقدير ـ إدراكهم لرسالة الفتاة فى تكوين الأسرة والمجتمع ، فأنشئوا فى عواصم الاقاليم ، مدارس ثانوية للبنات منذ العقد الثانى من هذا القرن ، وسعدت حقا بأننا قضينا على ثنائية كتّاب القرية والمدرسة الابتدائية أو الأولية ، وهى ثنائية لم يكن ثمة مبرر لها .

وقلنا بالزامية التعليم ، وضرورة أن ينال كل مواطن حظه منه ولم يستجب بعض الآباء في البداية استجابة صادقة ، ولكنهم انتهوا إلى إيمان بضرورة التعليم ، وكان الإقبال الذى عجزت مواردنا ومدارسنا عن مواجهته وسد حاجته ، وخطونا بالمدرسة الأولية خطوة أعلى ، وحولناها إلى مدرسة ابتدائية ، ووفرنا لكل قرية من المدارس الابتدائية ما يتناسب مع عدد سكانها .

وحاول الجهد الذاتي في بعض القرى أن يقوم بنصيبه ، ولم تقف الرغبة في التعليم عند المدرسة الابتدائية ، بل جاوزتها إلى المدرسة الاعدادية ، وتخطتها أحيانا إلى المدرسة الثانوية ، وعرفت بعض القرى المدرسة الثانوية التي فتحت أبوابها لأبنائها وأبناء بعض القرى المجاورة ، وإن ضاقت مدرسة القرية ببنيها اتجه عدد منهم نحو أقرب مدينة ، لكي يستكمل تعليمه في مدرسة أميرية أو أهلية .

ومما يؤسف له أن بعض المدارس الابتدائية ـ تحت ضغط العدد الزائد وقلة المدرس المؤهل ـ كانت تخرج « شبه أميين » لايلبثون أن ينسوا كل ماتعلموه اذا لم يتابعوا السير ، ولم يكن سيل الأمية الجارف راجعا فقط الى العدد الذى لم يجد له مكانا في المدرسة الابتدائية بل الى عدد اخر مر بها ولكنه فارقها بزاد ضعيف ، وتكوين المواطن الصالح في القرن العشرين أصبح لايكفى فيه مجرد تعليم القراءة والكتابة ، بل تتطلب حياتنا الحاضرة تعليما أقوى وتثقيفا أتم ، وكنا نقول في الماضى إن مدة الالزام أربع أو خمس سنوات ، وظننا أن فيها مايكفى المواطن الصالح ، والتعليم الأساسى الذى ننشده اليوم يصعد بها إلى تسع سنوات ، تشمل المرحلة الابتدائية والاعدادية معا ، ويرمى الى تكوين ناشيء يستطيع أن يواجه متطلبات الحضارة المعاصرة في علومها وفنونها ، في أجهزتها وآلاتها ، في اختراعاتها ومبتكراتها ، ونحن حديثو عهد بهذا التعليم ، وما أحوجنا اليه ، وما أحوجنا بوجه خاص أن نحققه تحقيقا كاملا .

وآن الأوان لأن نقضى على التفرقة بين شاب لم يعرف إلا التعليم الإلزامى ، وآخر كان من حظه أنه نهل من حياض

التعليم الابتدائى ، وكانت تفرقة مريرة ، وفى التعليم الأساسى مايعين على أن ينهل الناشئون جميعا من معين واحد ، ولهم بعد ذلك ان يسلكوا سبل التعليم الفنى : من صناعى وزراعى وتجارى ، وما أحوجنا ان نمضى فى هذا التعليم ، وأن نربطه بالحقول والمصانع والمتاجر ، حتى يجمع بين الدرس النظرى والتجربة العملية . وفى وسع من شاء - ممن أتموا مرحلة التعليم الأساسى - أن يتجه نحو التعليم الثانوى والعالى ، على أن يكون أساس هذا الرغبة الصادقة ، والاستعداد الكامل ، ومراعاة متطلبات المجتمع وحاجاته ، وعلى سياستنا التعليمية أن ترعى هذا وتقدره قدره ، ولايكفى فى هذا مجرد نسب النجاح الرقمية ، والحلول الآلية ، ومكاتب التنسيق ، ونظام القبول فى التعليم العالى والجامعى يحتاج إلى إعادة نظر .

الفصل الخامس :

المعاهد الدينية

أُنشئ الأزهر فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، وأريد به أساسا أن يكون مدرسة مذهبية تعنى بتكوين الدعاة والمرشدين ، الذين يوجهون إلى مختلف الأقطار ، وقد نجح الفاطميون في شيء من ذلك ، وتوسع الأزهر حينذاك فى دراساته الدينية واللغوية ، واضاف اليها قدرا من الدراسات العلمية والفلسفية ، وما إن استولى صلاح الدين على مصر حتى أخذ الدرس الأزهرى ينحو نحوا آخر ، وقام بخاصة على دراسة الفقه والتوحيد وعلوم النحو والصرف ، وافسح المجال لشيء من دروس الفلسفة والمنطق ، وكانت دعامته الأولى المذهب السنى ، لم يقف فى الفقه عند مدرسة بعينها ، بل كان فيه درس للفقه الشافعى ، وآخر للفقه المالكى وثالث للفقه الحنفى ، إلى جانب الفقه الحنبلى ، واتسمت دراساته الكلامية بالعناية بالمذهب الأشعرى ، مع التعرض لقدر من آراء الماتريدية وبعض الفرق الكلامية الأخرى ، وفى ذلك ما فتح أبوابه لطلاب العلم من المصريين والأجانب الوافدين من الاقطار العربية والاسلامية ، وبخاصة من يستمسكون بالمذهب السنى . واعد مساكن وأروقة لهؤلاء الطلاب الوافدين من شاميين وعراقيين أو مغاربة بين تونسيين

وجزائريين ، وبعض أبناء المغرب الأقصى ، فكان يسهم مع جامع الزيتونة في تونس والقرويين بفاس في نشر التعاليم السنية ، وكان له ـ دون نزاع ـ قيادة بين هذه المعاهد الكبرى ، ونستطيع أن نقرر انه احتفظ بهذه التعاليم ، وكان سندا للحكم العثماني .

وقام منهجه في الدرس على اساس من نصوص متفاوتة في حجمها وأسلوبها ، فكان أصغرها يسمى متنا ، يحاول المعلقون والمفسرون ان يوضحوه ، وكثيرا ماحظى المتن الواحد بعدة شروح من معلقين في عصور متلاحقة ، ولم يقف الأمر عند المتون والشروح ، بل امتد الى الحواشي والتقارير ، فكان هناك شيوخ تبحروا في العلم والمعرفة ، اطلعوا على الشروح المختلفة واستخرجوا منها جميعا تعليقات سموها « حواشي » وتجيء بعد هذا مرتبة اخرى ، وهي مرتبة التقارير ، واذا تتبعنا تاريخ الدرس الأزهري وجدنا ان هناك اناسا وقفوا عند المتون والنصوص الأولى ، وآخرين جازوا هذا وعنوا بالشرح والتعليق في صورهما المختلفة التي أشرنا اليها ، ومن بين هذه النصوص ، ماجاء نثرا ومنها ما جاء نظما رغبة في تيسير حفظه ، وقد يصل الامر في النصوص النثرية الى ضغط وتركيز يجعل منها رموزا واساليب معقدة ، لايمكن الوصول الى مغزاها الا بالوقوف على شرح موضح لها ، أخذ الأزهر بهذا المنهج منذ القرن السادس للهجرة ، ونما على مر الزمن وكانت حلقات الدرس تتفاوت تبعا لهذه النصوص ، فللنحو مثلا متونه التي تبدأ « بالأجرومية » ثم تنتقل إلى « الأزهرية » فالتوضيح « فالفية ابن مالك » . وهناك أعلام وأئمة قدر لمؤلفاتهم أن تبقى غذاء متصلا عدة

قرون كابن مالك وابن هشام بين النحاة ، والدرديرى صاحب الخريدة واللقانى صاحب الجوهرة بين المتكلمين .

وواضح أن هذا المنهج من التعليم والتدريس يقوم على الأخذ والرد ، وتحليل الألفاظ والعبارات (وتشقيق الكلام كما يقولون) وقد سمى اسلوب : (فإن قلتَ : قلتُ) وهو بهذا يعنى بالشكل اكثر مما يعنى بالموضوع ، ويقف عند المنطوق اكثر من وقوفه عند المفهوم ، وفيه مافيه من تكرار وضياع للوقت ، وإن لَاءَمَ الماضى فانه لايلائم الحاضر . وقد كان طلاب الأمس يعدونه عبادة ، ولايترددون فى أن يقفوا حياتهم عليه ، اما ابناء القرن العشرين فوقتهم أضيق ، واهدافهم أفصح ، وهناك علوم ودراسات نشعر بالحاجة الماسة اليها ، ولم يمنحها الدرس الأزهرى فى القرون الأخيرة ماتستحق من عناية كالتاريخ والجغرافيا بين العلوم الانسانية ، أو كالكيمياء والصيدلة والطب بين العلوم الطبيعية ، أو كالجبر والهندسة بين العلوم الرياضية .

وكان لابد أن يتطور التعليم الأزهرى تطورا يتمشى مع روح العصر ، وقد سلك فيه مسلكان أولهما : جوهرى يعنى بالمنهج والطريقة ، وينحو فيهما منحى حديثا ، ويجارى العلم فى نموه وتطوره ، وانشىء لذلك معهدان منفصلان مستقلان تقريبا عن الأزهر وادارته ، وهما مدرسة دار العلوم فى أخريات القرن الماضى ، ومدرسة القضاء الشرعى فى أوائل هذا القرن ، وكان الاستاذ الامام محمد عبده من دعاة هذين المعهدين ومن مؤيديهما وسنعرض لهما فى تفصيل ، ويبدو ان رجال الأزهر لم يطمئنوا على هذا التطوير ، ولم يرحبوا به ، وكأنما عدوه انكارا لطريقتهم ، وانتزاعا لشىء يدخل فى حوزتهم ، ولهذا

نحوا نحو تطوير آخر أقرب إلى الشكل منه الى الموضوع ، وذهبوا الى فكرة المعاهد الدينية . وتقوم على أساسين مهمين ، أولهما : تقسيم التعليم الأزهرى الى مراحل متلاحقة ، يخطو فيها طالب العلم خطوات تمهد كل واحدة منها للتى تليها وثانيهما : وضع نظام ثابت للقبول فى هذه المراحل ، ونشأ عن ذلك ما سمي « الأقسام النظامية » وفى ذلك اشارة الى الدرس الحر الطليق الذى كان يقوم به شيوخ مختلفون ، لكل واحد منهم حلقته التى يقصدها طلابه والراغبون فيه دون تقيد بإثبات حضور أو غياب ودون خضوع لأمتحان معين عاما بعد عام ، وإنما كان يتم هذا الأمتحان فى آخر المطاف للحصول على ما كان يسمى « شهادة العالمية والأزهرية» . وبعد أن أنشئت المعاهد الدينية ، أصبحت هناك أقسام أولية وأخرى ثانوية وثالثة عالية ، ولكل قسم امتحاناته وشهاداته ، وكانت هذه المعاهد أيضا موزعة بين المساجد المختلفة ، ولكل مسجد طلابه المقيدون فيه .

وقدر لى فى أوائل العقد الثانى من هذا القرن أن ألتحق بهذه المعاهد ، فمررت بمسجد ابراهيم آغا الذى خصص لطلاب السنة الأولى ، ثم انتقلت الى مسجد السيدة « فاطمة النبوية » لطلاب السنة الثانية ، وانتهيت اخيرا الى جامع الماردانى . لطلاب السنة الثالثة ، ثلاث سنوات كاملة ، حرصت عليها ، وتابعت فيها الدرس ما استطعت ، وكانت تقوم أساسا على الاستماع ، وأستطيع أن أقرر إنها تركت فى نفسى بصمات ملحوظة فى تفهم التعابير واستخلاص ما يمكن استخلاصه منها ، ولكن الحصيلة الفكرية والثقافية كانت أقل من الزمن الذى ينفق فيها .

ومهما يكن من أمر ، فإنه أريد بهذه المعاهد أن تعد للدرس

الأزهرى العالى إعدادا منسقا يعود طلابه على النظام ، ويفتح أمامهم آفاق البحث والدرس . وقصرت هذه المعاهد فى البداية على القاهرة حيث يوجد المركز الرئيسى للتعليم الأزهرى فعدت بذلك حلقة لازمة من حلقات هذا التعليم ، ولكن لم يلبث الزمن ان خرج بها عن هدفها الأول ، واصبحت أشبه ماتكون بمعاهد تعليم عامة تنشأ فى المدن الكبرى والصغرى على السواء ، ونمت على مر الزمن حتى جاوزت المئات واسهمت فيها الجهود الذاتية ماوسعها ، وقادتنا إلى ثنائية فى التعليم سبق ان لاحظتها وبينت أنه لايمكن أن يقوم التعليم العام فى بلد على ثنائية من هذا النحو ، ذلك لأننا نريد أن ننشىء وحدة ثقافية وفكرية لدى ابناء الوطن جميعا ، ونربى المواطنين تربية واحدة دينيا وعلميا ، فكريا وثقافيا ، منعا للبلبلة والطائفية الثقافية .

ولم يفتنى أن أعرض المشكلة على الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ (محمد مصطفى المراغى) ويقتضينى الانصاف أن أقرر إنه اتفق معى كل الاتفاق ، وإن لم يطل به الأجل ليحقق هذه الوحدة ، وقد وضعت أمامه القضية على الأساس الآتى ، وهو : أن الناشىء المصرى يجب أن يثقف ثقافة دينية ، إلى جانب ثقافته العصرية فى نواحى المعرفة المختلفة ، وعلى هذا فالرسالة الدينية مطلوبة فى المدرسة الابتدائية والثانوية بقدر ما هى مطلوبة فى المعاهد الدينية ، ولا محل لأن يكون بيننا تعليم دينى وآخر مدنى ، ولم تعرف هذه الثنائية فى التعليم الاسلامى من قديم . واذكر ان فرنسا عانت حتى اوائل هذا القرن من خصومة بين التعليم الدينى والمدنى ، وانتهى أحد وزرائها (بربان) إلى هذا التوحيد الذى يعتبر دعامة أساسية فى كيان الأمة .

وقد عقدت منذ أربعين سنة ندوة فى الجمعية الجغرافية لمعالجة هذا الموضوع ، وتولى المرحوم لطفى السيد رياستها ، واشترك فيها المرحوم الاستاذ اسماعيل القبانى ، أحد كبار رجال التعليم حينذاك ، ودار النقاش حول التقابل بين التعليم المدنى والدينى ، وانتهى الرأى إلى إننا فى حاجة ماسة إلى أن نجمع بين هذين الطرفين ولكننا ـ مع الأسف الشديد وقعنا تحت ضغط الاقبال على التعليم ـ فى الاسراف فى هذه الثنائية ، وتنافس الافراد والهيئات فى انشاء معاهد دينية الى جانب المدرسة الأميرية المجاورة فى القرية والمدينة على السواء ، وكم يذكرنى هذا التنافس بتنافس اخر عرفته (لبنان) منذ نصف قرن او يزيد فى التقابل بين ماسمى « الجامعة الأمريكية » و« الجامعة اليسوعية » فحين يُنشأ فرع لاحداهما لاتتردد الأخرى فى إنشاء فرع مقابل فى المكان نفسه .

واعتقد أنه آن الأوان ، لأن ننظر فى هذه المشكلة نظرة جادة ، ونهيىء للنشء المصرى تعليما عاما واحدا وشاملا ، اما التخصص فلكل ان ينهج فيه النهج الذى يرضيه ، وانا لاأقبل من ناشىء مصرى ان يجهل اصول دينه ، كما لا ارضى منه ان يغفل عن متطلبات العلم والحضارة المعاصرة .

ولايفوتنى أن أشير إلى أن هناك ـ إلى جانب هذه الثنائية ـ « المدارس الخاصة ، من إنجليزية وفرنسية وألمانية ، وانضمت اليها اخيرا » « مدارس اللغات » وما أجدرنا ان يطبع هذا كله بطابع قومى ووطنى واحد ، فهل نجد الشجاعة الكافية للأخذ بهذا التوحيد لتكوين نشء الوطن على اساس من ثقافة واحدة وفكر متسق ؟

الفصل السادس :

مدرسة القضاء الشرعى

محاولة لتطوير التعليم التقليدى فى الأزهر ، سبقت قيام المعاهد الدينية ، وقد كان الاستاذ الامام محمد عبده يرعاها ويؤيدها ، ولعله صاحب فكرتها رغبة فى تنشئة جيل من المثقفين ، يستطيع أن يواجه متطلبات العصر قضاء وتشريعا ، نهوضا وحضارة ، فأنشئت مدرسة القضاء الشرعى لكى تُغذى من طلاب الأزهر ، ولكى يغذيها كبار شيوخه وأعلامه إلى جانب بعض كبار أساتذة القانون والعلوم الحديثة ، فهى من الأزهر واليه ، وكانت النشأة محكمة كل الأحكام ، فبدىء بأخذ عدد من قدامى طلاب الأزهر ، وأظن إنه كان من بينهم المرحوم (أحمد أمين) وبعض أقرانه ، واكتفى لهؤلاء بدراسة مدتها خمس سنوات ، لأنهم قد حققوا قدرا سابقا من الدراسات الأزهرية ، وهذا ماسمى « القسم العالى » فى مدرسة القضاء الشرعى .

ثم رُئِى أن تدعم فى البداية ، وأن تكون مدة الدراسة فيها تسع سنوات ، خمس فى القسم الابتدائى ، وأربع فى القسم العالى ، وطلاب القسم الابتدائى يُختارون بدورهم من الأزهريين ممن تعلموا فى المعاهد الدينية لبضع سنوات ،

وكان الاختيار دقيقا ومنصفا ، أما الدرس فكان موضوعيا يعالج القضايا العلمية المختلفة ، فيجمع بين العلم القديم والعلم الحديث ، يعنى عناية خاصة بالفقه والتفسير والأدب ، واللغة ، ويضيف اليها العلوم الحديثة من : طبيعيات ، ورياضيات ، وتاريخ ، وجغرافيا ، ومما يُتَفكَّه به أن علم الطبيعة سمي (علم الخواص التى أودعها الله فى الأجسام) لكى يتيسر اقراره من بعض كبار شيوخ الأزهر ، وبقيت هذه التسمية مستعملة ، وقيل انها اختيرت نزولا عند رغبة المرحوم الشيخ حسونة النواوى ، ومهما يكن من أمر ، فان التطوير الذى إحدثته مدرسة القضاء الشرعى على العلم القديم كان واضحا وجليا ، رجع فيه الى النصوص والمؤلفات القديمة الكبرى ، وكتب قدر كبير منها بلغة العصر وروحه ، وكان طبيعيا أن تقف هذه المدرسة عند فقه الحنفية ، لأنه كان فقه الدولة الرسمى ، وعولج هذا الفقه فى ابوابه المختلفة معالجة متصلة منذ السنة الأولى إلى الأخيرة ، ولا أزال أذكر يوم أن رفض المرحوم الاستاذ (أحمد أمين) فى درس الفقه أن يعرض لباب « الاستنجاء » لأنه فيما يرى أدخل فى التربية المنزلية منه فى الدرس النظرى ، وأذكر أيضا أن المرحوم « على الخفيف » شرح علم الفرائض والمواريث شرحا رياضيا دقيقا ، تقبَّله المستمعون عن رضا واطراء .

وفى الحق أن مدرسة القضاء الشرعى خَرَّجت فقهاء جمعوا بين الفقه الاسلامى والقانون الحديث فى فروعه المختلفة ، وأستطاعت أن تخرج قضاة يجلسون الى جانب رجال القانون ، ولم يقف الأمر عند الفقه وأصوله بل امتد التهذيب والتطوير الى الادب واللغة ودرس النحو بقصد تقويم اللسان ، مع التخفيف ما أمكن من فلسفته التى لاتعنى إلا

المتعمقين والمتخصصين ، وعرضت بعض كتب الأدب القديم في صورة أوضح وأيسر ، وكم أسفت لأن كتاب « مختارات العقد الفريد » (لابن عبد ربه) الذى كان من أعمدة الدرس الأدبى فى مدرسة القضاء الشرعى قدر له أن يموت بموتها .

وإلى جانب العلوم الفقهية واللغوية والأدبية ، كان للعلوم الحديثة نصيب ملحوظ ، فاضطلع بتدريس الجغرافيا والتاريخ بعض اعلامهما ، ولم يقف الأمر عند التاريخ الاسلامى ، بل امتد الى التاريخ القديم والمتوسط والحديث والمعاصر واعدت معامل خاصة ، للقيام بتجارب على بعض الظواهر الطبيعية والكيميائية ، وكانت الرياضيات من حساب وجبر وهندسة عقدة العقد لدى من نشئوا نشأة أزهرية ، وأذكر ان المرحوم « محمد زكى » وهو من كبار الرياضيين فى أوائل هذا القرن عرض مرة نظرية هندسية وعز على طلابه أن يتابعوه فيها ، فوقف الدرس وقال : « ياأبنائى ليس العيب عيبكم وانما العيب انى لم اوضح نفسى على النحو الملائم » ورفعت الحصة وعاد محمد زكى مرة أخرى الى النظرية الهندسية ووفاها شرحا وبيانا .

وأريد أن يكون لمدرسة القضاء الشرعى مبنى وحرم فى ضواحى المدينة ، رغبة فى أن يتفرغ الطلاب لدرسهم ، وأن يبعدوا عن ضوضاء المدينة وجلبتها ، فتعد لهم مساكن خاصة بهم ، وبهذه المناسبة أحب أن أشير إلى أن فكرة مساكن الطلبة فى جامعاتنا الحالية ليست بنت اليوم ، بل لقد سبق اليها فى الأزهر ، فكانت له أروقته ، الخاصة بطلابه من أبناء مصر كرواق الصعايدة وأروقة أخرى للوافدين من الخارج من بلاد العالم العربى والاسلامى ، كرواق المغاربة ، وحاولت

مدرسة القضاء الشرعي ان تتابع هذه السنة ، وتتلخص في أن يكون للطلاب مساكنهم ، وللاساتذة مساكن خاصة بهم ، وبذا تنشأ مدينة جامعية مكتملة ، يتوافر اهلها للدرس ، حلم لذيذ ولكن لم يتحقق ، ذلك لأن القائمين على أمر المدرسة شاءوا ان ينشئوا هذه المدينة الجامعية الجديدة شمال القاهرة فيما يسمى « الزيتون » وبينما هم يخططون اذا بالحملات العنيفة تعرقل سبيلهم ، ومن الغريب ان هذه الحملات يرجع أغلبها الى القائمين على الجامع الأزهر ، في حين أن مدرسة القضاء ـ كما قدمنا ـ لم ترد شيئا الا أن تنهض بالتعليم الأزهرى وطرائق تدريسه ، ولو قدر لها أن تحيا الى اليوم لاستطاعت ان تقدم مثلا رائعا من (التعليم الديني العصرى) .

عاشت مدرسة القضاء الشرعي بقدر ماعاش معها ناظرها ورائدها ، المرحوم عاطف بركات وأخذت تتدهور وتتلاشى بعده ، حقا انها عاشت ما عاش الى جانبها عاطف بركات المربي الفاضل ، والأب الجاد في اغير قسوة ، آمن برسالة مدرسة القضاء ووقف نفسه عليها ، فكان يشغل بأمرها درسا وتعليما ومعاملة وسلوكا وغذاء ، ماديا وروحيا .

عرف كيف يختار أعوانه من خيار الاساتذة ، وكبار الشيوخ ، وكان يجلس اليهم باطراد ، ليناقشهم في طريق الدرس ، ووسائل البحث ، وكل همه أن تصبح مدرسة القضاء مدرسة نموذجية في تعليمها ، وفيمن تخرجهم من رجال المستقبل ، وله في أداء هذه الرسالة مواقف شتى يكفي أن أشير إلى مثلين اثنين منها :

أنه كان يعنى شخصيا بتدريس مادة الأخلاق ، ويجلس

فيها الى كبار الطلاب ، ويسمو بهم إلى أهداف عليا ، وقيادات مثلى ، وأعتقد أن درسه فى الاخلاق هذا ، هو الذى جعل من أمثال أحمد أمين أديبا وفيلسوفا ، مربيا ومصلحا فى آن واحد ، ووجهه نحو تعلم اللغة الانجليزية كى يضم الى ثقافته العربية ما يمكن أن يقف عليه من الثقافات الاجنبية ، وموقف آخر له دلالته على صغره وقد شهدته بنفسى حين دخل أحد طلاب الفرق العالية منكمشا منزويا على عاطف بركات فلم يتردد المرحوم « عاطف بركات » فى ان يوجه نظره قائلا : أخرج وعد إلىّ رجلا ، هكذا كان يريد عاطف بركات لأبناء مدرسة القضاء الشرعى أن يكونوا جميعا رجالا ، يحكمون العقل وينتصرون للحق ويحرصون على العزة والكرامة .

دخلت مدرسة القضاء بعد الرحلة القصيرة فى المعاهد الدينية ، وكان دخولى فيها حين بدأت الثورة المصرية ، وأشهد أن عاطفتى الوطنية إنما نشأت وتربت فى هذا الجو ، فاشتركت مع جماعات الطلاب فى جدل ومناقشة ، وتحليل للمواقف التى ينبغى أن نتخذها إزاء المستعمر البريطانى ، وطفت معهم فى الشوارع متظاهرين محتجين ، وكم طاردنا الجنود البريطانيون ، واحتكوا بنا ، فجرحوا من جرحوا ، وكسروا من كسروا ، واعتقلت أياما على أثر مظاهرة من المظاهرات ، وأحسن ما فى هذه المظاهرات أن كبار الطلاب كانوا قادتها ، ولا أزال أذكر هتاف المرحوم « أمين الخولى » وهو معنا ، أمام الجنود البريطانيين فكان يردد :

اضربونا بالمدافع   ما لأمر الله دافع
اضربونا بالرصاص   فالحياة فى القصاص

هذه هى مدرسة القضاء الشرعى ، مدرسة وطنية ، وهى فى الوقت نفسه مدرسة البحث والتحقيق ، قضيت فيها خمس سنوات ، وتتلمذت على شيوخ كانوا ماثلين أمامى دائما، كلما صادفتنى مشكلة ، أو أعترضنى هوى لايرعى الحق ولا الوطن ، ولا أظن أحدا تتلمذ لأحمد أمين ونسي ما كان يسميه « درس المربة » الذى كان يقفه على مشاكل المجتمع ، ونواحى النقص فيه ، وكان « درس المربه » هذا أحب الى طلابه من دروس الفقه المقررة عليهم ، فكان يجتذبهم ، ويحرصون الحرص كله على أن يستمتعوا به ، وقد لقن فيه دروسا فى السلوك والاعتداد بالرأى السليم ، وكم نود أن يأخذ المربون والمعلمون انفسهم بشئ من هذا ، يقتربون من طلابهم ، ويعيشون معهم ، ولو لفترات ، وتلك هى الصلة الروحية التى اصبحت تنقصنا الآن فى معاهدنا التعليمية العالية وأعود الى « عاطف بركات » مرة أخرى ، فأسجل جملة وردت على لسانه نصها : « كم أود أن أكون معكم بمثابة الصوفى الكبير من مريديه » . واستاذ آخر لن انساه ، فى استقامة رأيه وكمال قيادته ، وإيمانه بواجبه ، وهو المرحوم عبد الحكيم بن محمد . ولعبد الحكيم موقف من هذه المواقف لاينسى ، قد عارض عاطف بركات فى تعليل نحوى لم يسلم به ، برغم ما كان لعاطف من جلال ورهبة ، ويطول بى الحديث ان عرضت لشيوخ مدرسة القضاء واساتذتها ، فقد كانوا جميعا من صفوة الصفوة وعلى ايديهم فهمت سماحة الإسلام حق الفهم ، وآمنت بأن ديننا لايتعارض مع العلم فى شئ، ولايسد الطريق على البحث والنظر ، صورة ما أحوجنا اليها ، وما أحوجنا الى قيادات تحمل رايتها لأننا كثيرا مانسئ الى

الاسلام بتضييق آفاقه ، وننحو به منحى الجمود والتخلف .

ولو قدر لمدرسة القضاء أن تسير فى طريقها حتى اليوم ، لكانت منارة للتجديد الرشيد ، والنهوض الحق ، والفكر السليم .

الفصل السابع :

دار العلوم

معهد أنشىء فى أخريات القرن الماضى ، قبل مدرسة القضاء الشرعى بنحو عشرين عاما . وكان يهدف الى تطوير تعليم الدراسات التقليدية ، من أدب ولغة ، وحديث وتفسير ، وأريد به بخاصة إعداد معلم يلائم العصر لتدريس العلوم العربية ومن بينها الخط فى المدارس الأميرية على اختلاف مراحلها ، وهو بهذا يكمل الرسالة التعليمية التى تضطلع بها « مدرسة المعلمين العليا » وهى تخريج مدرس العلوم الحديثة من تاريخ وجغرافيا ، ورياضة وطبيعة ولغة انجليزية ، وكان المعهدان يتغذيان معا فى البداية من الطلبة الأزهريين ، ثم قصرت مدرسة المعلمين القبول فيها على الحاصلين على شهادة « البكالوريا » من المدارس الثانوية ، وفى هذا ماباعد المسافة بين المعهدين ، وكان مثار تنافس بينهما . ومثلا على حال الدراسات العليا الحديثة فى اللغة والأدب والعلوم الانسانية والطبيعية والرياضية ، بجانب مدارس الحقوق والطب والمهندسخانة الى ان قامت الحياة الجامعية فى القرن العشرين ، انشئت دار العلوم لكى تقوم على امر الدراسات العربية ، وتطورها بحيث تتلاءم مع روح العصر ومناهجه ، ولم يُحرم طلابها من بعض العلوم الحديثة ، كالتاريخ والجغرافيا

والطبيعة والكيمياء ، لا على أن يتخصصوا فيها ، بل لكى يستكملوا ثقافتهم فحسب ، وكانت مدة الدراسة خمس سنوات ، يتابع فيها الطلاب دروسهم فى حرص وعناية ، ويحاسبون بدقة على فهمهم وتحصيلهم ويختارون من بين من أمضوا في الأزهر عدة سنوات ، وما أشبه دار العلوم فى ذلك بمدرسة القضاء الشرعى ، وهما معا تتماثلان فى نوع طلابهما ، واساتذتهما ، وترميان الى هدف مشترك ، هو النهوض بالدراسات الاسلامية ، ويوم أن قدر لمدرسة القضاء الشرعي أن تختفى من عالم التعليم أحيل طلابها الى مدرسة دار العلوم ، وكنت واحدا منهم . سارت دار العلوم فى طريقها ، ولم تقو منافسة الأزهر على التغلب عليها ، لأن المعاهد الدينية ـ برغم ما استحدثت من نظم وشهادات ـ لم تخرج طوال النصف الأول من هذا القرن معلم اللغة العربية الذى يبغيه المسئولون عن التعليم فى وزارة المعارف ، لاسيما وقد استحدثت دار العلوم تجهيزيتها التى كانت مقدمة للدراسة العالية ، فحققت لنفسها استقلالا مكنها من أن تجود وسائل اعداد المعلم وتكملها ، وقد عولت دار العلوم فى البداية على اساتذة من شيوخ الأزهر ، وكان الاستاذ الامام محمد عبده يباركها ، ويؤيد رسالتها ، ويطرى اثرها فى نهضة اللغة العربية ، حتى قال كلمته المشهورة : « لو أن باحثا مدققا أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية ، وأين تحيا لوجدها تموت فى كل مكان ، وتحيا فى دار العلوم » .

ثم انتهت أخيرا إلى أن تتغذى بغذاء ذاتى من طلابها وأساتذتها الذين كانوا يباهون جميعا بأنهم « درعميون » وساعد على هذا الاستقلال الذاتى ما وصلت اليه « دار العلوم » من إيفاد بعوث إلى إنجلترا لاستكمال درسها

وتخصصها ، وقد استطاع المبعوثون بعد عودتهم أن يطوروا المناهج وطرق التدريس ، وأن يلائموا بين القديم والحديث .

عززت دار العلوم استقلالها ، وعمرت طويلا ، واحتفل بعيدها المئوى منذ سنين ، وكانت المعهد العالى القديم الوحيد الذى لم يندمج فى جامعة « فؤاد الأول » بعد أن أدمجت فيها « مدرسة المعلمين العليا » وحل محلها كليتا العلوم والاداب ، ومن المربين من كان يرى أن إعداد المعلم إعدادا كاملا يقضى بالا تدمج مدارس المعلمين فى الحياة الجامعية لانها معاهد مهنية تستلزم اولا اختيار طلابها اختيارا دقيقا ، وتقضى بأن يعدوا إعدادا مهنيا خاصا إلى جانب زادهم الثقافى والعلمى ، ويذكرون على سبيل المثال ، مدرسة المعلمين العليا بباريس التى احتفظت بوزنها وقيمتها ، واستمسكت باستقلالها ، ولم تقض عليها الحياة الجامعية المحيطة بها فى السربون ، ولكن القائمين على دار العلوم فى ثلث القرن الأخير آثروا التبعية على الاستقلال ، ورأوا فى الانضمام إلى جامعة القاهرة تكريما وحماية ، وكأنهم كانوا يخشون زحف المعاهد الدينية عليهم على غرار ماتم لمدرسة القضاء الشرعى ، ودخلت دار العلوم فى منافسة جديدة مع خريجى أقسام اللغة العربية فى كليات الآداب ، وحقق وقع هذه المنافسة ازدياد الطلب على معلم اللغة العربية من الداخل والخارج ، وكان الطلب شديدا من الأقطار العربية التى تسابقت فى الحصول على المعلم المصرى ، ونتساءل حقا : هل يعد خريج كلية دار العلوم الاعداد الذى كان يحظى به خريج مدرسة دار العلوم ؟؟ ومن العسير أن يكون الجواب بالايجاب ، لاسيما وقد عدت مكاتب التنسيق على اختيار معلم الغد عدوانا واضحا ، لأنها لم تغذ كلية دار العلوم الا ببقية

البقية من الحاصلين على الشهادة الثانوية بتقدير متواضع ممن لم يجدوا طريقهم الى كليات أخرى ، ومشكلة المعلم بوجه عام ومعلم اللغة العربية بوجه خاص ، مما يهمنا الآن ، ولابد أن نرسم لإعداد المعلم سياسة أوضح تعده لمهنته وتجعل منه مربيا نافعا ، وقدوة صالحة في مراحل التعليم العام على اختلافها ، وأعتقد أن وزارة التعليم تقدر هذه المسئولية ، وهي ـ ولاشك ـ ساعية الى رسم هذه السياسة .

حُوِّلتُ إلي دار العلوم « عام ١٩٢٣ » مع من حولوا من أبناء مدرسة القضاء الشرعي الملغاة ، وتخرجت فيها عام ١٩٢٧ وتتلمذت لبعض كبار شيوخها ، أمثال عبد العزيز خليل ، وعلام سلامة ، ومحمد عبد المطلب الشاعر البدوى ، الذى امتاز بشعره العمودى الأصيل ، وعرف بحماره ذى السرج الأنيق .

ولقد أخذت من هؤلاء الشيوخ ما أخذت ، وانضم اليهم بعض المربين ممن درسوا في انجلترا امثال محمد على المجذوب ولقد وجهني نحو دراسة لغة اجنبية ، فطرقت باب اللغة الفرنسية في مدرستها الليلية ، وعلى أيدى بعض معلمي الدروس الخصوصية ، وخطوت فيها خطوات ، وشهدت معركة الشعر الجاهلي ، وكان لاساتذة دار العلوم فيها موقف معارض لطه حسين ، وثار بين الطرفين جدل طويل ، ولم يتح لى أن أسهم في هذه المعركة ، وان كنت قد تابعتها عن قرب ، ولاحظت أن أستاذ الأدب العربى كان يحاول أن يفتح أبوابا من النقد والمناقشة ماكان أجدرنا ان نتابعه فيها ، والحقيقة بنت البحث ، والأدب العربي ككل أدب عالمي له ظروفه وملابساته ، ولابأس من أن نبحث هذه الظروف في عمق ، وأن

نتأمل فى هذه الملابسات تأملا دقيقا منصفا ، ومن حسن الحظ ان المعركة انتهت الى مواقف ايجابية تؤمن بضرورة النقد ، والتحرر من قيود الماضى البالية .

ولفت نظرى فى « دار العلوم » ـ وفى « مدرسة القضاء الشرعى » من قبل ـ ربطها بجامع مجاور لها يؤدى فيه الطلاب الصلاة فى أوقاتها ، وهذه تربية دينية وروحية ما احوجنا اليها ، وفى سن المراهقة والشباب بوجه خاص ، واظننا نستطيع ان نعد مصلى بلا مغالاة فى المرحلة الاعدادية والثانوية ، وفيه يستطيع مدرس الدين ان يطبق تعاليمه عمليا .

ولقد عرفت فى مدرسة دار العلوم زملاء جددا ممن مروا بالتجهيزية ، واشترك بعضهم معى فى فرقة واحدة ، ومنهم « حسن البنا » الذى كان ينافسنى فى الدرس والتحصيل ، دون أن يكون لذلك أثر فى علاقتنا ، وكثيرا ماتبادلنا الحديث فى شئون الشباب ، وتربيته الروحية ، وتخرجنا فى عام واحد ، وأخذ كل واحد منا طريقه الى مدرسة ابتدائية ، فتنقل هو بين الاسماعيلية والقاهرة ، ومررت أنا الآخر بالاسكندرية ثم عدت إلى القاهرة ولم يباعد هذا بيننا كثيرا إلى أن سافرت إلى أوربا ، واستأنفنا علاقتنا بعد عودتى ، وكان يرغب فى أن أكون إلى جانبه فى جماعة « الإخوان المسلمين » . ولقد صارحته أنى أؤيدها إن التزمت بأهدافها الثقافية والسلوكية ، أما أن تسلك ميدان السياسة فذلك طريق سلكته من قبل ، ويتطلب اوضاعا وأساليب لم تتهيأ الجماعة لها .

ولدار العلوم تاريخ طويل ، حافل بالرجال والأعمال ،

فخرجت شيوخا أسهموا اسهاما واضحا فى النهضة اللغوية والأدبية ، وغذيت المكتبة العربية بانتاجهم نثرا وشعرا ، وبما أحيوا من تراث ، وماكتبوا من نقد ، وأسهموا فى تكوين قيادات سياسية واجتماعية ، وتنشئة أجيال متلاحقة من المثقفين والمفكرين ، والمعلمين والمربين ، ولقد تُرجم لكثير منهم ، ووضعت الكتب لاعلامهم وما اجدرهم ان يكونوا مادة صالحة لدراساتنا الجامعية فى الماجستير والدكتوراه ، ويكفى أن أشير إلى أربعة منهم ، أولهم ، حفنى ناصف الذى حمل راية التجديد والإصلاح اللغوى منذ العقد الأول من القرن العشرين ، وتلاه بعد فترة ثلاثة كانوا من مؤسسى مجمع اللغة العربية وهم : أحمد الأسكندرى ، واحمد العوامرى ، وعلى الجارم ، ولهم فيه صفحات خالدة .

البعثات العلمية

انفتاح على العالم ، واستكمال للدرس والبحث ، وعون على تكوين القادة والرواد ، والتبادل الثقافي بين الأمم قديم قدم الانسان ، والحضارة الخالدة هي تلك التي تأخذ وتعطي .

وللحضارة الاسلامية شأن كبير في هذا التبادل ، فقد أخذت واعطت وبعثت بالبعوث الى الاسكندرية والقسطنطينية بحثا عن أصول الفكر اليوناني ، ثم جاء دورها بعد ذلك في البحث والدرس ، فأعطت في سخاء إبان القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين عن طريق « بلرم » و« طليطلة » وعواصم إسلامية أخرى ، وكان لهذا العطاء شأنه في النهضة الأوربية ونشأة العلوم الحديثة في الوقت الذي ركد فيه البحث والابتكار في العالم الاسلامي ، واستمر هذا الركود حتى أخريات القرن الثامن عشر .

وفي أوائل القرن التاسع عشر ، بدأت في مصر نهضة علمية وحضارية على يد محمد علي وقد استعان فيها ببعض العلماء والخبراء الفرنسيين ، ولم يقنع بهذا بل شاء أن يكون رعيلا من القادة والرواد من أبناء مصر أنفسهم ، وارسل في أخريات العقد الثاني من القرن التاسع عشر إلى باريس بعثة

كبيرة من المصريين ، ووضع على رأسها إمامها وشيخها « رفاعة الطهطاوى » الذى يعد الرائد الأول فى الدعوة إلى النهضة المصرية فى ذلك التاريخ ، وكان لهذه البعثة أثرها فى الحركات العلمية فى النصف الأول من القرن الماضى وكان من بين أعضائها ، « على مبارك » الذى وضع اللبنة الأولى لبنيان التعليم المصرى الحديث ، إلا أن خلفاء « محمد على » وبخاصة عباس الأول ـ لم يسيروا طويلا على نهجه ، ولم يهتموا بمواصلة النهوض الحضارى والتعليمى ، ثم جاء الاستعمار البريطانى الذى لم يكن من سياسته أن يتوسع فى التعليم العالى ، وأن أبقى على مدرستى « المعلمين العليا » و« دار العلوم » وكان كل همه أن تخرج معاهد التعليم صغار الكتبة والحسابيين والاداريين ، ولعل « سعد زغلول » يوم أن كان وزيرا للمعارف مِنْ أول من شجع فى أوائل هذا القرن حركة إرسال البعوث إلى أوروبا لربط الفكر العربى بالفكر الأوروبى . وانصب جهد كثير من هؤلاء المبعوثين فى الغالب على المنهج وطرائق التعليم .

ويوم ان ان قامت الجامعة المصرية القديمة أخذت بما أخذ به « محمد على » من قبل ، فاستقدمت عددا من كبار المستشرقين امثال نللينو الايطالى ، وليتمان الألمانى ، وماسينيون الفرنسى ، لكى يسهموا فى التدريس إلى جانب الاساتذة المصريين ، وحرصت هذه الجامعة على أن توفد بعض خريجيها إلى أوربا ، أمثال طه حسين ، ومنصور فهمى ، وعلى العنانى ، وأحمد ضيف ، وكانوا رواد الحركة الفكرية والأدبية فى تاريخ مصر المعاصرة ، بل فى تاريخ العالم العربى جميعه ، وما أن أنشئت جامعة « فؤاد الأول » حتى سارت على سنن الجامعة المصرية القديمة ، فكان

للاستاذ الاجنبى فيها مكان ملحوظ فى الكليات الجامعية على اختلافها من حقوق ، وآداب ، وعلوم ، وضمت إليها ـ بعد زمن ـ مدارس عالية أخرى ، من هندسة ، وتجارة ، وزراعة .

وبرهنت كلها على أن العلم لا وطن له ، وأنه صنع الانسانية جمعاء ، وتعددت البعوث الى الخارج ، وتنوعت واتجهت نحو العلم والفن والأدب ، والسياسة والاقتصاد ، ولاشك فى أن هؤلاء المبعوثين يعدون فى مقدمة بناة نهضتنا الحضارية والعلمية المعاصرة ، وحرص الأزهر بدوره على أن تكون له بعوث خاصة به ، فأوفد من أوفد الى انجلترا والمانيا ، وكل تلك البعثات قد اضطلعت بها الدولة ، والى جانبها بعوث خاصة تولاها القادرون ، وكانت لها ثمارها الطيبة .

ونمت حركة البعوث إلى أوروبا وأمريكا على مر الزمن ، وتوافر لدينا عدد يعتد به من المبعوثين فى الولايات المتحدة بوجه خاص وصل عام ١٩٥٢ الى نحو خمسمائة ، ومنهم من انتهت مدة بعثته ورغبنا أن نستقدمهم لكى يسهموا فى بناء الوطن ، ولكنهم خشوا الا ينالوا حظهم الذى كانوا ينشدونه ، ولم تتضح أمامهم اهداف الحكم العسكرى حينذاك ، وحاول المسئولون اجتذابهم بشتى الوسائل ، وحين ضاق صدرهم بهم فكروا فى حرمانهم من الجنسية المصرية ، ومن حسن الحظ أنهم لم يذهبوا الى ذلك ، غير أن الموقف كان انذارا قاسيا لهؤلاء المبعوثين ودفعهم الى الاقامة الدائمة ، ورحبت بهم الجامعات والهيئات الاجنبية التى كانوا على صلة بها ، وجاراهم فى ذلك مبعوثون آخرون كانوا يدرسون فى اوروبا ، واصبحت لنا جاليات علمية رتبت حياتها فى الخارج ، وكنا

نعول عليها فى أن تضطلع بشىء من اعباء النهضة المنشودة ، وحاولنا اخيرا ان نفتح امامها ابوابا كانت مغلقة ، فعادوا الينا ضيوفا وزائرين ، ثم مالبثوا ان احسوا بواجبهم نحو وطنهم ، وها هم اولاء يسهمون اليوم فى نهضته واعادة بنائه .

وصاحب هذا رغبة فى أن نتجه ببعثاتنا العلمية والفنية نحو البلاد الشرقية ، ورحبت روسيا بذلك ترحيبا ملحوظا ، وابدت رغبتها فى أن يبعث اليها شباب فى سن أصغر ، ويكفى أن يحصلوا على شهادة الدراسة الثانوية ، ولم يخف علينا مغزى هذه الرغبة ، وحرصنا على ألا نستجيب لها ، وحاولنا ايفاد بعض مبعوثينا الحاصلين على الشهادات العالية الى بلاد ماوراء الستار الحديدى ، ولم تشجع هذه التجربة كثيرا على متابعتها ، ووقفت اللغة حجر عثرة فى سبيل المبعوثين والعائدين ، وكنت دائما أقول : « أطلبوا العلم ولو بالصين » ، ولكن ينبغى أن يكون واضحا أمامنا مبدئيا هدف كل بعثة ، وما يمكن ان تحقق من نتائج ، وقد دعيت غير مرة إلى زيارة روسيا ولم أوفق لذلك ، والزيارات شىء ، والبعثات العلمية والفنية شىء آخر .

وضعفت حركة إيفاد البعثات العلمية بعض الشىء فى الخمسينيات والستينيات ، ثم استعادت نشاطها فى السبعينيات ونرجو لها اضطراد النمو ، لاسيما ونحن نتوسع فى التعليم العالى والجامعى ، توسعا ملحوظا ، ولابد من أن نعد لذلك العدة الكافية ، واجتذبت الأقطار الشقيقة عددا غير قليل من قدامى الجامعيين الذين نحن فى أمس الحاجة اليهم ، وايفاد البعثات موقوف على التمكن من لغة اجنبية على

الاقل تعين المبعوث على أداء رسالته فى وقت أقصر ، وهذه ناحية نلحظ فيها قصورا لايصح السكوت عنه .

واستن « محمد على » فى أول بعثة له سنة ما كان أجداها ، وهى مصاحبة مشرف ورائد لهذه البعثة ، ولقد أحسن اختياره ، واستطاع « رفاعة الطهطاوى » أن يؤدى دوره على أكمل وجه ، وحاولنا فيما بعد أن ننظم هذا الاشراف بانشاء مكاتب للبعثات فى أوروبا وأمريكا ، ثم كسبت هذه المكاتب قدرا من الحصانة الدبلوماسية وذلك بربطها بسفاراتنا فى الخارج ، وما أجدر المستشارين والملحقين الثقافيين أن يكونوا على صلة أوثق بالمبعوثين ، وأن يعاونهم ويوجهوهم ما استطاعوا ، ولايراد بالمبعوث أن ينهل من حياض العلم فحسب ، بل يراد به أن يفهم العالم الجديد الذى يعيش فيه ، وأن يخرج منه بتجارب عملية يمكن أن يفيد منها بين أهله ووطنه ، ويقصر المبعوث كل التقصير إن خرج من بعثته فقط بقراءة بعض الكتب ومتابعة بعض الدروس والامتحانات .

قدر لى أن أسافر إلى فرنسا طلبا للعلم ووصلت الى باريس أول فبراير عام ١٩٢٩ فى أقسى شتاء عرفته أوروبا فى الثلث الأول من هذا القرن ، وكان سفرى بعد عاصفة سياسية لم تعمر طويلا لحسن الحظ ، فقد سبق أن رشحت لبعثة اميرية الى لندن ، وأبت السياسة إلا أن تدخل أنفها ـ كالعادة ـ فى ميدان العلم والثقافة ، وشاعت أن تساوم على هذا الترشيح الذى لم يرع فيه أى اعتبار سياسى ، وطلب من والدى أن يستقبل من حزب أعتنق مبادئه منذ زمن طويل ، فرفض ذلك دون تردد ، وكانت النتيجة أن الغيت البعثة ، ونقلت من لندن

الى « كوم امبو » ولم يسعنى الا أن أرفض هذا الاجراء ، وقدمت استقالتى ، وبعد قليل تهيأت للسفر ، واستبدلت بلندن باريس ، ولم يمض الا نحو عام ، ورد الى حقى على أيدى « بهى الدين بركات » يوم أن كان وزيرا للمعارف بعد أن سقطت الحكومة السابقة ، وأبت السياسة إلا أن تعدو على العلم مرة أخرى أثناء غيابى فى عام ١٩٣٢ ، وعلى أيدى حكومة ثالثة ، فقد اشترك والدى مع زملائه الوفديين فى الاحتجاج على تصرفات تلك الحكومة وامتنع عن دفع الضرائب ، وحجز على البيت ، وبيعت كتبى العربية كلها مع مابيع من أثاث ، ولا أملك إلا أن أقول مع الامام محمد عبده : « قاتل الله ساس ويسوس ومسوس وسائس » .

وصلت الى باريس بعد بدء العام الدراسى بأربعة اشهر ، ومع هذا رغبت فى متابعة الدرس برغم ضعفى الواضح فى اللغة الفرنسية ، واجتذبتنى محاضرات علم الاجتماع التى كان يلقيها بعض شيوخه امثال « بوجليه » و« فوكونيه » وفى جرأة غير عادية تقدمت للامتحان ، وشاء القدر أن أنجح فى التحريرى فقط ، وتابعت السير ، وسأعرض لهذا فى تفصيل فى حديثى عن السربون .

قادتنى الأقدار أول ماوصلت الى فندق صغير على مقربة من محطة « ليون » وكانت ادارته لبنانية ولغته مزيج من العربية والفرنسية ، وصادفت فيه بعض المصريين ، وبخاصة جماعة من رجال الجمارك الذين كانوا يتدربون على النظام الجمركى الفرنسى ، ومن حسن الحظ أنى لم أمكث فى هذا الفندق طويلا ، وانتقلت إلى فندق آخر ، نعمت فيه بصحبة زميل كريم هو المرحوم « محمد كامل الغمراوى »

امام السفارة المصرية حينذاك ، وما كان اكرمه من صديق ، ينفر من قيل وقال ، ويؤثر الصمت على الكلام غير المفيد ، وقد عشنا سويا فى هذا الفندق طوال ثلاثة شهور ، نلتقى على مائدة الغداء والعشاء ، وما سأل أحدنا صاحبه قط أين كان ولا أين هو ذاهب ؟ وكانت حجرتى صومعتى لا أبرحها إلا للذهاب الى السربون ، أو للسير خطوات فى الحى نفسه .

وفى شهر يونية رغبت فى شىء من التغيير ، وقادتنى الظروف الى بنسيون فى ضاحية من ضواحى باريس هى « سيڤر ڤيل داڤتريه » على مقربة من « بارك سان كلو » وعلى بعد كيلو مترات من « فرساى » وفيه حديقة فسيحة ، وتديره سيدة فى سن الستين ، وهى أرملة طبيب أمدها بكثير من معلوماته الطبية ، ولم يكن الى جانبها الا ابنة صغيرة ، ومن يتردد عليها من أقاربها صيفا وشتاء ، وعرفت كيف تختار معاونيها من طباخة ماهرة ، ومسئولة عن نظافة حجرات النوم ، والطعام والاستقبال ، وجناينى يحسن اختيار أزهاره وتعهدها ، ويالها من مديرة ماهرة تحرص على راحة نزلائها ، وتعنى بهم ماستطاعت ، وقد زارنى بعض الاصدقاء المصريين ، وشهدوا لها بكرم وسخاء لايلحظ كثيرا لدى ربات البيوت الفرنسيات .

ولقد عشت فى بنسيونها ثلاث سنوات أو يزيد ، ولم أفارقها الا يوم أن أضطرت هى للسفر الى « نيس » فى الجنوب ولغتى الفرنسية مدينة لها بالشىء الكثير ، لاسيما وقد نشأت وتربت فى بلد « ديكارت » وعن طريقها فتحت أمامى أبواب الأسر الفرنسية ، وهى مغلقة عادة ، ولاتفتح فى يسر ، ووجهتنى نحو أقاليم فرنسا المختلفة شمالا ، وجنوبا ،

شرقا وغربا فزرت الألزاس ، واللورين ، ونورماندى ، وبريتانى ، وجبال الألب ، وجبال البرانس وشواطىء المانش والبحر الأبيض المتوسط ، وحببتنى فى بعض الألعاب الرياضية وليتنى داومت على هذا وعنيت به . ويوم أن انتهت مهمتى الدراسية حرصت على أن أزورها فى « نيس » قبل عودتى ، وكم كانت ترغب فى زيارة القاهرة لولا متابعة ابنتها لدرسها .

وقفت عن قصد عند بعثاتنا العلمية ، وما مرت به منذ الربع الأول من القرن الماضى ، وماذاك إلا لأنى أومن بالتبادل الثقافى الذى يربط الحضارات بعضها ببعض ، ويفتح آفاقا جديدة ، وفى هذا التاريخ القصير دروس يجب أن نفيد منها .

وأولها أن حضارتنا المعاصرة وليدة هذا التبادل ، وكان لمن استدعينا من أساتذة وخبراء توجيه وارشاد ، وفيمن بعثنا من بعوث الى الخارج تكوين لقيادات علمية وعملية أسهمت فى هذا النهوض ، ويبدو ان حياتنا الجامعية فى نشأتها فى أوائل هذا القرن لم تقصر فى هذا التبادل ، وتابعناه طوال خمسين سنة ثم تلكأنا بعض الشىء ، وأخشى ما أخشاه أن نظن أن حياتنا الجامعية المصرية تغنينا عن أن نتطلع الى آفاق أخرى خارجية ، وأسعدنى أن بعض جامعاتنا الناشئة أخيرا أدركت هذه الحاجة ، وسعت الى سدها ، فعقدت صلات مع بعض الجامعات الأوروبية والأمريكية ، واستعادت شيئا من صور تبادل الأساتذة والعلماء ، والأمر فى رأيى يتطلب سياسة مستقرة تأخذ بها الجامعات المصرية جميعها ، فتستضيف من العلماء والأعلام ، وتبعث البعوث التى تعد مشعل المستقبل ومنار الهداية فيه .

وتحقيقا لذلك لابد أن نعيد للغات الأجنبية اعتبارها فى مراحلنا التعليمية ، ولقد أصبح عالمنا صغيرا ومتشابكا الى درجة لاتكفى فيها اللغة الوطنية ، والاساتذة والعلماء اعرف الناس بقيمة اللغة الأجنبية ، وما تمدهم به من زاد متصل ، ودعونا منذ قيام جامعة « فؤاد الأول » الى العناية ببعض اللغات القديمة شرقية كانت أو غربية ، وما أحوجنا الى أن نستعيد هذه العناية ، وأن نعد لها من يستطيعون الاضطلاع بها ، واصبحت اللغة الانجليزية شبه لغة عالمية تمكن عارفها من أن يزور العالم شرقا وغربا ، وان يجد السبيل الى الفهم والتفاهم .

وأخيرا هناك أمر أشرت اليه من قبل ، وهو أن المبعوث لايراد منه فقط ان يجمع معلومات أو أن يقرأ أو يكتب بحثا ليعود بدرجة علمية وانما يراد منه أيضا أن يجنى خبرة ، وأن يمارس تجربة فى حياة من يعيش معهم من الأجانب فى نظمهم .. وفى سلوكهم وفى انتاجهم ويستخلص من ذلك كل مايمكنه من أن يؤدى رسالته على وجهها فى وطنه الأصلى .

ويسوؤنى ان العناية باللغة الاجنبية فى مدارسنا الأميرية فى تدهور متلاحق الى حد ان انشئت مدارس اللغات التى أشرنا اليها من قبل ، وأعتقد أن أبناء القرن العشرين بل الصاعدين الى القرن الحادى والعشرين أحوج مايكونون إلى لغة أجنبية تمكنهم من الوقوف على مايجرى فى العالم الخارجى من فكر وانتاج واختراع وابتكار . وطلاب كلياتنا الجامعية يحسون بفقرهم اللغوى ويكادون يعولون فقط على المترجمات المعاصرة أو على الكتب التقليدية القديمة ولازاد لهم الا من موارد غربية .

الفصل التاسع :

السوربون

لا أظننى فى حاجة أن أتحدث عن هذا المعهد صاحب التاريخ الطويل والمجيد ، واكتفى بأن أوضح بعض جوانب ربما خفيت على كثيرين ، ولعل فى توضيحها مايعود بنا الى تقاليدنا الجامعية السليمة ، والسوربون القديم كليتان من جامعة باريس فى مبنى واحد ، هما كلية الآداب ، وكلية العلوم ، ولايفوتنى أن أشير الى أن السوربون انشئت محاكاة للجامعات الاسلامية القديمة وعلى رأسها الأزهر ، وكان لها شأن فى تاريخ الفكر المدرسى طوال القرون الوسطى ، وبخاصة القرن الثالث عشر ، وقد غذاها ابن سينا وابن رشد بغذاء كان مددا للبحث الفلسفى المسيحى على أيدى رجال امثال القديس (توما الأكوينى) و(دونس اسكوت) . وأقف عند كلية الآداب بخاصة فنلاحظ ان الدرس الجامعى فيها يقوم على محاضرات منتظمة يضطلع بها اساتذة أجلاء كل فى مجال اختصاصه ، ولكل أستاذ من هؤلاء مؤلفاته وبحوثه المنشورة ، والمعروفة للطلاب والدارسين ، ولاشك أن فى هذه المؤلفات عونا على متابعة درسه ، والافادة من علمه .

فليس ثمة محاضرات تلقى خاصة لمادة بعينها وتوزع بها مذكرات ، والى جانب هذا ، فى السوربون مكتبة مفتوحة

للطلاب ، ولاسبيل لبحث علمي دقيق دون الوقوف على مراجعه المختلفة ، وأمر آخر لفت نظرى وهو أن الاستاذ (دولاكروا) عميد كلية الآداب وأستاذ علم النفس الأول لم يكتف بمحاضراته ، بل كلف طلبته ببحوث يعدونها ويلقونها على زملائهم تحت إشرافه ، وهذا تقليد جامعى كان له أثره الكبير فى نفسى ، وقد حرصت أثناء قيامى بالتدريس فى كلية آداب القاهرة على أن أطبقه ، وهذه المحاضرات ملك لاصحابها ، وعلى المستمعين أن يفيدوا منها ماوسعهم ، و(دولاكروا) العميد لم تحل أعباء العمادة دونه والقيام بواجبه كأستاذ ، يحاضر ، ويستقبل تلاميذه لكى يعاونهم فيما هم فى حاجة اليه ، ومسجل الكلية هو المسئول عن شئونها الادارية جميعها . وآسف ان الشئون الادارية فى جامعتنا طغت على نشاطنا العلمى وجاوزت حدودها إلى مدى بعيد .

وامتحانات كلية الآداب فى السوربون امتحانات يراد بها أن تبين مدى فهم الحقائق العلمية ، والتمكن من أصولها ومراجعها ، لايجدى فيها مجرد حفظ ، ولاينفع فيها قلم سيال ، أو عبارات لاتتصل بصميم الموضوع ، ومنهج البحث وطريقة معالجته يعتبران جزءا رئيسيا فى الحكم والتقدير . وكانت لى تجربة فى عامى الدراسى الأول تؤيد هذا كل التأييد ، فانى وقفت جهدى على دراسة مادة الاجتماع ورجعت ماستطعت - وفى حدود قدرتى اللغوية - الى بعض المراجع ، وحاولت أن أتقدم للامتحان ، ولم تكن الفرنسية ملك قلمى ، ولا أداة طيعة على لسانى ، ومع ذلك قدر لى أن انجح لانى كتبت فى الموضوع .

تابعت الدرس فى السوربون حتى نهايته ، وحصلت على

الليسانس بعد عامين أو يزيد ، وهم يأخذون بنظام الشهادات لا بنظام السنوات ، ومتى اكتمل عدد منها حصل على درجة الليسانس . وبعد هذا اصبح لى الحق فى أن أتقدم لشهادة الدكتوراه ، وقد قضيت في الاعداد لها زمنا أطول مما قضيته للحصول على الليسانس ، خصوصا وقد قصدت الحصول على دكتوراه الدولة بدلا من الاكتفاء بدكتوراه الجامعة ، وتستلزم دكتوراه الدولة تقديم بحثين كاملين ، اتجهت فيهما نحو الفكر الاسلامي، فعالجت فى الرسالة الكبرى « تاريخ منطق أرسطو في العالم العربى » ووقفت الرسالة الصغرى على « الفارابى ومنزلته في المدرسة الفلسفية الاسلامية » ، وقد كلفنى هذا ماكلفنى ، فاضطررت للسفر الى انجلترا بحثا عن بعض المخطوطات ، وبخاصة مخطوطة « منطق كتاب الشفاء » لابن سينا ، وكان فى هذه الرحلة ماأتاح لى الفرصة لاستمتع بذخائر المتحف البريطانى ، وماأكثرها ، وهيأت لى هذه الرحلة ايضا أن أتزود بزاد أوفر من اللغة الانجليزية ، وقدر لى أيضا ان أزور ألمانيا وكان نصيبى منها (ميونيخ) ولها هي الأخرى صلتها الوثيقة بالفكر المدرسى ، أما المكتبة الأهلية بباريس فكانت هدفى صباح مساء طوال عامين أو يزيد .

وكان من حظى أن أستاذا جامعيا فرنسيا كبيرا هو الذى أشرف على بحوثي وأعنى به الاستاذ « اندريه لالند » عرفته مصر ، وكانت له أياد على المصريين فى القاهرة وباريس ، وقد اتصلت به طوال ثلاث سنوات ، فكان الأب الكريم والمرشد الهادى ، وما لقيته مرة إلا وأفدت من توجيهاته ودروسه النافعة ، ويوم أن أكتملت دراساتى وتم نشرها ، حان موعد تحديد يوم المناقشة ، وكان لابد من هذا النشر قبل

المناقشة ، لان ذلك تقليد قديم من تقاليد جامعة باريس ، وهو يقضى بأن تهدى الجامعة مائة نسخة من كل كتاب يقدم للمناقشة ، وما أحوجنا أن نفكر فى هذا تفكيرا جديا بالنسبة لدراستنا الجامعية على اختلافها ، لان هذا النشر يضيف زادا الى المكتبة العربية ، والى مكتبات جامعية غربية مما يضعه مبعوثونا من رسائل بلغات أجنبية ، وللمبعوثين من المصريين ثمار من دراساتهم الجادة تعمر بها المكتبات الجامعية فى عواصم اوربا الكبرى ، ولا أتحدث عن مناقشة رسالتى اللتين أشرت اليهما من قبل ، فقد كانت جلسة علمية كلها جلال وروعة ويكفى أن أشير الى انه قد اضطلع بهذه المناقشة خمسة من كبار الاساتذة الفرنسيين اكتفى بأن اشير الى ثلاثة منهم هم الاستاذ (لالند) المشرف والاستاذ (بربيه) أستاذ تاريخ الفلسفة القديمة ، والاستاذ (لويس ماسينيون) الذى أسهم فى تاريخ الفكر الصوفى الاسلامى اسهاما كبيرا ، وكان ثلاثتهم ممن حاضروا فى القاهرة ودرسوا فيها ، وقد زاملت الاستاذ (لالند) بعد عودتى من أوربا فى قسم الفلسفة بآداب القاهرة ، ولم يفتنى فى اية زيارة لباريس أن أتصل به ، واستمتع بمجلسه ، وكان آخر لقاء لى معه قبل وفاته بعام واحد ، واذكر انه ـ وقد جاوز التسعين ـ كان يسعد بالاشراف على حديقة بيته ، ويحرص على أن يحفظ كل يوم قدرا من الكلمات اللاتينية تمرينا لذاكرته ، واستخداما لها . قيادات فكرية نحمد الله على انا اتصلنا بها وأخذنا منها .

وأستطعت أيضا أن أزور مكتبة البودليان بكمبريدج ، وهى من أحفظ مكتبات انجلترا لفلسفة القرون الوسطى المسيحية والاسلامية . ويكفى أن أشير أن ترميمها منذ ثلاثين سنة أو

يزيد قد كشف عن صورة للرئيس ابن سينا بين افلاطون وأرسطو من أعلام الفكر اليونانى .

ولايفوتنى أن أشير الى أن باريس اصبحت اليوم لاتشتمل على سربون واحدة ، بل أنشئت الى جانبها اثنتا عشرة سربونا أخرى ، لكى تخفف الضغط على المعهد القديم ولكى تواجه الحشد الكبير من شباب الدارسين والباحثين ، وهذه فكرة تدعونا الى التأمل فيما يتعلق بمنشآتنا الجامعية ، الا يكون من الخير أن نستحدث منها فروعا في البلد الواحد بدلا من أن نؤسس جامعات متعددة ، قد تتباين طرائقها ، وتتعارض أهدافها ؟ وفى القاهرة الآن أربع جامعات ، ولاأدرى ماذا سيكون المصير غدا .

الفصل العاشر :

المكتبة الأهلية بباريس

المكتبة العامة خزانة الأدب والعلم والحكمة ، ومورد الباحثين والدارسين ، تحتفظ بتراث الماضى ، وتحاول أن تضيف اليه ماتستطيع الحصول عليه من ثمار الحاضر ، أخذت بها الحضارات القديمة على اختلافها ، ويكفى أن أشير فى التاريخ القديم الى مكتبة الاسكندرية التى جمعت قدرا غير قليل من التراث اليونانى والرومانى والعبرى والسريانى ، وتلتها فى القرون الوسطى مكتبات أخرى أخصها « بيت الحكمة » ببغداد الذى كان فى آن واحد خزانة كتب ومعهد درس وبحث ، فقد تولى فيها « حنين بن إسحق » الترجمة من اليونانية أو السريانية الى اللغة العربية ، وكان لها شأنها فى نشأة البحث العلمى فى الاسلام ، وعلى غرار بيت الحكمة قامت مكتبات مختلفة فى الشرق والغرب ، ومن أقدمها ، « مكتبة الفاتيكان » فى روما و« مكتبة الأزهر » فى القاهرة . وفى التاريخ الحديث ازدادت العناية بجمع الكتب وحفظها ، وأسست مكتبات كثيرة فى أوربا وأمريكا ، وكان من حظى أن زرت منها عددا غير قليل ، فقضيت بعض الوقت فى مكتبة « المتحف البريطانى » بلندن ، ومكتبة « البودليان » بكمبريدج واتيحت لى فرصة زيارة بعض المكتبات الأمريكية

الكبرى وفى مقدمتها مكتبة جامعة « هارڤرد» ومكتبة الكونجرس بواشنطن .

لكن واحدة من هذه لم تستوقفنى بقدر ما استوقفتنى « المكتبة الأهلية » بباريس ، وهى لاشك من أهم المكتبات العالمية ، لها تاريخ طويل يرجع الى العهد الملكى والامبراطورى ، فتوفر لها ماجمعته خزائن الملوك الفرنسيين فى قصورهم ، وانتهى بها المطاف الى أن اصبح مقرها ذلك المبنى الهادىء الفسيح بباريس على مقربة من « اللوفر » وتوافرت لها صالات اطلاع فسيحة ، وقسمت نفائسها تقسيما فنيا مكتبيا كاملا ، ونصيبها من المخطوطات جد كبير ، وبخاصة المخطوطات اللاتينية ، وفهرستها دقيقة وشاملة ، والخدمة فيها محكمة ، وقد ترددت عليها ثلاث سنوات كاملة ، وكانت دار العلم المحبب الى فيما بين أعوام واحد وثلاثين وأربعة وثلاثين ، ووجدت فيها كل ضالتى فيما أنا بصدده ، سواء كان باللغة الفرنسية أم بلغات أخرى حديثة كالانجليزية والألمانية ، فيها القديم والحديث معا ، وفيها الهدوء والسكون التام الذى يمكن القارىء المطلع من أن يؤدى رسالته على أكمل وجه ، والاطلاع فيها يُنسى صاحبه أن باريس مدينة الاضواء والحركة ، والفن والمسرح ، بالرغم من قربها من « الكوميدى فرانسيز » عرفت فيها زملاء باحثين ودارسين ، بين شرقيين وغربيين .. مدنيين ودينيين ، وكلهم جد وعمل ، وكم وددت أن أعود اليها من حين لآخر ، بعد ان أنقضى درسى فى فرنسا ، ولكن أعباء الحياة لم تمكنى من ذلك .

ويوم أن عدت الى الوطن ، حاولت أن أتتبع سير عمل المكتبات فى القاهرة ، وفى معاهدنا العلمية الكبرى ، وسرتنى

مكتبة جامعة القاهرة ـ وكانت ناشئة ـ فى مقرها ونظمها ، وحُبب إلىَّ أن أتردد عليها لاسيما وقد وجدت فيها بعض قدامى الخبيرين فى فن المكتبات . باعدت الأيام بينى وبينها زمنا ، ثم عدت اليها أخيرا فوجدت أمورها قد انقلبت رأسا على عقب ، فضاقت المكتبة بما فيها ومن فيها .. وفقدت جو الهدوء الضرورى للبحث والدرس ، وفاتها الترتيب والنظام الذى قامت عليه .

وليست مكتبتنا الكبرى أو « دار الكتب » كما نسميها ـ أحسن حظا ـ وهذا أمر ينبغى أن نتعهده وأن نعد له العدة الملائمة ، وسبيل ذلك إعداد خزائن ملائمة لتراثنا العربى الذى لانزال نملك منه ثروة لايقبل ان نفرط فيها ، وكم من مخطوطات سارع اليها البلى ، لانها لم تتعهد التعهد الكافى ، ولاحياة لمكتبة ، ولاسبيل للاستفادة منها إلا أن توافرت لها فهرسة دقيقة كاملة ، وقام على أمرها مختصون فى فن المكتبات ، وملمون بالأصول والمراجع العلمية والأدبية والفلسفية ، وقد حاولنا أن نعد بعض هؤلاء المتخصصين ، وأنشأنا أقساما لتدريبهم ، ولكننا لم نتابع ذلك متابعة صادقة ، وفى كلية آداب القاهرة قسم نبنى عليه آمالا أرجو أن تخرج لنا شبابا معدا إعدادا تاما للإسهام فى هذا المضمار .

ولامحل لأن نتحدث عن مكتبة عامة إلا إذا جمعت فيها المراجع التى تتلاءم مع حاجات قصادها ، ثم رتبت ترتيبا مكتبيا دقيقا ، وتولى أمرها مختصون فى فن المكتبات .

الفصل الحادى عشر :

حياة المبعوثين فى الخارج

حرصنا فى أوائل القرن الماضى على أن يكون على رأس كل بعثة علمية مشرف خاص ، يرعاها ، ويتعهد شئونها ، وكان رفاعة الطهطاوى كما أشرنا من قبل هو المشرف الأول على بعثتنا الكبرى التى أوفدناها الى فرنسا ، وسرنا على ذلك زمنا ثم توقفت البعوث ، ولم نعد إليها إلا فى أواخر القرن الماضى . ويظهر أنا آثرنا أن نترك للمبعوث حريته فى تدبير أموره والاضطلاع بمهمته . واكتفينا بأن ننشىء ادارات للبعثات فى العواصم الكبرى باروبا ، وكان لمديرى هذه الادارات صلة بالمبعوثين وان لم تكن مباشرة ، هذا إلى أنا استحدثنا فكرة ارسال بعوث فى سن مبكرة بعد الدراسة الثانوية ، وإن صح هذا فى الدراسات العملية ، فانه لم يكن موفقا فى الدراسات النظرية ، وصغار السن على كل حال أحوج من غيرهم الى من يشرف عليهم ويعاونهم ، ومن حسن الحظ أن التزمنا اخيرا بأن نقف بعوثنا على من اتموا دراستهم العالية ، وقد وفق كثيرون من هؤلاء المبعوثين فى اداء واجبهم، وإن طال بهم الزمن احيانا ، ومدت لهم سنة أو اكثر لاتمام دراستهم ، ولايراد بالبعثة ان تقف عند الدرس والقراءة ، بل يقصد بها ايضا اتصال بالحياة الجديدة ،

محاولة فهمها ، وتتبع عادات من يعيش معهم المبعوث ونظام حياتهم فى اسرهم وخارجها .

فهى إلى حد ما تجربة شخصية إن احسنت طابت ثمارها ، وليس معنى هذا أن يبعد المبعوث عن مواطنيه ان وجد إلى جانبه بعضا منهم ، ولكن مما يؤسف له أنّا نميل عادة إلى مصاحبة زملائنا من أبناء بلادنا أو البلاد المجاورة لنا ، ونقصر فى تعرف العالم الجديد الذى نعيش فيه ، وكان من نتائج هذا أن عاد نفر من المبعوثين بشهادات علمية دون أن يحققوا تجربة عملية كان يمكن أن يستمدوا منها بعض الدروس النافعة ، والأسرة الاجنبية ليست مفتوحة فى يسر غالبا ، ولكن إن وفق لها المبعوث أضافت الى درسه وبحثه معلومات لايستطيع الحصول عليها عن طريق الكتب والقراءة ، ويجود عن طريقها لغته الاجنبية تجويدا يعز ان يحصل عليه عن طريق سماع المحاضرات وقراءة الكتب ، يراد بالبعثة العلمية أن تخلق روحا ، وتبعث نشاطا جديدا ، وكان من حظنا ان ماحققناه من تجديد فى الفكر ونظم الحياة ، إنما تم على ايدى مبعوثين استطاعوا ان يحيوا حياتهم كاملة فى البلاد الاجنبية ، ومنهم من اختار زوجته من البلد الذى كان يقيم فيه ، ومن بين هؤلاء الزوجات من ادى رسالة نافعة .

وقد عرف مبعوثونا كيف يلائمون بين قديمنا وجديد الغرب دون اسراف أو تعصب ، وربما غالى بعضهم فى نزعته ثم قضت عليه تقاليد وطنه بأن يقف الموقف السليم . ومن حسن حظى ، أنى لم أسكن باريس إلا لبضعة أشهر دخلتها فى أوائل فبراير من عام تسع وعشرين وتسعمائة وألف وقدر لى أن أسكن فى (بنسيون) تديره أسرة لبنانية . فضللت زمنا

بين اللهجة العربية ولهجات لبنان ، واختلطت فرنسيتى بألفاظ شبه عربية ، وكان لابد لى أن أبحث عن سكن آخر ، ومن محاسن الصدف أنى وفقت لزميل وصديق قديم هو المرحوم الاستاذ محمد كامل الغمراوى إمام السفارة المصرية حينذاك ، عشنا معا فى مدرسة القضاء زمنا ، ثم باعدت سنوات بيننا والتقينا اخيرا فى مدينة النور ، وكان يسكن فندقا فى مكان هادىء ، انضممت اليه ، وعشنا معا دون إن يعطل أحدنا الآخر ، وأصدقاء الغمراوى يعرفون أنه كان يؤثر الصمت ، ولايتكلم إلا لسبب وغاية ، وفى شهر يونيو من العام نفسه ، بدا لى أن أخرج الى ضواحى باريس ، وأستأذنت زميلى الغمراوى فى ذلك فشجعنى عليه ، ووفقت لأسرة فرنسية تقيم فى ضاحية (سيفر فيل دافريه) وقضيت معها اربع سنوات كاملة ، وشاء الغمراوى أن ينضم الىّ ، ووقع اختياره على أسرة أخرى لم يكن موفقا فيها قدر توفيقى ، وفى الحق ان ربة هذه الأسرة التى عشت فيها كانت أرملة طبيب انتقل الى جوار ربه ، وتركها تضطلع بعبئها وعبء بنت صغيرة ، وكانت تسكن فى منزل ريفى محكم البناء ، وفى حديقة كبيرة فيها ثمار وأزهار ، وبقدر ما ماكان صيفنا مزهرا ، كان شتاؤنا عابسا ، وكنت على مقربة من غابة كبيرة مجاورة هى غابة (سان كلو) وكنت أتردد عليها من حين لاخر ، وزهدنى مقامى هذا فى الذهاب الى باريس « اللهم الا لحاجة ملحة او لمتابعة محاضرة ، او الرجوع الى مكتبة ، أو زيارة صديق ، والمسافة بين « سيفر » وباريس قصيرة ، يقطعها قطار كهربائى فى نحو خمس عشرة دقيقة ، ورحلاته متصلة لاتنقطع . أما الاسرة نفسها فقد علمتنى الشىء الكثير ، اكسبتنى لهجة فرنسية صحيحة ، وكانت ربتها تباهى بانها من بلد (ديكارت) وفى الحق انها كانت ترعى نطقى

بقدر ما كانت ترعى طعامى وشرابى ، بل وصحتى اذا ما المت بى وعكة ما ، ولاغرابة فى ذلك لانها ـ كما قلت ـ كانت زوجة طبيب وكانت تسعد دائما بأن تفيد من حولها بخبرتها الطبية ، وليست خبرتها فى شئون المنزل ، بأقل من هذه الرعاية ، فأطباقها ، ممتازة ، وصنعتها متقنة ، قد شهد بذلك اصدقائى ممن زارونى فى ضاحيتى القريبة ، وكان من بينهم المرحوم محمد عبد الخالق مدكور الذى مر بباريس عام ثلاثين ورغب فى أن يطمئن على مسكنى واقامتى ، وهذه السيدة الفاضلة كانت من اسرة كريمة ، ولها علاقات بأسر فرنسية حرصت على أن تعرفنى بهم ، فشهدت حفلاتهم واعيادهم ، ووقفت على تقاليدهم وعاداتهم ، واذكر أن أحد شيوخ هذه الاسرة دعانا الى عشاء فى ليلة عيد الميلاد وقدم للمدعوين نبيذا من مخزنه الخاص ، وقال انه معتق يرجع الى سنة ١٩٠٠ فقلت له : إنه أكبر منى سنا وعلى هذا لا اجرؤ على ان اتذوقه !! وكان من افراد الاسرة طبيب أشعة آخر ممتاز ، كان يعمل فى المستشفى الأمريكى بباريس ، وارتبطنا بصلات وثيقة ، زرته وعرفت بنيه الأربعة ، وقدر لى ان اعود الى باريس عام تسع واربعين ، ومعى زوجى وابنتى وكانت الزوجة فى حاجة الى علاج ، فعرضت امرها على الصديق القديم الدكتور (اندريه شيروه) الذى عاوننا معاونة صادقة ، حجز لنا فندقا قبل ان نصل وارتبط بمواعيد مع الأطباء المختصين ، واضطررنا لعملية جراحية ، وهو الذى اختار الطبيب والمستشفى الملائمين لها ، وسبق لى ان عرفت زوجتى بربة الأسرة فى رحلة سابقة عام ستة وثلاثين ، ذلك أن هذه السيدة اضطرت لان تهجر بيتها فى سيفر ، وان تقيم فى نيس مع ابناء اختها الكبرى ، وحرصت فى تلك الرحلة على أن أمر بها ، وان أزورها ، وقد سبق لها إبان اقامتى معها ان أعربت عن

استعدادها لان تحضر الى مصر ان دعوتها الى ذلك على أن تكون امى الثانية كما كانت تقول هى ، وقد ذكرت زوجى بهذا العرض حين رأتها ، وكم اسفنا نحن الاثنان ، لاننا لم نوفق لذلك ، وفى هذه الصلة ، بتلك الاسر الفرنسية ما دفعنى الى ان اقف ما استطعت على مدن فرنسا واقسامها الكبرى ، فزرت اول مازرت جبال البرانس على الحدود بين فرنسا واسبانيا ، واستمتعت ببعض المياه المعدنية هناك التى تعالج الحنجرة والانف ، وفى زيارات متلاحقة زرت الجنوب غير مرة ، وقضيت فى الألب الفرنسية فترة ممتعة من فصل الشتاء ، وامتدت رحلاتى الى الشمال ، فزرت منطقة الالزاس ، وانتهيت الى حدودها مع المانيا ، وختمت هذه الرحلات بزيارة (بريتانيا) ، ولكل اقليم من هذه الاقاليم خصائصه الجغرافية والمناخية ، ومناظره الطبيعية الممتعة ، ولم تقف رحلاتى اثناء بعثتى عند فرنسا ، بل جاوزتها الى انجلترا ، وايطاليا ، وألمانيا ، وقد أفادنى هذا كثيرا فى تفهم الحضارة الغربية ، والوقوف على مافيها من جوانب ينبغى أن نفيد منها ، وما أدت اليه من اخطاء يجب ان نتحرج منها ، تجربة شئت ان اقف عندها بعض الشىء راجيا أن يكون فيها مايوجه شباب المبعوثين ، ومايحملهم على أن يعرفوا الحضارة الغربية على حقيقتها .

دروس

مرت بنا طوال هذا القرن تطورات متعاقبة ومتلاحقة ، متنوعة ومتعددة ، فمنها الحضارى والعمراني ، ومنها الاجتماعي والسياسى ، ومنها الثقافى والعلمى ، جاءت وليدة رغبتنا فى النهوض والتقدم ، أو صدى لمحاكاة بلاد وأمم ناهضة أخرى شئنا أن نجاريها وأحكمنا المجاراة ، أو أخطأنا فوقعنا فى تقليد أعمى ، نتابع النهوض والتقدم أحيانا أو نتلكأ أحيانا أخرى ، وقد عايشت هذا التطور ، وأسهمت فى بعض تجاربه ، وحاولت فى الصفحات السابقة أن أعرض لكثير من نماذجه ، وفى هذه النماذج مايملى علينا دروسا إن كانت قد فاتتنا فى الماضى ، فآمل ألا تفوتنا فى الحاضر والمستقل .

١ ـ فوقفت عند « قرية أبو النمرس » ، وليست إلا واحدة من قرى مصرية كثيرة ، ازداد سكانها ، واتسع عمرانها ، وجاء فى الغالب محض الصدفة ، وتحت ضغط الحاجة دون تخطيط أو تنسيق ، ولو اتجهنا فى جد نحو « المجالس المحلية » فى القرية أو فى المدينة ، وأخذنا أنفسنا بتخطيط جاد لاتقينا كثيرا من بعثرة قرانا ومدننا ، واذا كان هذا قد فاتنا فى الماضى فما أجدرنا أن نأخذ أنفسنا به بدقة اليوم ، وهناك وعى قروى يبعث على الأمل ، ولكنه يحتاج الى قيادة تؤمن بالنهوض ، وتحرص على التوجيه والتخطيط ، وقد تحدثنا عن « كوردون المدن » ولم نضعه موضع التنفيذ حتى الآن ، وما أحوجنا أن نفعل .

وبقدر ما نأسف على المدن التى تكونت اعتباطا ، نسعد بالمدن الجديدة التى تؤسس بعد درس وتخطيط وتنسيق ، وما أجدرنا أن نأخذ هذا فى جد وحزم ، فلا نسمح بمخالفات أو مجاملات .

٢ ـ وقفت أيضا عند « كتّاب القرية » لأستملى منه درسين مهمين ، أولهما : الصلة الروحية بين المعلم وتلميذه الصغير . ثانيهما : تحديد عدد أبناء هذا الكتاب بحيث تشملهم رعاية سيدنا كاملة ، وما أحوج رياض الأطفال والمدارس الابتدائية بل الاعدادية أيضا أن تأخذ نفسها بذلك ، فيقوم على أمرها المعلم الأب والمعلمة الأم ، ويحمل هذان مايمكنهما من أداء رسالتهما على وجه كامل ، ولم يبق محل للعودة إلى « كتّاب القرية » وإن نادى بهذا من ينادى ، ذلك لأن مواطن القرن العشرين ، والقرن الحادى والعشرين بالأولى ، فى حاجة ماسة الى ثقافة وتعليم أشمل وأدق ، وأصبح « فك الخط » لايكفى المواطن الصحيح فى شئ ، وقد أخذنا بالتعليم الأساسى ، وهو الذى يمكننا من أن نعد المواطن إعدادا يستطيع أن يواجه به أعباء الحياة .

وأدعو الى تحفيظ الناشئين قدرا من القرآن فى مرحلة التعليم الأساسى ، بشرط أن يوضّح هذا القدر ، وان يقرب إلى عقول الأطفال ما أمكن ، أما حفظ القرآن كاملا فله أقسام متخصصة ، يجب أن تخضع لرقابة تامة ، وأن يرسم لها منهج واضح .

٣ ـ ومايقال عن « الكتّاب » يمكن أن يقال عن « المعاهد

الدينية » بفارق مهم ، وهو أن هذه المعاهد جاءت فعلا تلبية لرغبة فى النهوض والتقدم ، وتطوير الدرس الأزهرى تطويرا يتلاقى مع متطلبات القرن العشرين ، وقد اصبحت هذه المعاهد قريبة كل القرب من المدارس الابتدائية والاعدادية ، وآن الأوان لأن ينشأ الطفل المصرى تنشئة متحدة فى المدرسة الأميرية أو المعهد الدينى ، ولنسمها جميعا مدارس أميرية أو معاهد دينية ، المهم هو أن نخلص من بقية من بقايا الطائفية الثقافية ، ونحن فى حاجة الى درس دينى ، وتربية روحية ، واجادة اللغة الوطنية فى المدرسة الأميرية بقدر حاجتنا إلى ذلك فى المعهد الدينى .

ولابأس من أن يفتح باب لغة اجنبية امام هؤلاء الناشئين ، وبذا يصبحون جميعا أمة واحدة .

٤ ـ أخذنا بنظام « البعثات الدراسية » لكى نفتح أعيننا على الخارج ، وقد أدت هذه البعثات الى تكوين جيل من القادة والمصلحين ، كان لهم شأنهم فى تطورنا ونهوضنا ، والصلات العالمية تتوثق وتتأكد عاما بعد عام ، ومن الحمق أن نتحدث اليوم عن اغلاق النوافذ والأبواب المفتوحة للعلاقات الثقافية والحضارية ، ولايقول بهذا الا من ضاق أفقه ، وضعفت عزيمته ، وكل مانرجوه أن تكون لبعثاتنا أهداف محددة ، وأن يقوم الاختيار فيها على أساس سليم ، وأن تحظى برعاية تتابع نشاطها وجهودها ، وأخشى ما أخشاه أن تكون هذه الرعاية اليوم دون المستوى ، وفى العلاقات الثقافية مايمكننا من تبادل لاكتساب خبرات ومعلومات جديدة ومن الخطأ أن يظن أن تعليمنا العالى والجامعى يغنينا عن

السفر والرحلات ، ذلك لأن الرحلة نفسها درس وكسب ما أحوجنا اليهما .

٥ ـ عقدت عن قصد فصلا عن « المكتبة الأهلية بباريس » ، وذلك لأني أومن بأن البحث العلمي الدقيق لايمكن أن يتحقق إلا أن وقفنا على مراجعة وأصوله المختلفة فى المكتبات الخاصة والعامة ، ولابد لنا من أن نعود طلاب العلم فى الجامعات أو المعاهد العالية على الرجوع الى هذه المصادر ، وأن نشرح لهم كيف يفيدون منها ، وهذا أمر آسف ان أقول إننا نفتقده فى المعاهد العالية على اختلافها ، فقد تحول الدرس العالى والجامعي الى صورة من صور الحفظ والتلقين التى أخذنا بها فى الدراسة الثانوية ، وكم أود أن تحل كتب مؤلفة وبحوث متخصصة محل المذكرات الجامعية التى كثيرا ماوضعت على عجل ، ولم تنته إلى آراء ونظريات يمكن الاعتماد عليها .

ومن حسن الحظ أن مصر تستعيد موقفها القديم الذى كانت فيه ثقافيا حلقة وصل بين الشرق والغرب عن طريق مدرسة الاسكندرية ومكتبتها ، وكم أنا سعيد بهذه العودة وأملي كبير فى أن يكون لنا فى مكتبتنا الجديدة العالمية اسهام مصرى يحرز مكانه بين الوان الاسهام العالمى المختلفة .

الباب الثانى :

حياتنا الجامعية

الفصل الأول :

حياتنا الجامعية

أساسها بحث حر طليق ، ودرس متعمق متخصص ، يفتح أبوابه للعلاقات الثقافية على اختلافها ، يأخذ عنها ، ويضيف اليها مايضيف ، ولنا حياة جامعية قديمة مثلها الأزهر فيما يزيد على عشرة قرون ، وقد أنشئت على غراره جامعات أخرى ، كالسربون فى فرنسا ، واكسفورد فى انجلترا ، وازدهر البحث الجامعى فى الأزهر ، يوم أن ازدهرت الحضارة الاسلامية وكانت رائدة ، ثم توقف السير عدة قرون ، أغلق الأزهر فيها الباب على نفسه ، ووقف عند تراث الماضى ، ولم يتابع النهضة العلمية الحديثة .

وكان لابد من التطوير ، وقد أشرنا الى ذلك فى فصول سابقة ، وخطا محمد على الخطوة الأولى فى أوائل القرن الماضى ، وانشأ « مدرسة الطب » ومدرسة « المهندسخانة » على غرار المدارس العملية الحديثة ، واسست بعدهما فى الربع الأخير من القرن الماضى معاهد عالية أخرى ، كمدرسة « دار العلوم » ومدرسة « المعلمين العليا » و« مدرسة الحقوق » الا أن هذه كلها كانت مدارس مهنية لم تتسم بسمات الدرس الجامعى الطليق ، فتحت أعينها حقا على الفكر

لعربى ، ولكنها لم تهدف الى بحث عميق ، ودرس متخصص ، يمكن أن يؤدى الى اضافات علمية جديدة .

وفى أوائل القرن العشرين ، شئنا أن نضع اللبنة الأولى فى بنيان التعليم الجامعى الحديث ، فأنشأنا « الجامعة المصرية القديمة » التى أردنا ان نربط فيها الحاضر بالماضى ، وان نهتدى بهدى كبار بعض العلماء الغربيين ، وكانت ولاشك خطوة على الطريق ، ومن مزاياها انها كانت جامعة أهلية ، انبعثت من رغبة الشعب ، وعبرت عن ميله الى التطوير والتجديد ، وقد قصرت جهودها على مايشبه « كلية الآداب » فى جامعاتنا المعاصرة ، وخرجت الرعيل الأول الذى حمل راية البحث العلمى الحديث .

وحلت محلها فى العقد الثالث من هذا القرن ، « جامعة فؤاد الأول » التى وسعت نطاق البحث الجامعى ، وأنشأت اربع كليات هى : « الطب » التى ورثت مدرسة الطب القديمة و« الآداب » التى ورثت الجامعة المصرية القديمة ، و« الحقوق » التى حلت محل « مدرسة الحقوق السلطانية » والعلوم التى حلت محل مدرسة المعلمين العليا وكل ذلك فى نهج علمى حديث ، ورغبة اكيدة فى الاسهام فى ميدان البحث والابتكار المعاصر ، ومن حسن حظ هذه الجامعة الناشئة أنه قام على أمرها رواد آمنوا بالرسالة الجامعية الحقة ، ونهلوا من حياض العلم الحديث ماوسعهم ، واستطاعوا ان يضيفوا اليها قيما لها وزنها ، فأكدوا حيوية البحث بكل قواهم ، وعززوا استقلال الجامعة ما أمكنهم ، وآمنوا إيمانا جازما بأن العلم لا وطن له ، فاستقدموا كبار العلماء والمتخصصين ، دون تقيد بجنس أو وطن ، واستجاب المسئولون لطلباتهم

وتوجيهاتهم ، وحظيت الجامعة والجامعيون باحترام كبير ، واتصلت « جامعة فؤاد الأول » بكثير من الجامعات العالمية الكبرى ، واصبحت محل تقدير ورعاية ، ولم تقف عند هذه الكليات الأربع التى أشرنا اليها ، بل اضافت اليها - فيما بعد - كليات أخرى ، كالتجارة والزراعة ، وحققت فى الربع الثانى من هذا القرن نجاحا ملحوظا ، واصبحت الجامعة الأم التى تفرعت منها جامعات أخرى قضى بها النمو السكانى والتطور الحضارى وفى مقدمتها « جامعة الاسكندرية » التى تغذت اساسا بخريجى جامعة « القاهرة » وعولت عليهم كل التعويل ، وقضت نحو عشرين عاما فى نشأة وتكوين ، حتى استطاعت ان تؤسس مبانيها الخاصة بها ، من كليات ، ومعامل ، ومكتبات ، وأن تعد جيلا جامعيا للاضطلاع برسالتها ، وكم كانت الانتدابات فى البداية حجرة عثرة فى طريقها والمسافة بين القاهرة والاسكندرية ليست بالقصيرة ، واذا كانت عاصمتنا الأولى قد اعتدت بجامعتها فان العاصمة الثانية تباهى هى الأخرى بجامعة تحمل اسمها ، وتأمل الا تنقطع الصلة بين الجامعتين ، وأن تعقد بينهما علاقات متلاحقة ، ولا اشك فى انهما يتعاملان الآن معاملة الند للند ، ودعت الحاجة الى ان تنشأ فى القاهرة جامعة أخرى ، لكى تخفف الضغط على الجامعة الأم ، وقد تحقق قدر من التنافس والتعاون المجدى والمحمود بين « جامعة القاهرة » و« جامعة عين شمس » ولعل هذا التنافس هو الذى دفع الجامعة الثانية الى ان تأخذ بشىء من الحيطة والدقة فى اختيار طلابها ، وان تحاول الابتكار والتجديد ، ودون أن ندخل فى مقارنة بين هاتين الجامعتين ، نستطيع ان نقرر أن فى وجودهما معا خيرا وبركة .

وكان لابد لصعيد مصر أن يطالب بجامعة خاصة ، وقد أجيب الى رغبته ، وقضت جامعة أسيوط نحو خمس عشرة سنة فى البناء والتكوين ، واصبحت اليوم بدورها جامعة مستقلة فى كلياتها ومعاهدها ، ومكتباتها ومعاملها .

وليتنا وقفنا عند هذه الجامعات الأربع زمنا ، واكتفينا بإنشاء فروع مكملة لها لسد الحاجة ومواجهة متطلبات النمو السكاني والحضارى ، وبذا نمنح أنفسنا وقتا كافيا لدرس مشكلة التعليم الجامعى ورسم تخطيط دقيق محكم له ، ولكن السياسة والنزعة الاقليمية اقحمتا أنفسهما فى ميدان ماكان اغناه عنهما ، وفوجئنا بانشاء ثمان جامعات اقليمية ، لم نفكر فى جد أن نواجهها ولاكيف نعولها ، وليست الجامعة مجرد اسم او ادارة خاصة ، بل انها تتطلب ابنية ومعاهد ، واجهزة وادوات ، وتقوم قبل كل هذا على الاستاذ الجدير بالتدريس الجامعى ، والا اصبحت اسماء بلا مسميات ، وماذا كان يضيرنا لو اكتفينا بانشاء فروع لبعض كليات جامعة اسيوط مثلا فى الجنوب ، أو جامعة الاسكندرية فى الشمال وتركنا هذه الفروع تنمو نموها الطبيعى على مر الزمن ، فتصبح كليات مستقلة لها نظمها وقواعدها ؟ وبوجه خاص ، من المجازفة ان ننشىء كلية عملية دون ان نعد لها كل ماهى فى حاجة اليه ، ونلحظ ان اقساما كثيرة فى كلياتنا لاتستكمل كادرها الجامعى ، وآسف أن يكون من بينها مايعول على المعيد والمدرس المساعد اكثر من تعويله على المدرس والاستاذ ، وكنا نتفكه منذ ثلاثين عاما بعبارة شاعت وهى « الاستاذ تاكسى » ويراد بها الاستاذ المتردد بين جامعتى القاهرة وعين شمس بواسطة التاكسى ، فهل فى وسعنا اليوم

ان نتحدث عن « الاستاذ طيارة » لكى يقطع المسافة بين الاسكندرية واسيوط ، حقا لقد اضطرت باريس فى السنوات الاخيرة ان تضيف الى السربون القديمة نحو اثنتى عشرة سربونا جديدة ، لكى تفسح المجال للطلاب والدارسين ، وتخفف الضغط عن المعهد القديم ، وها نحن اولاء نضيف الى جامعتى « القاهرة » و« عين شمس » جامعة ثالثة هى « جامعة الأزهر » لها تخصصاتها وكلياتها ، ثم اضطررنا اخيرا الى انشاء جامعة رابعة هى « جامعة حلوان » وقيمة كل جامعة فيمن تكون وتخرج ، وماتنتهى اليه من بحث ودرس ، واذا كانت قد طغت علينا فكرة الكم فى التعليم العام فانا لانقرها بحال فى التعليم العالى والمتخصص .

واصطدم التعليم الجامعى بمشكلة أخرى ، هى اضطلاع كثيرين من شيوخ الجامعيين بالتدريس فى الجامعات والمعاهد العربية والافريقية ، وتلك رسالة ما أجدرنا ان نضطلع بها ، ولكن لم نخطط لها التخطيط الملائم ، ولم نفكر فى معاهدنا بقدر مانبذله من جهد فى المعاهد الأخرى فانقطعت السلسلة فى دراسات وتخصصات مختلفة ، واصبحت بعض الكليات فى الجامعات العربية اغنى بكبار رجالنا العلميين من كلياتنا المصرية ، وحرم هؤلاء الشيوخ فى الغالب من مكتباتهم ، فلم تتح لهم فرصة الدرس الهادىء والبحث العميق ، وبعدت الشقة بين هؤلاء الشيوخ وبين تلاميذهم الذين تركوهم فى مصر ، ويحس الجامعيون بذلك الفراغ الموجود فى كلياتنا من نقص الاستاذ والاستاذ المساعد والتعويل بخاصة على المعيد والمدرس المساعد ، ولجلال الشيوخ ورعايتهم اثر كبير فى تكوين الأجيال

الصاعدة ، وهذه خسارة احسسنا بها احساسا واضحا فى الربع قرن الأخير .

ولاسبيل لأحد أن يقول اليوم بإلغاء جامعة تحمل اسم عاصمةٍ من عواصمنا في الشمال أو الجنوب ، ولكن الذى نملك الدعوة اليه هو ان نصرف النظر بتاتا عن انشاء أية جامعة جديدة قبل مضى ربع قرن على الأقل ، وعلينا ـ فوق هذا ـ أن نتريث تريثا تاما فى تكوين ماسميناه جامعات بدون مسميات حقيقية ، ومن العبث ان يعد انشاء جامعة كإنشاء مدرسة ابتدائية أو ثانوية ، والكليات العملية هى عقدة العقد ومشكلة المشاكل ، فهل نحن فى حاجة الان فعلا الى قيام خمس عشرة كلية للطب فى القطر جميعه ؟ وهل فى وسعنا أن نؤدى ذلك على وجهه فى بضع سنوات ؟ وما مصير هؤلاء الخريجين ؟ ولست فى حاجة أن أقول : إن الأقطار الشقيقة بدأت منذ زمن فى استكمال مايسد حاجتها حاليا ، وباب الندب والاعارة لن يبقى فسيحا طويلا ، وبدأت بوادره تؤذن فعلا بأن يضيق عاما بعد عام ، وفى كلمة واحدة استطيع أن أقول : إن سياسة التعليم العالى فى حاجة ماسة الى اعادة نظر ورسم جديدين ، ومن حسن الحظ ان الهيئات النيابية فى مجلس الشعب والشورى بدأت تثير هذه المشكلة ، وأبدت على التعليم العالى الجامعى ما أبدت من ملاحظات ، والموقف يتطلب دون شك تكوين لجان متخصصة ، تدرس المشكلة فى عمومها ، لكى تكشف عن جوانب النقص ، وترسم وسائل العلاج والدواء .

وتواجه وزارة التعليم اليوم هذه المشكلة الكبرى مواجهة

مباشرة ، وأملنا كبير فى أن ترسم للتعليم الجامعى سياسة ثابتة مستقرة تتأنى ماوسعها فى تنفيذ ماتقترحه من خطط ومشروعات وما أغنانا عن إسراف فى الأسماء والمسميات ، والمهم ان نحقق الوسائل والأدوات التى تفتح امامنا أبواب البحث الدقيق العميق الذى نستطيع ان نباهى به فى مجال الفكر العالمى .

الفصل الثاني :

كلية الآداب

عدت من بعثتى عام خمس وثلاثين ، بعد أن قضيت فيها خمس سنوات بعيدا عن الأهل والوطن ، ولم يكن يصلنى الا بعض الصحف المتقطعة ، والخطابات المتبادلة ، وعرض على أن أعود الى الوطن مرة أثناء البعثة . فآثرت أن أتم الرحلة حتى النهاية ، ووقفت نفسى طوال هذه المدة على البحث والدرس ، ويوم أن عدت الى الوطن لم يكن لى هدف سواهما ، ولم أتردد فى أن أقبل ماعرض على السيد وزير المعارف حينذاك من التدريس فى كلية الآداب ، لانى أملت أن أجد فيها الجو الذى وجدته فى (السربون) وأن أساهم فى ايجاد هذا الجو وتكوينه .

وكان لابد لى أن أزور استاذ الجيل ، ورئيس الجامعة حينذاك ، وهو المرحوم أحمد لطفى السيد ، فلقيته لأول مرة وكأنى كنت أعرفه قبل ذلك بسنين . ولقاءات لطفى السيد محببة لدى كل من سعدوا بها ، رحب بى ، وأبى ألا أن أشرب القهوة ، وشاء أن أصحبها بسيجارة قدمها لى فاعتذرت عنها ، وقال لى : « لقد ذكرتنى بزيارتى لجمال الدين الأفغانى فى « استنابول » فقد سعيت اليه لكى اتتلمذ عليه ، وحرص

فى مقابلتى على أن يقدم لى هو الآخر سيجارة ، فاعتذرت كما صنعت انت الآن ، ولكنه قال لى : دخن ودخن دائما ، والذى حدث انى استمررت أدخن . » وكان لقائى بلطفى السيد فاتحة لصلة لم تنقطع ، إن فى الجامعة أو خارجها ، إلى أن لقى ربه .

ولم تكن كلية الآداب غريبة على ، لأنها كانت عامرة بعدد من الأساتذة والاصدقاء الذين عرفتهم من قبل ، وعلى رأسهم طه حسين ، ومصطفى عبد الرازق ، واحمد أمين ، وأمين الخولى ، وعبد الوهاب عزام ، ومن حسن حظ هذه الكلية انه كان على رأسها « طه حسين » وهو جامعى قديم ، يقدر التقاليد الجامعية ، ويحرص على تثبيتها ، ومن أخص ماعنى به أمور ثلاثة :

أولها : الأخذ بمبدأ التعاون الثقافى العالمى ، فالعلم لاوطن له ، والعلماء يجب ان يتعاونوا ويتضافروا ، بصرف النظر عن جنسياتهم وأوطانهم ، ففتح الباب ماوسعه للاساتذة الزائرين والدائمين كيفما كانت جنسياتهم ، وكان فيها ـ الى جانب الاساتذة المصريين ـ اساتذة من بلاد مختلفة بين عربية واجنبية ، وبخاصة فى الأقسام التى تتطلب عونا خارجيا ، كأقسام اللغات الاجنبية ، من فرنسية ، وانجليزية ، فكان التدريس فى هذه الاقسام على ايدى اساتذة من أبناء هذه اللغات نفسها ، الذين يعرفون كيف يقدمونها لطلابهم .

وقد قامت هذه الكلية على عدة أقسام ، ففيها اقسام للغات ، على رأسها قسم اللغة العربية ، والى جانبه ، « قسم اللغة الانجليزية » و« قسم اللغة الفرنسية » . والى جانب

اقسام اللغات ، قامت فيها أقسام أخرى للعلوم الإنسانية ، فكان فيها قسم للتاريخ وآخر للجغرافيا ، وثالث للفلسفة والاجتماع وعلم النفس ، وما كان أشبه هذه الأقسام بنظائرها فى كليات الآداب فى البلاد التى استكملت هيئات التدريس على مختلف مراتبها ، فقام قسم اللغة الانجليزية مثلا فى البداية على أساتذة اختيروا من بين كبار الاساتذة الانجليز ، وكان قسم اللغة الفرنسية يجمع بين الفرنسى والبلجيكى ، ولم يكن حظ قسم الفلسفة بأقل من أقسام أخرى ، فيمن دعى إليه من كبار الأساتذة الأجانب ، إنجليز أو فرنسيين ، وأشهد انى لم اشعر بغربة فى هذا الجو الجديد ، الذى يكاد يلتقى فى مناهجه ورجاله مع ماالفت فى السربون ، أو فى جامعات أوربية أخرى .

وكان من حظى ان أصبحت عضوا فى هيئة التدريس بقسم الفلسفة ، فعملت إلى جانب يوسف كرم مؤرخ الفلسفة ، وأبو العلا عفيفى استاذ المنطق ، ومصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية ، وإلى جانب هؤلاء أجانب بين فرنسيين وبريطانيين ، فنعمت زمنا بصحبة أستاذ سابق لى هو الأستاذ اندريه لالاند ، كما نعمت بصحبة زملاء آخرين ، جو كله صفاء وعطاء وحب وتقدير ، واستطاع أن يكون أجيالا كان لها شأنها فى البحث والدرس الفلسفى منذ العقد الرابع الى اليوم ، ويسعدنى انه كان من بين تلاميذى من اصبح من شيوخ الفلاسفة أمثال : محمد عثمان نجاتى ، وعبد الرحمن بدوى الذى ملأ الشرق والغرب بكتاباته ومؤلفاته .

وعنى طه حسين ـ ثانيا ـ بإرسال بعوث من المصريين لاستكمال دراستهم وتخصصهم شرقا وغربا ، فبعث من بعث

الى فرنسا ، كما بعث الى المانيا وانجلترا وايطاليا ، وحظيت الكلية بدفعات كبيرة منهم ، اصبحوا اساتذة المستقبل ، ولا أظن ان كلية أخرى توسعت فى هذا توسع ، « طه حسين » فى كلية الآداب ، وهى سياسة حكيمة ما أجدرنا ان نستمسك بها ، وأن نمكن شبابنا من الاقامة زمنا فى تلك البيئات الأوربية والأمريكية ، لكى ينهل من حياضها ، ويفيد من تجاربها ، ويربى على منهج البحث والتجربة الدقيقة .

وعنى ثالثا عناية خاصة بالدراسات الكلاسيكية ، وله فيها تجربة شخصية ورأى أن الدرس المتعمق يستلزم الماما ببعض اللغات القديمة ، كاليونانية واللاتينية ، فحرص على أن تعنى أقسام فى كلية الآداب بهاتين اللغتين ، كما ربط اللغات الشرقية القديمة ، كالسريانية ، والعبرية بقسم اللغة العربية ، وأشهد أنه كان فى هذه الاقسام حياة ، كان لها صدى ملحوظ ، وكم كان ينبغى أن تسير فى طريقها الى النهاية ، ونأسف لأنّا نسينا هذا او تناسيناه بعد مدة ، وأصبحت اللغات القديمة بالنسبة لابناء كلية الآداب تقريبا فى خبر كان ، ونال اللغات الشرقية مانالها مع انها وثيقة الصلة باللغة العربية وفقهها .

ولم يقف طه حسين عند الدرس الجامعى ، بل اتجه نحو طلاب الجامعة أنفسهم ، وطريقة تكوينهم ، ولاحظ بحق أن برامج الدراسة فى مراحل التعليم العام ـ وبخاصة المرحلة الثانوية ـ لاتعد الناشئة إعدادا كافيا للدرس والبحث الجامعى ، ولاحظ بالنسبة للجامعة بعامة أنه لابد من أن يعاد النظر فى سياسة التعليم العام والثانوى بوجه خاص ، وسلم بذلك المرحوم « أحمد نجيب الهلالى » وهو من رجال وزارة

المعارف ، قضى فيها زمنا اكسبه ما أكسبه من خبرة ودراية ، ووضع تقريرا معروفا بـ « اصلاح التعليم الثانوى » فأدخل مواد لم تكن تدرس فيه من قبل ، واطال مدته بعض الشىء ، وسبق للجامعة نفسها ان فكرت فى تكوين مدارس ثانوية خاصة بها ، تشرف عليها ، وتتابعها ، لكى تقدم لها الناشئين الذين يغذون كلياتها النظرية والعملية ، ومن حسن الحظ أنه لم يؤخذ بهذا الاقتراح ، وسلمنا من خلق الوان متعددة من التعليم العام ، والأصل فيه ان يكون إعدادا موحدا للمواطن المصرى .

وطلب « نجيب الهلالى » إلى الجامعة أن تمده بالأساتذة لكى يدرسوا المواد الجديدة التى أدخلت على التعليم الثانوى ، وسعدت أن عشت فى هذا الجو ، وأسهمت فى قسط منه بالنسبة لتعليم المواد الفلسفية ، فاخرجت مع المرحوم يوسف كرم كتابا فى تاريخ الفلسفة يتلاءم مع مرحلة الدراسة الثانوية ، وأخرج زميلى المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى كتابا فى المنطق ، والمرحوم الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى كتابا فى « علم النفس » وكان يقوم بتدريس المادة فى المدارس الثانوية ، موفدا من كلية الآداب ، كما أوفد زميل له اخر هو الدكتور « محمد توفيق الطويل » . وأريد بكلية الآداب أن تشرف على امتحان الشهادة الثانوية ، وأن تشترك فى وضع أسئلتها ، وقد أشرفت فعلا على أوراق امتحانها .

وفى وسعى أن أقرر أنه ترتب على هذا نهضة تعليمية لابأس بها ، وكان الشباب الذى يتقدم إلى الجامعة يبعث على الأمل ، ويؤذن بقدرته على متابعة السير ، لاسيما وقد استطاعت الجامعة نفسها ان تقدم بعض خريجيها للتدريس

فى المدارس الثانوية ، وطوال خمسة عشر عاما استطاعت كلية الآداب ان تتغذى بغذاء افضل مما كانت تتغذى به من قبل ، ولكن الاقبال على التعليم والرغبة الزائدة فيه لدى البنين والبنات ، خرج بها عن طاقتها ، فقدمت للكليات الجامعية فى العقد السادس والسابع من هذا القرن طلابا ليسوا جميعا على المستوى الذى يتطلبه الدرس الجامعى ، وملئت الفصول والمدرجات فى الكليات النظرية والعملية باعداد يعز تعهدها وتغذيتها بالغذاء الملائم ، لاسيما ولم يوفر لها التعليم العام ذخيرة يمكن أن تستعين بها .

ومشكلة التعليم العام فى جملته قائمة ، ونحاول أن نعالجها فيما أخذنا به ، مما يسمى « التعليم الأساسى » ونرجو أن يحقق أهدافه ، ونجحنا أيضا فى أن نتجه نحو التعليم « الفنى » ونخفف الضغط على الدرس الجامعى ، لكن المدرسة الثانوية لاتزال فى حاجة الى اعادة نظر ، وسبيل تقويمها العودة بالفصل الى العدد الملائم ، وهو ثلاثون تلميذا أو ماحولها نزولا أو صعودا ، واختيار المعلم الثانوى اختيارا يقوم على : الكفاية ، والقدوة الحسنة ، وحب العمل ، والاخلاص له ، واعداد الكتب الملائمة علميا وأدبيا ، وقد شئنا ان نعالج شيئا من ذلك علاجا آليا عن طريق ماسميناه « مكاتب التنسيق » وكم أود ان نعود مرة أخرى الى اختيار شباب الناشئين لكلياتهم على حسب ميولهم واستعدادتهم .

وكان لابد للحياة الجامعية من تقاليد ثابتة ، وقد أخذ طه حسين نفسه بذلك ، مستهديا خاصة بالجامعات الفرنسية ، ودعا دعوة صادقة الى استقلال الجامعة ، الذى يحقق لها وحدها حرية اختيار هيئة التدريس على أصول جامعية سليمة ، وحرية البحث الطليق الذى لايخضع لرقابة او

توجيه ، ويوفر لها الاعتمادات المالية اللازمة التى تمكنها من اداء رسالتها ، وقد بذل طه حسين فى سبيل ذلك مابذل ، ولاقى مالاقى من اضطهاد وإبعاد عن الحياة الجامعية .

عشت فى كلية الآداب ولها بضع سنين ، وكنت أود ألا يعكر صفو هذه العشرة ما يباعد بينى وبينها ، ومررت بتجربة أحب أن أنوه بها ، وملخصها ان الاستاذ العميد شاء أن يفتح مجال قسم الفلسفة لبعض الطلبة الأزهريين ، ممن حصلوا على الشهادة الثانوية فى المعاهد الأزهرية ونالوا من الدرس الفلسفى قسطا ، ولم تكن مراجعنا العربية فى الدراسات الفلسفية ، فى العقد الرابع من هذا القرن كافية وبخاصة فيما يتصل بالفكر المعاصر ، حاولت أن أحبب هؤلاء الأزهريين فى تعلم اللغة الفرنسية ، ووضعت أمامهم نصوصا سهلة بدأوا يتعلمونها ، وانتهى بهم الأمر ، بعد ثلاث سنوات ، أن عرفوا قدرا من اللغة الفرنسية يمكنهم من الاطلاع والقراءة ، وان بقيت لغة الحديث بالفرنسية ضعيفة لديهم ، ولادل على نجاح هذه التجربة من أن عددا من هؤلاء الطلاب دخل فى مسابقة اعلنتها وزارة المعارف ، لاعداد مدرس اللغة الفرنسية وارسال مجموعة من شبابنا الى فرنسا لتجويد لغتهم ، وقد نجح غير قليل من هؤلاء الأزهريين فى تلك المسابقة ، وما أن عادوا من فرنسا حتى اصبحوا قوامين على تعليم اللغة الفرنسية فى المدارس الأميرية ، وقد تعلمت أنا الفرنسية فى سنهم تقريبا ، والمهم أن توفرت الأسباب الكافية لكل من ينشد التعلم ، ولعل فى هذه التجربة مايهدينا الى أن الجد والمثابرة فى تعلم اللغات الاجنبية لدى خريجى المدارس الثانوية واصبح عالمنا لايكتفى من مواطن مثقف أن يقف عند لغته الوطنية .

وهناك تجربة أخرى يعنينى أن أنوه بها ، وتتلخص فى أنى حظيت فى بعض فصول قسم الفلسفة بفصل يجمع بين الشباب والشابات فى قسمة عادلة ، وأشهد أن هذا الفصل كان من أنجح الفصول فى مراحل التعليم الجامعى التى مررت بها ، فقد كان التنافس بين الفتى والفتاة على أشده ، ولكنه تنافس جاد صادق يعتمد على الاخاء والمحبة ، والأخذ والعطاء ، وكان هذا الفصل نموذجا للسلوك الاجتماعى القويم ، والتعاون الفكرى الصادق ، وعلاقة طلابه بعضهم ببعض ، تلاقوا فى الدرس وتلاقوا خارج الدرس واشتركت معهم فى بعض الرحلات ، فكانت مثالا للكمال والنقاء والتعاون الصادق ، وفى هذا مايوضح أن اختلاط الشبان والشابات ، إن وفق لقيادة حكيمة ، أدى الى نتائج نطمئن اليها .

وقد استحدثت كلية الآداب نهجا فى البحث والدرس يعد المنهج الجامعى المنشود ، ذلك لأنها تعول على أساتذة متخصصين ، يعنيهم أن يعرفوا الحقيقة العلمية على وجهها بعد بحث شامل وتمحيص دقيق ، ويحرصون كل الحرص على أن يوضحوا لتلاميذهم منهج البحث العلمى السليم ، ويرشدوهم الى المراجع الاصلية التى ينبغى الرجوع اليها والأخذ عنها ، واشعروهم بأن البحث العلمى المستكمل لايقنع باللغة الوطنية وحدها ، بل يلزم أن تضاف اليها لغة أجنبية أو أكثر ، لكى تعالج الحقيقة العلمية فى ضوء كل مايتصل بها من فكر ودرس ، ولايفوتنى أن أنوه بأن الدرس الجامعى ، الذى كنت أضطلع به وأدعو اليه ، لم يعول قط على مذكرة او كتاب معين ، بل كان يحث على قراءة أوسع ، ودرس اشمل ، بحيث يكون لكل موضوع مراجع خاصة ، ان فى العربية أو اللغات الاجنبية ، واسعدنى ان اتجه شباب الأمس نحو هذا الهدف ،

وان استمسكوا بهذا المنهج وطبقوه بدورهم ، ولم يكن الدرس والمحاضرة موقوفين على الاستاذ ، بل كان لطلابه نصيب فيهما ، فكلفت عددا غير قليل منهم ، كل بموضوع خاص ، وقدر له الزمن الذى يلائمه ، ويوم أن يكتمل بحثه يسعده ان يعرضه على زملائه ، وعلى هذا لم يكن الاستاذ هو الباحث والدارس وحده ، بل كان الطلاب يشاركونه فى درسه وبحثه .

وأستطيع أن أقرر أن هذا المنهج قد ربى روح البحث لدى الناشئين ، وقد أثمر ثمارا طيبة فيمن مروا بهذه التجربة وافادوا منها ، ونظرة الى التأليف الجامعى فى الثلاثينيات والأربعينيات ، مقرونا بما ظهر بعد ذلك فى الستينيات والسبعينيات ، نلاحظ ان بحوث المرحلة الأولى كانت أنضج واكمل وأعمق وأدق .

عشت بضع سنوات قريبا كل القرب من كلية الآداب ، أتابع درسها ، وأشرف على امتحاناتها ، وأتعهد خريجيها ، ممن يعدون للماجستير أو الدكتوراه ، ولكن الحياة النيابية اجتذبتنى فى سن مبكرة ، فحرمتنى من جو ألفته ، ومن حياة أعددت نفسى لها ، وبعدت عن كلية الآداب زمنا ، ثم فتح بابها لى فى الثلاثين سنة الأخيرة ، عن طريق الاستاذ « غير المتفرغ » وكم كان يروح عن نفسى أن أخرج من جو المشاكل السياسية الى حياة البحث الحر الطليق ، واشتركت فى الدراسات التمهيدية لما بعد الليسانس بضع سنين ، وأحسست مع الأسف الشديد ـ أن طلاب هذه الدراسات يهبطون عاما بعد عام ، إلى درجة انه كان من بينهم من ينزل من مستوى طلاب السنة الثانية قبل الليسانس ، وانتهى بى تقدم السن ، وضعف مستوى الطلاب المستمر ، الى أن اعتذر عن واجب ما كان أحبه الى نفسى .

ولن أنسى قط أياما قضيتها الى جانب زملاء ، أمثال أحمد أمين ، وعبد الوهاب عزام ، وأمين الخولى ، ونعمت فيها بصحبة مصطفى عبد الرازق تلك النفس الزكية التى كان يأنس اليها الجميع ، والحق ان كلية الآداب حققت فى الثلاثين سنة الأولى فى حياتها نهضة ، لا أظن أنها جارتها فيها كليات حديثة أخرى ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى أن هيئة التدريس كانت فعلا من صفوة الذين لم يعرفوا الا الصدق فى القول والاخلاص فى العمل ، وما كانوا يترددون فى أن يضطلعوا بعبء يعين على اداء رسالتهم ، ولاأزال اذكر أنه أريد بى يوما أن أشترك فى مسرحية تعتمد على فلسفة ابن المقفع فى كتاب كليلة ودمنة ، وكان من بين ابطالها عبد الوهاب عزام وامين الخولى ، وقد رحبوا جميعا بالفكرة وتهيئوا لتنفيذها وتحقيقها ، ولم يمنعهم من ذلك إلا عدوان على استقلال الجامعة فى شخص عميد كلية الآداب ومدير الجامعة نفسه وأساتذها ، ومربون هذه هى روحهم وصلاتهم ، جديرون بأن يخلقوا بناة المستقبل ، ودعاة النهوض والتجديد الصحيح ، وما أجدرنا أن نفكر جديا - وبخاصة الآن - فى سن المعاش بالنسبة للاستاذ الجامعى ، لكى نعيد الى الحياة الجامعية وقارها وقدوتها الصالحة .

هذه هى ذكريات كلية الآداب بجامعة القاهرة طوال خمسين عاما ، وهى تملى علينا دروسا أخصها : انه ينبغى أن نعود بالدرس الجامعى الى وضعه القديم الذى يقوم على القراءة المستوعبة والفهم الدقيق ، ولاسبيل إلى ذلك إلا لمن أعدوا فى مرحلة التعليم العام إعدادا يؤهلهم لهذه المهمة .

ونحس بأنا افتقدنا التقاليد الجامعية السليمة تحت ضغط

الأعداد الكثيرة التى ملئت بها مدرجات الكليات ، وضعف التعليم العام فى أداء رسالته ، ونقص هيئات التدريس نقصا يكاد يؤدى الى الفراغ المطلق .

والدرس الجامعي هو السبيل الأقوم لإعداد شباب المستقبل وقياداته ، وإذا لم تتوافر له أسبابه فلا سبيل الى اعداد هذه القيادات ، وطغت فكرة الكم على فكرة الكيف فى التعليم العالي والجامعي ، كما طغت على التعليم العام فى مراحله المختلفة ، ونحن نعيش في عصر التجويد والتعمق والابتكار ، ولابد لنا أن نهييء شبابنا لأداء هذه الرسالة .

الفصل الثالث :

الكليات الأزهرية

قام الدرس الأزهرى - حتى أوائل القرن الحالى - على الحرية المطلقة والاختيار التام ، حرية الشيخ فى تحديد موضوعه ، ومكان درسه وزمانه ، وتعددت الكراسى والحلقات تبعا لتعدد الشيوخ ، أما الاختيار فكان تاما بالنسبة لطلاب العلم ، يتجهون نحو الحلقة التي يريدونها دون فرض او توجيه ، ودون حساب على غياب او حضور ، فكانت الرغبة هى الباعث الحقيقي لمتابعة الدرس والافادة منه وبقدر ما اتسعت حلقات ، ضاقت حلقات اخرى ، والتاريخ يذكر حلقة الاستاذ الامام ، أو الشيخ محمد بخيت فى الرواق العباسى ، ولم يكن ثمة امتحان نقل ولا امتحان شهادة ، اللهم الا الشهادة العالمية التى ماكان يجرؤ طالب على ان يتقدم لها الا بعد مضى نحو خمس عشرة سنة ، وبين الطلاب الاجانب والمصريين عدد غير قليل كان يكفيه ان يحصل على قدر من الدرس والتعلم ، دون ان يطمع فى الحصول على الشهادة النهائية ، ولم يحرمه هذا من ان يباهي بانه من طلاب الازهر وعلمائه .

وقد قام هذا الدرس اساسا على النصوص وتحليلها

ومناقشتها ، مختصرة تارة فى صورة متون ، او مفصلة تارة اخرى فى صورة شروح ، او حواشى ، او تقارير ، وكثيرا ماتعددت هذه الشروح وتلك الحواشى على النص الواحد ، ومن بين الشيوخ من اشتهر بحواشيه او بتقاريره ، ولقد برز الشيوخ حقا فى هذا التحليل اللفظى ، وبيان الدلالات المختلفة للفظ او جملة او تعبير ، وهذا ما اصطلحوا على ان يسموه « تشقيق الكلام ».

وفى دراسة النص هداية وتوجيه ، ولكنه ارتباط بالماضى ، وبعد عن الحاضر ، وحبس للفكر فى دوائر معينة ، حتى الاعتراض والاستفسار انما كان مجرد اعادة لاعتراضات واستفسارات سابقة وأجوبة عنها ، وقد عبر عن هذا كله بالعبارتين التقليديتين : « فإن قلت قلت » وفى كل هذا ماجعل الدرس مجرد تحصيل وجمع ، دون افساح المجال للتفكير الخاص ، ووصل التمسك باللفظ الى حد ان الشيخ ان لم يستقم له النص الذى يعالجه ، أجل درسه الى فرصة اخرى ، ويحكون فى هذا حادثة عن المرحوم الشيخ الامبابى المشهور بتقاريره ، لا ادرى مدى صحتها وملخصها : انه كان بصدد تفسير الاية الكريمة : « لقد رضى الله عن المؤمنين » وفى الدرس التالى بدأ بالجملة التالية إذ يبايعونك تحت الشجرة » ، وأخذ يحللها على النحو التالى : « أَذِيباً يَعُونَك » واعرب « أذيبا » مفعولا لفعل محذوف ، فوجه نظره احد الطلاب الى صحة القراءة ، فلم يكن منه الا ان اغلق ملزمته واجل درسه .

ولم يكن بد من ان نعيش فى القرن العشرين ، وان نعالج الامور فى تفتح وادراك ادق واعمق ، وبدا انه لابد من إعادة

النظر فى شئون التعليم بذلك المعهد العتيق ذى التاريخ الطويل ، والذى خرج رجالا كان لهم بصمات فى حياتنا الفكرية والثقافية ، وان فاته ان يعد جماهير المتعلمين لحياة العصر الحديث ، ويظهر ان الامام محمد عبده كان يرى معالجة الموقف من طريق محاذ للطريق المألوف ، واراد به ان يغذى من طلاب الازهر على ان يعرض عليهم الدرس والبحث فى صورة اكثر طلاقة وادق واوسع افقا ، فناصر فكرة انشاء مدرسة دار العلوم فى اخريات القرن الماضى ، واتجه فى اوائل هذا القرن نحو فكرة « مدرسة القضاء الشرعى » وما هاتان المدرستان الا امتداد للتعليم الازهرى على ان ينقح ويهذب ، ويعرض بلغة العصر وروحه ، وعلى ان تضاف اليه مستحدثات العلم الحديث ، ويعزى الى الاستاذ الامام انه قال يوما : « بقيت فى الأزهر عشر سنوات ثم قضيت بعدها حياتى فى فك القيود القديمة التى غلبت على تفكيرى »

وسارت المدرستان فى طريقهما ، وقدر لدار العلوم حياة طويلة مستمرة ، واحتفل بعيدها المئوى منذ سنتين ، وعدلت مناهجها وموادها غير مرة ، وهى اليوم كلية من كليات جامعة القاهرة ، اما مدرسة القضاء فلم تعمر الا نحو عشرين عاما ، وقد اشرنا من قبل الى شىء من تاريخها .

وحاول اخرون ان يواجهوا الموقف من داخل الازهر نفسه ، وفى مقدمتهم المرحوم الشيخ محمد شاكر الذى يرجع اليه الفضل فى انشاء الاقسام النظامية بالازهر : لم يغلق باب الدرس الحر الطليق فى داخل الازهر ، ولكنه انشأ الى جانبه درسا منظما فى المعاهد الدينية يختار طلابه ويحاسبون على حضورهم وغيابهم ، ويمتحنون فى آخر العام ، رجاء ان ينقلوا

الى السنة التالية ، وكان لهذه المعاهد مراحل ابتدائية ، وثانوية ، وعالية لكل مرحلة شهادتها فالابتدائية الازهرية تقابل الابتدائية المدرسية ، والثانوية الازهرية تقابل شهادة التعليم الثانوى ، والشهادة العالية فى نهاية القسم العالى .

وسارت المعاهد الدينية فى طريقها ، واضافت بعض العلوم الحديثة الى المواد التقليدية من علوم نقلية : كالفقه والتفسير والحديث ، او علوم لغوية : كالنحو والصرف والبلاغة ، او علوم عقلية : كالتوحيد والمنطق ، وانصبت العلوم الحديثة على التاريخ والجغرافيا والكيمياء والحساب والجبر والهندسة .. ونمت المعاهد الدينية ، وامتدت الى كثير من مدننا الكبرى .. ولم يبق مجال فسيح للدرس الازهرى الحر القديم الذى انصرف عنه طلابه الى المعاهد النظامية .

واحس المرحوم الاستاذ المراغى أنّا بعدنا عن الثقافة القديمة المتعمقة ، ورأى ان يعالج هذا عن طريق تخصصات فى كليات تغذى من المعاهد الدينية ، وبدأ فيها بكلية الشريعة التى تعنى بدراسة الفقه والتفسير والحديث .. وكانت معهدا لتخريج القضاة الشرعيين والمحدثين والمفسرين ، والتحق بها من حصلوا على الشهادة الثانوية من المعاهد الدينية ، ليكملوا دراستهم اربع سنوات ، ويحصلوا بها على شهادة العالمية ، وقد عنيت هذه الكلية بعلوم المنقول .

واسست كلية اخرى تعالج علوم المعقول ، وهى كلية « اصول الدين » فكان فيها توحيد وفلسفة ومنطق ، واختير لرياستها شيخ جليل ، هو المرحوم الاستاذ عبد المجيد اللبان ، وقد كان للبان رحمه الله بسمته الرقيقة ، وعباراته المحببة ، التى كثيرا ماحملت محدثيه على الاستجابة لمطالبه ، وشاء ان

اسهم فى بعض تخصصات كلية « اصول الدين » ولم اتردد فى ان ألبى رغبته ، وقدر لى ان اقضى عدة سنوات فى قسم الفلسفة والتوحيد ، مما كان يسمى « تخصص المادة » والصلة بين التوحيد والفلسفة وثيقة وان حاول المتأخرون ان يقطعوها ، وان يقصروا الدرس النظرى على ماسجلوا من متون وشروح وحواش فى علم الكلام .

واعجبت فعلا بربط التوحيد بالفلسفة ، وعددت ذلك تجربة كنت ارجو لها ان تصل القديم بالحديث ، وان يستعيد بها الدرس الفلسفى مكانته فى الازهر ، بعد ان حرم منها عدة قرون ، ومما حببنى فى هذه التجربة انها وقفت على رجال استكملوا درسهم للتراث الاسلامى طوال اثنى عشر عاما ، ثم اخذوا يتعمقون هذا الدرس فى تخصصهم ويوضحون فى ضوئه ثمار الفكر الانسانى : قديمه ومتوسطه وحديثه . وحاولت ما استطعت ان ابين لهؤلاء الرجال المتخصصين ـ وعددهم غير كبير ـ ان الفلسفة اليونانية ليست غريبة على الفكر الاسلامى ، وان ارسطو عده العرب بحق « المعلم الاول » واخذوا عنه منطقه وطبيعياته وآلهياته .. اخذوا عنه دون ان يتعبدوا به ، فأيدوا من آرائه ما ايدوا ، ورفضوا ما رفضوا .. ومايقال عن ارسطو فى التاريخ القديم يمكن ان يقال عن مفكرى القرون الوسطى والتاريخ الحديث ، فلنا ـ بل علينا ـ ان نقف على آرائهم ونظرياتهم ، لكى نتابع تطور الفكر الانسانى فى مراحله المختلفة ، ولكى نوازن بين القديم والجديد .

وكم وددت ان يلم طلاب قسم التوحيد والفلسفة بلغة اجنبية ، كى تفتح امامهم الآفاق فيستطيعوا ان يقفوا على آراء مفكرى الغرب مباشرة ودون واسطة .

وإذا كانت كلية اصول الدين لم تفسح صدرها للغة اجنبية ، فانها عالجت هذا النقص من جوانب اخرى ، وحرص المرحوم المراغى على ان يربط القديم بالحديث ، فبعث بعوثا الى اوربا لكى يستكملوا الدرس الفلسفى ، كان من بينهم رجال اسهموا فى هذا التطوير الجديد ، ووضعوا لبنات فى تاريخ الفكر المصرى المعاصر : امثال الدكتور حب الله ، والدكتور محمد البهى ، والدكتور محمد ماضى ، والدكتور على عبد القادر ، ولايفوتنى ان اذكر اسمين آخرين ، هما المرحوم غرابة الذى عجل بالرحيل عن دنيانا ، وكنت ألمح فيه ذهنا وقادا ، وفكرا متعمقا ، وابنى عليه آمالا كبيرة فى عرض الفكر الاسلامى عرضا منطقيا سهلا يستعيد مجده ، ومنزلته ، واما الآخر فهو المرحوم الدكتور بيصار الذى اتجه نحو فلسفة ابن رشد واثبت ان الفيلسوف القرطبى مفترى عليه ، وان فلسفته لاتتعارض مع تعاليم دينه ، وتشاء الظروف ـ بعد محاربة الفلسفة فى معاهدنا الكبرى القديمة ـ ان يصبح الدكتور بيصار الفيلسوف شيخا للازهر ، واسعدنى ان زاملت بعض هؤلاء الشيوخ الاعلام ، وكنت اعتقد ان فى وسع كلية اصول الدين ان تمد العالم الاسلامى بعلماء ومفكرين يستطيعون ان يواجهوا متطلبات العصر وحاجاته .

وعرفت الاستاذ ابراهيم حمروش فى كلية اللغة العربية ، قبل ان ازامله فى مجمع اللغة العربية فقد طلب إلىّ هو الآخر أن القى بعض دروس فى الأخلاق للمتخصصين من طلبة كليته ـ وكان اغلبهم اسن منى ـ ومع اسفى الشديد لم استمتع بهذه الصحبة زمنا طويلا ، وقد ذكرنى بها اخيرا المفتى الاسبق الشيخ محمد خاطر الذى كان يباهى بانه كان احد تلاميذى ، واعجبنى من الشيخ حمروش صراحته ونقده

اللاذع وعلمه الوثيق باصول العربية وقواعدها ، ومن حسن حظى انى زاملته فى مجمع اللغة العربية منذ عام ستة واربعين الى ان لقى ربه ، وكان احد شيوخ ثلاثة من مؤسسى هذا المجمع ، وزميلاه هما : الشيخ محمد الخضر حسين والشيخ حسين والى وللشيخ حمروش تاريخ حافل فى مجمع اللغة العربية ويكفيه انه تعهد معجم الفاظ القرآن عدة سنين ، واشرف على اجزائه الثلاثة الاولى .

واشتركت زمنا فى كلية اللغة العربية وعنيت فيها بجانب المعقول ، فعرضت لبعض الدراسات الاخلاقية وتنويها بكبار الاخلاقيين من المسلمين ، وكبار الاخلاقيين فى الفكر الانسانى قديمه ومتوسطه وحديثه ، وحرصت فى صلتى بهؤلاء الطلاب الرجال على ان افتح امامهم ابواب البحث ، وأن أدع لهم ان يسلكوا الطريق ، وناشدتهم أن يقرءوا ، وان يناقشوا وان يعلقوا ويحكموا على ما انتهى اليه درسهم وبحثهم ، لم افكر قط فى ان اقدم لهم مذكرة معينة ، وانما كنت اشرح الدرس واحيل على مراجعه الميسرة لهم ـ وماكان اقلها ـ وكم وددت ان لو عرفوا لغة اجنبية تكمل درسهم وبحثهم العربى ، ومن بينهم من اتيحت له فرصة بعثة الى العالم الخارجي ، فتمكن من الانجليزية او الفرنسية ، واكتسب منهجا ونظرة جديدة .

ولسوء الحظ انه لم يقدر لهذه الكليات الثلاث ان تعمر طويلا فى وضعها الخاص ، وكما قال ارسطو : « يجب ان نعيش قبل ان نتفلسف » ، ولو فتحت ابواب الحياة فى يسر امام خريجيها مافكر احد فى تحويل التعليم الازهرى العالى

الى الشكل الجامعى ، وللفظ الجامعة بريق ، وفى شهاداتها مايبسر سبل العيش ، ويفى بمقتضيات الحياة ، فتحولت الكليات الازهرية الى « الجامعة الازهرية » التى تنمو وتتسع على مر الزمن ، وتحاول ان تستكمل التخصصات العلمية جميعها ، وهى ثمرة من ثمار العهد الحاضر ، ففيها المسميات القديمة التى تغير مدلولها : ككلية اللغة العربية ، وكلية الشريعة ، وفيها كليات حديثة : ككلية الطب ، وكلية العلوم ، وكما حدث بالنسبة للمعاهد الدينية ، لم تقف الجامعة الازهرية عند العاصمة الكبرى ، بل بدأت تنشىء فروعا لها فى المدن الاخرى ، وفى تعدد سبل العلم خير وبركة ، ولكنى اتساءل : هل لاحظنا فى الجامعة الازهرية الحديثة الربط الوثيق بين القديم والحديث ، على النحو الذى قامت عليه فكرة تطوير التعليم الازهرى فى الستين سنة الاولى من هذا القرن ؟ واظننا نتفق جميعا على ضرورة هذا الربط ، وفى وسعنا ان نحققه وبخاصة فى الكليات التى تتصل اتصالا وثيقا بالثقافة الاسلامية .

الفصل الرابع :

جامعة الأزهر

خاتمة مطاف طويل لتطويز التعليم الازهرى ، بدء فى اوائل هذا القرن ، ومر بعدة مراحل ، اولها انشاء المعاهد الدينية التى تقوم على ثلاث مراحل : ابتدائية وثانوية ، وعالية ومدة كل واحدة منها اربع سنوات ، وتختم بعد ثلاث عشرة سنة بالشهادة العالية ، ثم تلتها فى الثلاثينيات مرحلة ثانية ، اشتملت على ثلاث كليات متخصصة : هى اصول الدين والشريعة ، واللغة العربية ، ويلحق بها الحاصلون على الثانوية الازهرية ، ومدة الدراسة فى كل كلية اربع سنوات ، يحصل الطالب بعدها على الشهادة العالمية ، وله ان يتابع الدرس بعد هذا لكى يحصل على درجة الدكتوراه .

ومن خريجى هذه الكليات من اوفد الى الخارج ، لاستكمال درسه وبحثه ، ودراسة لغة اجنبية تفتح امامه آفاق البحث العالمى .

ثم استمر الامر على هذا الشأن زمنا ، وعدت الكليات الثلاث ممثلة للتعليم الازهرى التقليدى فى ارقى صوره ، وكان يمكن ان تسمى جامعة ، وفى الستينيات اثير الموضوع مرة اخرى ، واريد بالجامعة مدلولها الحديث ، فشملت الدراسات

الطبية ، والهندسية ، والزراعية ، والتجارية ، والاقتصادية ، وانشئت جامعة الازهر على اساس اوسع كثيرا مما اريد فى النصف الاول من هذا القرن ، وضمت جامعة رابعة الى جامعات القاهرة الثلاث ، وقصد بها اساسا ان تتغذى بخريجى المعاهد الدينية ، وهم فى كثرة متزايدة عاما بعد عام ، نظرا للتوسع المطرد فى انشاء هذه المعاهد ، وفى هذا مايزيد مشكلة الثنائية فى التعليم العام تعقيدا ، ولابد لنا ان نتخلص منها ، لاسيما وان المعاهد الدينية اخذت تدنو ما استطاعت من نظم التعليم فى المدارس الاميرية والاهلية ، او الخاصة كما تسمى الآن .

ولاننكر مطلقا ان يدرس الطب فى جامعة الازهر ، كما يدرس فى جامعة القاهرة ، ان توافرت له معامله ومستشفياته ، وكل جوانبه التطبيقية والعملية ، ولكن نتساءل حقا : هل تكفى اللغة الوطنية وحدها فى الدرس المتخصص فى عالمنا الحاضر ؟ والبحث فيه على قدم وساق شرقا وغربا ، والابتكار والاختراع متلاحق ولانريد لشبابنا مطلقا ان يكون فيهم اطباء من الدرجة الثانية وآخرون من الدرجة الاولى ، وفى قيام جامعة الازهر مايلح على ضرورة الفصل فى سياسة توحيد التعليم العام ، ولابد للناشىء المصرى ان يربط حاضره بماضيه ، وان يعد اعدادا كاملا للعيش فى عصره .

وقد لوحظ اخيرا ان عددا غير قليل ، من طلاب بعض الكليات النظرية وطالباتها فى الجامعة الازهرية ، يتسابقون الى كلية دار العلوم التى فتحت ابوابها لعدد منهم .

ولو أتيح هذا التحويل لكليات اخرى لتسابق عليها كثيرون ، ولو وحد التعليم العام منذ البداية ، لسلك كل شاب وشابة

الطريق الذى يلائمه ، وباختصار فى نظمنا التعليمية ثغرات نغفلها او نتغافلها وندعها تكبر وتتسع ، بحيث تصبح وقد اتسع فيها الخرق على الراقع ، والادارة القوية والرأى الواضح كفيلان بان يعالجا كل نقص .

ويزيد الامر دقة ان جامعة الازهر تتوسع فى انشاء كلياتها فى العواصم والمدن الكبرى ولم تقف عند القاهرة ، وتزداد هذه الكليات عاما بعد عام واظن انها وصلت اليوم الى مايزيد عن سبعين كلية ، وهنا نتساءل : هل يراد لكل مجموعة من هذه الكليات ان تكون نواة لجامعة ازهرية الى جانب جامعة اسيوط او الزقازيق ؟ وكأننا بهذا نمد مشكلة الثنائية فى التعليم العام الى التعليم العالى ، واخشى ما اخشاه ان ينتهى بنا هذا الى طائفية ثقافية ونحن نعيش فى عصر يمقت الطائفية على اختلاف صورها .

ومن اغرب مايلاحظ ان جامعاتنا الاميرية كلها تخضع للدولة ، وتتغذى من ميزانيتها العامة ، وجامعة الازهر فى مقرها الرئيسى وفى فروعها المنتشرة فى الاقاليم تتغذى هى الاخرى من المنبع نفسه ، وكم شكونا فى الربع الاول من هذا القرن ، من طائفية لوحظت بين ابناء دار العلوم وخريجى مدرسة المعلمين العليا ، وفى هذا الماضى القريب مايدعونا لأن نقف وقفة حاسمة ازاء ثنائية التعليم فى مراحله المختلفة .

الفصل الخامس :

الجامعة الأمريكية

ثمرة من ثمار ماض بعيد ، يتلخص فى ان يكون لبعض الجاليات الاجنبية مدارس تنشر لغتها ، وترفع راية ثقافتها ، فأسست مدارس فرنسية ، وثانية انجليزية او امريكية وثالثة المانية ، وقد وقفت هذه المدارس عند التعليم العام فى رياض الاطفال والمرحلة الابتدائية والثانوية وكانت الجانب المهم فى التعليم الخاص ، ولم تقتصر على الاجانب بل فتحت الباب للمصريين ، واسهمت اسهاما واضحا فى تكوين شباب يجيدون لغة اجنبية او اكثر ، ولم يجاوز نطاق التعليم العام الا مدرسة الحقوق الفرنسية التى تخرج فيها بعض شباب القانونيين ، وعاشت الى جانب مدرسة الحقوق الملكية ، ولكن لم يلبث التعليم الجامعى المصرى ان طغى عليها ففقدت اهدافها وبخاصة بعد الغاء المحاكم المختلطة ، ومن بين هذه المدارس ماتشرف عليه هيئات دينية كمدارس القلب المقدس او مدارس العائلة المقدسة ، وفى عام ١٩٥٣ رأت وزارة التربية والتعليم ان تتوسع فى مراقبتها واشرافها على هذه المدارس ، ولم تخل هذه الرقابة من تضييق وتحكم احيانا كان له اثره فى اداء الرسالة التى اضطلعت بها مدارس اللغات جميعها ، واذكر ان حروب عام ١٩٥٦ افضت الى اغلاق مدارس الليسيه وكان الفرنسيون يعتقدون ان لهم فى مصر

رسالة ثقافية يضعونها فوق كل اعتبار ، ولا أزال اذكر حديثا دار بيني وبين المسيو « فور » المسئول عن المعاهد التعليمية الفرنسية فى البلاد العربية حينذاك فقد قرر لى فى وضوح ان الحكومة الفرنسية مستعدة ان تتنازل عن كل شيء اللهم الا عن رسالتها التعليمية ، وكان من نتاج هذا التضييق انه ابقى على مدرسة واحدة لليسيه فى القاهرة ، ولم يسمح لفترة لقيام المدرسة الثانية التى كانت موجودة من قبل فى مصر الجديدة .

وكان من نتائج هذا ان تعليم اللغات الاجنبية وبخاصة العالمية منها كالفرنسية والانجليزية والالمانية ، ابتلى بضعف ملحوظ في الثلاثين سنة الاخيرة ، ان فى المدارس الاميرية او فى المدارس الاهلية .

ومما يبعث على الامل ان قامت اخيرا مدارس خاصة لتعليم اللغات الاجنبية ، وكلي رجاء ان تؤدى رسالتها على وجهها وان تحظى باشراف من وزارة التعليم .

وكانت الجامعة الامريكية فى نشأتها واحدة من هذه المدارس الثانوية ، وعنيت خاصة ببعض الاجانب المقيمين فى مصر ، او الوافد اليها من بعض البلاد العربية ، او الافريقية ، وحامت حولها شبهة دعايات تبشيرية لم يقم اى دليل عليها ، ومن حسن حظها انه قام على امرها مديرون ورؤساء طال مكثهم وتمكنوا من ان يحظوا بثقة الاباء وزملائهم من المربين الآخرين ، وثقة المسئولين فى وزارة التربية والتعليم بوجه خاص ، ومن بين هؤلاء الروءساء من عاد الى مصر سفيرا بعد ان كان مربيا ومسئولا عن الجامعة الامريكية

، وحاولت هذه الجامعة ان تسمو شيئا فشيئا الى مرحلة التعليم العالى .

وترجع صلتى بهذه الجامعة الى نحو اربعين سنة او يزيد ، وعنيت بقسم خاص من اقسامها وهو قسم الخدمة العامة الذى كان ينظم سلسلة محاضرات سنوية اسهمت اسهاما كبيرا فى معالجة كثير من مشاكلنا الاجتماعية والثقافية ، ومن حسن حظ هذا القسم ان قام على امره جامعى ومواطن صادق هو الدكتور حنا رزق الذى انتهى به المطاف ان اصبح اخيرا مديرا للجامعة . وقد نشر بعض هذه المحاضرات ، وما اجدرها ان تجمع وتقدم لشباب اليوم الذى لايكاد يعرف عنها شيئا .

ولست ادرى هل يستطيع .. ومن حسن الحظ ان قسم الخدمة العامة بالجامعة الامريكية قد استعاد نشاطه بعض الشىء ، وما اجدره ان يتوسع فيه ويعززه .

ومما يبعث على الامل ان الجامعات الاقليمية بدأت تتنافس فى نشاط ثقافى ، فعقدت ندوات ومؤتمرات متلاحقة عاما بعد عام ، وتعد هذه اللقاءات منارة هداية وارشاد فى البلاد كلها ، ولاشك فى ان وزارة الثقافة تعاون هذا وتعززه ما وسعها .

والانجليزية هى لغة التعليم الاساسية فى الجامعة الامريكية ، بها تدرس العلوم النظرية من أدب ونقد او اقتصاد وسياسة ، ففتحت صدرها ـ اخيرا ـ لكثير من شبابنا الذى ربى فى معاهد اجنبية بالخارج ، وعز عليه ان يلتحق بالجامعات المصرية ، هذا الى ان الحياة الاقتصادية وظروف الانفتاح قامت فى احوال كثيرة على تعاون بين مصريين

واجانب ، واحتاجت الشركات الاستثمارية التى تقوم على رأس مال مشترك الى من يسهمون فى نشاطها من شباب وشابات مر أغلبهم بالجامعة الامريكية ، وبذا زادت نسبة المصريين فى هذه الجامعة زيادة ملحوظة واتضح دورها فى النشاط الثقافى والتعليمى ، مما ادى الى الاعتراف بشهاداتها ، وتحقيق تعاون بينها وبين الجامعات المصرية .

وتتم اليوم دراسات متخصصة للماجستير والدكتوراه بالتعاون بين الجامعة الامريكية والجامعات المصرية ، واعتقد انها احسنت في بعدها عن الدراسات العلمية من طب وهندسة ، وتكفيها رسالتها التى تضطلع بها اليوم ، وتسد بابا ملحوظا فى الدراسات الانسانية ، ومتطلبات الحياة الاقتصادية بوجه عام .

الأجيال الجامعية المتعاقبة

الدرس الجامعي حب وتعلق ، تخصص وتعمق ، ويقوم خاصة على صلة وثيقة بين الاستاذ وتلاميذه ، وكانت هذه الصلة فى التعليم الازهرى طويلة ووثيقة ، وخرجت من خرجت من تلاميذ ، هم امتداد صادق لاساتذتهم . ولامر ما رفعت فرنسا من المعاش للاستاذ الجامعى لكى تطول مدة عطائه ، وتتوثق الصلة بينه وبين من يعدهم خلفا له ، ولم يكن لشيوخ الازهر قديما سن معاش محدد ، وليس معنى التلمذة والاستاذية مجرد المحاكاة والتقليد ، بل القصد الاول فى هذا المضمار هو اعداد جيل من الباحثين والدارسين الجامعيين ، لهم شخصيتهم وقدرتهم على العطاء والابتكار . واذكر انى قرأت يوما تصديرا لاستاذ فرنسى جليل يقدم به بحثا لاحد تلاميذه ، ويقرر فيه انه اسعده ان يخالفه تلميذه فى بعض ما انتهى اليه من آراء ، وانه أحسن التدليل على وجهة نظره ، وهكذا يكون الاستاذ الكبير ، والتلميذ صاحب الرأى المستقل .

ولابد للصلة العلمية من دعامة روحية ، تقرب التلميذ من استاذه ، فيستودعه سره ، ويشكو اليه بعض آلامه ، ويفيد منه فى الدرس وخارجه ، ولا أزال اذكر كلمة لعاطف بركات ،

قالها يوما لجمع من ابناء مدرسة القضاء الشرعى ، معلنا انه كان يأمل ان يكون منهم بمثابة شيخ الطريقة من مريديه ، وهكذا كان عاطف بين عدد ممن اقتربوا منه برغم ماكان يبدو عليه عن شدة احيانا .

وفى بدء حياتنا الجامعية المعاصرة ، حظينا باساتذة من هذا الطراز ، امثال طه حسين ، وعلى مشرفة ومصطفى عبد الرازق ، منهم من كان يقسو احيانا ، ولكن صدورهم جميعا كانت فسيحة للاخذ والرد ، والسؤال والاستفسار ، وبيوتهم كانت مفتوحة لتلاميذهم الذين كانوا يترددون عليهم دون انقطاع ، وكانوا يؤمنون بان رسالتهم لاتقف عند اعطاء الدرس ، او شرح النص ، او القاء المحاضرة ، بل كان همهم الاكبر ان يكونوا ورثة وخلفاء ، ورحم الله مصطفى عبد الرازق الذى كان نموذجا يحتذى به فى هذا المجال ، لقد كان حقا شيخ مدرسة ، وكبير اسرة متشعبة ، احبه تلاميذه ، وسعدوا دائما بلقائه ، وافادوا من نصحه وتوجيهه ، وكم وكل اليهم اعمالا كان يحب ان يتولاها ، فاعطاهم نصوصا مخطوطة لكى يقوموا بتحقيقها ونشرها ، وفتح امامهم ابواب دراسات اضطلعوا بها ، ولقد خلف فعلا مدرسةِ غزيرة العطاء متنوعة الانتاج .

والسلك الجامعى نفسه يدعو الى الارتباط والاتصال ، فيبدأ الجامعى حياته طالبا ، واذا ما شاء ان يقف نفسه على الدرس والبحث ، كان لابد له ان يمر بمراحل مختلفة ، هى اعداد للماجستير تحت اشراف استاذ يطمئن اليه فيوجهه فى عمله بعناية ، دون ان يقوم مقامه فى البحث والتأليف ، واذا ما حصل على درجة الماجستير بدأ يعد دراسة للدكتوراه تحت

اشراف استاذه السابق ، او يضطر الى الالتجاء الى استاذ آخر ، ومتوسط كل واحدة من هذه الدراسات لايقل عن اربع سنوات ، فقد تمتد الى ثمان او اكثر ، وترجع الرغبة فى قصر مدتها عادة الى انها ذات صلة بالدرجات المالية ، وليتنا نفصل بين هذين الجانبين ، لكى نوفر للبحث الزمن الملائم والكافى ، وكثيرا ما حال سن المعاش دون استمرار الاستاذ فى اداء واجبه ومتابعة عطائه ، وقد فكرنا من قبل فى رفع هذه السن دون جدوى ، واكتفينا اخيرا بما استحدثناه من نظام « الاستاذ غير المتفرغ » وليتنا افدنا من هذا الافادة المرجوة ، لان العمل فى الخارج حرمنا من كثيرين من شيوخنا الذين كنا نعول عليهم فى استكمال صرح البنيان الجامعى .

ونتساءل الآن : هل اعددنا فى الثلاثين سنة الاخيرة الاجيال الجامعية التى ننشدها ؟ وهل هرم الكادر الجامعى مستكمل كل عناصره فى كلياتنا ومعاهدنا ؟ اظننا لانتردد فى ان نجيب بالسلب ، فهناك اقسام ، فى كلياتنا النظرية على الأقل تفتقد الاستاذ ، وان وجدته ، خلا الصف من بعده ولم يبق الى جانبه الا بعض معيدين او مدرسين مساعدين ، وهل نستطيع حقا ان نتحدث عن تعليم جامعى يعتمد اساسا على المعيدين ؟ ومن المقارنات مايؤلم ويحزن ، فهناك اقسام وكليات فى الجامعات العربية عامرة بصفوة من الاساتذة المصريين ، الذين كنا نود ان يستمر عطاؤهم فى بلدهم ، وان يكملوا رسالتهم باعداد من يصلحوا ان يكونوا خلفا لهم . ولاسبيل الى تعليم جامعى صحيح الا ان استكمل كل وسائله ومقوماته .

الفصل السابع :

جامعيون نعمت بصحبتهم

وهم كثيرون ، واحرص على ان اقف قليلا عند اربعة منهم .

وأولهم : لطفى السيد الذى عد بحق استاذ الجيل ، وقد استحق هذه الاستاذية منذ اوائل هذا القرن بآرائه وأفعاله .. بدعواته ومشروعاته ، فوجه الرأى العام نحو التعليم الحديث فى صحيفة « الجريدة » وكان على صلة وثيقة بالجامعة المصرية القديمة ، ويوم ان قامت الحرب العالمية الاولى حرص المستعمر على ان يضعه تحت الرقابة المباشرة ، فوكل اليه الاشراف على « دار الكتب » وهنا ايضا بدا لطفى السيد استاذا ومعلما ، اتجه نحو المعلم الإول او « مولاه ارسطو » كما كان يسميه ، وترجم له بعض كتبه عن اللغة الفرنسية ، فوجه النظر الى علاقات ثقافية اغفلناها ، ولم يغفلها العرب والمسلمون من قبل ، وكان يرى بحق ان الثقافة عالمية ، وعلى كل حضارة ان تفيد من تجارب الآخرين ، وان تضيف اليها ماتضيف ، ولاشك فى ان تفاؤله الشديد قد شجعه على مواجهة امور ربما كان من الصعب التعرض لها .. ولاغرابة فهو صاحب فكرة « الاجيال الثلاثة » اذ كان يرى ان امة ناهضة لو اتجهت نحو النهوض فى صدق لكفتها ثلاثة اجيال

متلاحقة لتحقيق كل ما تنشده ، ولطفى السيد صاحب « الجريدة » وتلميذ ارسطو والمشرف على الجامعة المصرية القديمة كان لابد له ان يضطلع برسالته فى الجامعة المصرية الحديثة ، فتولى امر جامعة « فؤاد الاول » وحرص على ان يقيم دعائمها على اسس ثلاثة رئيسية .

اولها : حرية البحث الكاملة المعتمدة على العقل والمنطق ، وثانيها : استقلال تام للجامعة حماية لهذه الحرية ، وتمكينا للباحثين من متابعة السير الى النهاية . وثالثها : التعاون الثقافى بين الجامعة المصرية الشابة والجامعات العالمية الكبرى ، فافسح السبيل لكثير من كبار الاساتذة الغربيين لكى يسهموا فى ميدان البحث والدرس فى الكليات الجامعية الاولى التى قامت عليها جامعة فؤاد ، وهى : كلية الآداب ، وكلية الحقوق ، وكلية الطب ، وكلية العلوم ولاقى فى سبيل استقلال الجامعة ما لاقى ، وقاوم الاعتداءات التى لم يتردد ازاءها فى ان يستقيل من وظيفته كمدير للجامعة . وعاش كبار الجامعيين تحت كنفه داخل الجامعة وخارجها .

وسبق لى ان اشرت الى اول لقاء بينى وبينه عام خمسة وثلاثين ، يوم ان عدت من بعثتى ، ووكل الى التدريس فى كلية الآداب ، ومنذ هذا اللقاء توثقت علاقاتنا عاما بعد عام ، وشاء القدر ان اصحبه فى رحلة بحرية عام ستة وثلاثين على ظهر الباخرة « الكوثر » من الاسكندرية الى « مارسيليا » وكانت رحلة ما امتعها ، ومن اغلى ذكرياتى التى مررت بها ، فقد جمعت هذه الباخرة بينى وبين لطفى السيد وعلى ماهر وطلعت حرب ، وكنا نتناول غداءنا وعشاءنا سويا ، ونتذاكر فى شئون وطننا ، وكم افدت من ملاحظات هؤلاء الشيوخ وتجربتهم ،

وقدر للباخرة ان تتوقف في الطريق للاصلاح فافسحت لي مجال الحديث والاخذ والرد عن هؤلاء الشيوخ الاقطاب ، ويوم ان وصلنا الى « مرسيليا » كنت اتوقع ان اسعد بصحبة لطفي السيد في رحلته الى باريس ، ولكنه قرر ان تنتهى هذه الرحلة عند « مرسيليا » وبقى بضعة ايام فى انتظار عودة السفينة التى حضر عليها ، ورأيت من اللائق ان ابقى معه طوال هذه المدة فزرت معه مازرنا من كنائس واماكن اثرية فى عاصمة فرنسا الجنوبية ، واكدت هذه الرحلة العابرة علاقتنا ، وكنا نلتقى فى القاهرة فى مبنى الجامعة او فى نادى محمد علي الذى كان يعتبر زعيمه الاول ، كما نلتقى فى الاسكندرية في فندق « سيسل » الذى كان يقضى فيه شهرين فى كل صيف وكم كانت جلساته فى هذا الفندق عامرة بالشباب والشيوخ

وللطفى السيد اياد كثيرة على جامعة القاهرة واخص بالذكر منها فتحه الباب للفتاة المصرية التى اصبحت اليوم تدرس فى الكليات العملية كما تدرس فى الكليات النظرية ، واصبح لدينا طبيبات ومهندسات الى جانب الاطباء والمهندسين وكنت اتردد بعض الشيء فى أن تلتحق ابنتي الكبرى بكلية الطب التى اتجهت اليها ، ورغبت فيها ، لاسدا للباب عليها ولكن محاولة لتخفيف اعبائها ، لانى اعرف مسئوليات الطبيب ودقة رسالته ، وكان لطفى السيد بين آخرين من مؤيديها في اتجهت اليه ، ولى معه رحمه الله مواقف مختلفة فى شئون العامة والسياسية . وكم عولت على رأيه واعتددت بمشورته واكتفى بان اشير الى موقف واحد رأى ان يأخذ رأيي فيه ؟ عودته ان استشيره فى كل مايقع لى ، وهذا الموقف هو ا عرضت عليه رياسة الجمهورية بعد استقالة محمد نجيب

وايمانا منه بأنى كنت حينذاك قريبا كل القرب ممن بيدهم السلطة شاء إن يستأنس برأيى ، ولم اتردد فى ان اصارحه بان من الخير أن يترك لرجال الثورة ميادينهم مفتوحة لكى يملئوها كما يشاءون .

وقد اخذ برأيى واعتذر دون تردد ، ولا اتحدث عن لطفى السيد المجمعى فتلك ناحية جديرة بشرح وتفصيل .

وثانيهم : مصطفى عبد الرازق الذى لقيته لاول مرة عام اثنين وثلاثين وتسعمائة والف بباريس ، فقد شاء ان يدعو ابناءه من مبعوثى كلية الآداب الى غداء ، دفعه كرمه الى ان يضمنى اليه وتلك يد جديرة بامثال مصطفى عبد الرازق وبعد اتمام بعثتى قمت بالتدريس فى كلية الآداب وفى قسم الفلسفة الذى كان يرأسه مصطفى عبد الرازق وهنا قامت علاقة وثيقة بيننا لم تغيرها احداث الدهر فى شىء ، فقد كنت عضوا وفديا فى مجلس الشيوخ ، وكانت له صلاته الوثيقة بحزب الاحرار الدستوريين ، واشهد بانه لم يكن لذلك اى اثر على زمالتنا ومودتنا ، وتعاونا بصدق فى خدمة الدرس الفلسفى وبخاصة الفكر الاسلامى ، ويعد مصطفى عبد الرازق بحق الاستاذ الاول لهذه الفلسفة فى تاريخنا المعاصر .

كان رئيس مدرسة كما اشرت من قبل ، وكون جيلا من باحثين ودارسين عمرت بهم كلياتنا الجامعية ، وافادت منهم الجامعات العربية الناشئة فى الاقطار الاخرى حرص على ان يعود ابناؤه - ومنهم من لم يمر بالدرس الازهرى - على دراسة المتون والنصوص وفى ذلك مافيه من صقل ، ومحاولة استخلاص فى مدلولاتها الصحيحة ، واستطاع كثير من

تلاميذه ـ فى ضوء هذا ـ ان يكون له اسلوب عربى سليم بجانب تمكنه من لغة اجنبية ، وماكان احبه الى تلاميذه ، وكانوا يعدونه جميعا اباهم الروحى ، ولا اشك فى انه كان يعاونهم مادعت الى ذلك حاجة ، وكل اصدقائه يعرفون ان شئون الدنيا كانت هينة عليه ، واذكر إنه المت باحد زملائنا ملمة ، وفكرت هيئة التدريس بكلية الآداب فى ان تقف الى جانبه ، وبدأنا نتذاكر سويا فيما ينبغى ان نقدمه ، واتفقنا على نسبة مئوية من مرتبنا الشهرى ولم يدهشنى ان يهمس مصطفى عبد الرازق فى اذنى قائلا : هل تعرف كم مرتبى ؟ وكنت على يقين من انه لايعنى بهذه الامور ، وواضح انه كان يسأل عن مرتبه لكى يقول بنسبة محترمة .

اشتركنا فى الدرس ، وفى مناقشة الرسائل الجامعية ، وكنا دائما على أتفاق تام ، واريد به فى اخريات حياته ان يرشح لمشيخة الجامع الازهر ، وكان القانون ينص بان الترشيح مقصور على هيئة كبار العلماء ، ولم يكن مصطفى عبد الرازق واحدا منهم ، وقصد الى تعديل القانون لكى يفتح له الباب ، وكنت عضوا فى لجنة مجلس الشيوخ التى عرض عليها هذا التعديل ، وطوال حياتى البرلمانية كنت ارفض التعديلات القانونية المصنوعة التى تدفع اليها غاية خاصة ، فلم اقر التعديل المقترح ، برغم اقرار اغلبية اللجنة له ، واعترف بان هذا لم يؤثر بشىء فى صلتى بمصطفى عبد الرازق ، بل لقد كنت على موعد للغداء معه فى بيته فى هذا اليوم نفسه ، ولم يعرض الصديق الكريم لهذا الموضوع بحال ، ولعله قال لنفسه فيما بعد : ليت اللجنة لم تقر التعديل بعد ان عانى فى مشيخة الازهر ما عانى .

هذا هو « مصطفى عبد الرازق » الكريم والوفى .

وثالثهم : طه حسين الذى عشت معه فى معركة الشعر الجاهلى قبل سفرى الى اوربا دون ان اتصل به او القاه ، وكنت اشعر منذ ذلك التاريخ انه قصد بحديثه عن الشعر الجاهلى ان يوجه الانظار الى النقد والتمحيص ، وان يطبق في ميدان الادب الشك الذى طبقه ديكارت فى ميدان الفكر والنظر .

وجاء لقاؤنا لاول مرة فى « هولندا » حيث عقد مؤتمر للمستشرقين عام اثنين وثلاثين ، وحرصت على ان اشترك فيه . وعلى مائدة الغداء فى اول يوم من ايام هذا المؤتمر جلست الى جانب طه حسين ، وبدأ يحدثنى باللغة الفرنسية ، واحسست بانه قصد الى اختبار درجة معرفتى بهذه اللغة ، وقد عشت معها من قبل نحو ثلاث سنوات ، واحسست بانه اطمأن الى ما رغب فى معرفته ، وبعد اعوام ثلاثة التقينا فى كلية الآداب ، وكان عميدها الذى رسم لنفسه صورة من الدرس الجامعى ما احوجنا ان نستعيدها كاملة ، وان نأخذ انفسنا بها ، درس يقوم على الطالب والاستاذ معا ، وقد كان طه حسين يرى بان طلاب الدرس الجامعى ينبغى ان يثقفوا تثقيفا وافيا فى مرحلة التعليم العام ، وقد وجه النظر الى هذا كما اشرت من قبل فى « اصلاح التعليم الثانوى » وبقدر حبه لتلاميذه كان جادا كل الجد فى محاسبتهم على اعمالهم ، ولم يتردد قط فى مكافأة المحسن منهم ، وبهذا حقق الطرف الثانى من قضية التعليم الجامعى وهو طرف الاستاذ الذى يعطى ويناقش .. ويعترض ويحلل .. ويطلب الى طلابه وتلاميذه ان يناقشوه ويجادلوه . وكون بهذا جيلا من الجامعيين الذين كانت لهم اقدارهم فى تاريخ حياتنا الجامعية طوال نصف القرن الماضى ، كان استاذ الادب العربى الذى

اراد به ان يكون ادبا سهلا صافيا واضحا معبرا رسم لذلك النموذج الحى فيما كتب والف .. او فيما درس وحاضر ، وكانت محاضراته العامة حدثا علميا تشد اليه الرحال من مختلف المدن المصرية ، بل من بعض البلاد العربية .. ولم تزخر قاعة « ايورت » بالجامعة الامريكية بجمهورها يوما مثلما زخرت بعشاق طه حسين ، تخير من اعوانه فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب ، من اطمأنت نفسه اليه ، وجمع اسرة وقيادة كانت من احسن القيادات ، والى جانب هذا الجهد الجامعى الذى اقامه على دعائم من الماضى والحاضر حاول ان يربط الجامعة المصرية بالهيئات العلمية فى العالم شرقا وغربا ، فحرص على ان يشترك فى مؤتمرات المستشرقين ، وان يشترك بعض زملائه من كبار الاساتذة والباحثين ، وقد اراد بى يوما ان اشترك فى مؤتمر نظمه اليونسكو فى الهند عام واحد وخمسين لبحث القضية التالية « الثقافة بين الشرق والغرب » وقد افدت من هذه التجربة فائدة عظمى ربطتنى باوساط ثقافية مختلفة فى اوربا وفى شرق اسيا ، والى جانب عنايته بالحاضر ومشاكله لم يغفل عن الماضى فكان من العاملين على احياء التراث ادبا وعلما وفلسفة ، فقاد حركة احياء لادب المعرى بمناسبة ذكراه .. واشترك معى فى اخراج موسوعة ابن سينا الكبرى ، وهى كتاب الشفاء ليكون اسهاما من جانب مصر فى الذكرى الالفية للفيلسوف الكبير ولم يفته ان يقدم للجزء الاول من هذا الكتاب وعنوانه « المدخل » الذى طبع فى المطابع الاميرية ، وعرض فى مهرجان بغداد فى العام التالى بمناسبة هذه الذكرى .. ويوم ان كان وزيرا للمعارف وجه بعض البعوث للبحث عن تراثنا المنسى فى مدن الخليج ، واهتدينا فى اليمن الى مخطوط له

شأنه فى تاريخ الفكر المعتزلى وهو اجراء من كتاب « المغنى » للقاضى عبد الجبار امام المعتزلة المتأخرين .. واراد بى مرة اخرى ان اقود حركة هذا الاحياء .. ويوم ان قصرت وزارة المعارف عن القيام بواجبها فى هذا المضمار استطاع ان يستعين بزميل كريم آخر هو المرحوم « احمد حسن الباقورى » الذى كان وزيرا للاوقاف حينذاك .. ولم يتردد فى ان يقف من خبراتها مبلغا لهذا الاحياء .. ونأسف انا لم نضع يدنا على كتاب « المغنى » كاملا ، ولم نحصل فيه على اصول متعددة ومع ذلك حرصنا على اخراجه لانه يلقى اضواء كثيرة على الفكر المعتزلى ، ولانزال نأمل فى ان نجد بقايا لهذا التراث المعتزلى العظيم ، ومن حسن الحظ ان اخواننا فى اليمن السعيد يحاولون اليوم بالتعاون مع مصر اخراج الكتاب القيم فى صورته الكاملة .

هذا هو « طه حسين » الجامعى ، اما طه حسين المجمعى فذلك موضوع آخر جدير بأن يعالج فى استقلال .

ورابعهم : احمد امين ، وصلتى به اسبق واقدم ، تتلمذت له فى اخريات العقد الثانى من هذا القرن بمدرسة القضاء الشرعى ، وما كان اجداها من تلمذة ، افدت منها ما افدت علما وسلوكا وكان للسلوك فى رأى احمد امين شأن خاص لايقل عن شأن العلم والمعرفة ، ولا غرابة فقد كان استاذا للاخلاق . تتلمذ لعاطف بركات وكلنا يعرف ما كان عليه عاطف بركات من حزم وقيادة جادة حكيمة وبدا لنا جميعا ان احمد امين من اقرب تلاميذه اليه ، وقد حببه فى الثقافة الغربية بقدر تعمقه فى الثقافة الاسلامية ، ودفعه لان يتعلم الانجليزية فى سن متقدمة ، وكان احمد امين باختصار خلال السنوات

التى قضيتها فى مدرسة القضاء المثل الذى حاولت ما استطعت ان احتذيه ، ولازلت اذكر مقالا له نشر فى احدى المجلات بعنوان « سياحتان فى مكتبتين » ووجه النظر فيه بخاصة الى حرص الغربيين على الدقة وحسن الترتيب وسلامة العرض ، فى حين ان المكتبة العربية اشبه ماتكون بمخزن لكتب منها الى اى شيء آخر ، وماكان يتردد احمد امين في ان يوجه انظارنا نحو المأكل والملبس ، وآداب اللياقة فى التعامل مع الناس ، ولم اره ثانية الا عام اثنين وثلاثين وتسعمائة والف في باريس هذه المرة .. واسعدنى انه قبل دعوتي الى طعام غداء فى المنزل الذى كنت اقيم فيه . وكم اسعده ما احس به في هذا المنزل من هدوء وسكينة ، ملاحظا ان فى هذا مايعيننى على درسي وبحثي . ويوم ان قمت بالتدريس فى كلية الاداب عام خمس وثلاثين تجددت صلتنا مرة اخرى ، واصبحت زميلا لاحمد امين وان لم انس استاذيته بحال ، وراقنى مشروعه فى سبيل خدمة الحياة الاسلامية الفكرية والادبية والسياسية بالتعاون مع زميلين كريمين هما طه حسين وعبد الحميد العبادى .

وكان اساس هذا المشروع ان يقوم احمد امين بالتأريخ للفكر الاسلامي ، ويتولى طه حسين التأريخ للادب العربى ويضطلع عبد الحميد العبادى بالجانب السياسى ، وليت هؤلاء الثلاثة تابعوا الشوط خطوة بخطوة ولكن « تقدرون وتضحك الاقدار » ، فحالت اعباء عمادة الكلية دون طه ومتابعة السير ، وعجلت المنية بعبد الحميد العبادى فلم تتح له فرصة العطاء المتصل ، اما احمد امين فقد اخرج للطلاب والباحثين سلسلة من كتب فى فجر الاسلام وضحاه وظهره لاتزال مرجعا يعول

عليه ، وكم قدرت الجهد الذى بذله فى هذا المضمار وانا وثيق الصلة بكثير مما وقف عليه من مصادر ، وما اعتمد عليه من مؤلفات ، قضت عليه بأن يلزم داره فى ساعات طويلة ، وان ينكب على القراءة والكتابة بانتظام ، وكان لذلك اثره على نظره وصحته .

وابت الحياة النيابية الا ان تبعدنى عن كلية الآداب ، ولكنها لم تحرمنى من زمالة اخرى لاحمد امين فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وهذا عمل جليل آخر كان احمد امين رائده ومغذيه بانتظام ، وما كان اشبه هذه اللجنة بوزارة اهلية للثقافة جمعت بين خيار المثقفين الذين حرصوا على ان يعطوا تأليفا وترجمة ، وان يغذوا الفكر المعاصر بغذاء متصل فى كتبهم ومؤلفاتهم وضموا اليها صحفا اسبوعية او نصف شهرية كمجلة « الرسالة » ومجلة « الثقافة » وسيكون لنا حديث اطول واوسع عن هذه اللجنة .

ومن حسن حظى انى نعمت عام ستة واربعين بزمالة اخرى لاحمد امين فى « مجمع اللغة العربية » وهو الذى استقبلنى فيه مع تسعة آخرين من الاعضاء الجدد سماهم جميعا « العشرة الطيبة » وترجع هذه التسمية اليه فلم يقل بها احد من قبل فى استقبال مجمعيين آخرين ، والحديث عن « احمد امين » المجمعى افسح واوسع من ان تفى به سطور قليلة فى هذه المناسبة .

دروس

١ ـ فكرت « كلية الآداب » بجامعة فؤاد الاول فى العشرينيات من هذا القرن فى ان تنشىء مدرسة ثانوية خاصة لاعداد الطالب الجامعى ، وماذاك الا لانها شعرت بان خريجي المدارس الثانوية لم يعدوا الاعداد اللائق لبحث ودراسة جامعية ، ومن حسن الحظ انه لم يؤخذ بهذه الفكرة ، وقد كنت ولا أزال ارفض المدارس الطائفية ، غير ان هذه الفكرة نفسها هى التى دفعت قطعا الى اصلاح التعليم الثانوى الذى تولاه المرحوم « نجيب الهلالى » وخطا فيه خطوة لا بأس بها ، فزاد عاما دراسيا فى المرحلة الثانوية ، وادخل تغييرا كاملا على مناهجها وموادها ، وكان لهذا اثره فى الطالب الجامعى فى الاربعينيات والخمسينيات ثم ضاع هذا الاثر واخذ اعداد الطالب الجامعى يضعف ويتضاءل عاما بعد عام ، وما احوجنا ان نرد اليه اعتباره وان نعده لدراسة جامعية يستطيع ان يضطلع بها .

وكنا بالامس نختار لكل معهد عال من بين المتقدمين من نرى فيهم كفاية واستعدادا لما هم مقبلون عليه ، وجاءت آلية مكتبة التنسيق فقضت على كل هذا الاختيار ، وظروفنا كلها تدعونا الى ان نواجه هذه المشكلة فى حسم وحزم والا اتسع الخرق على الراقع ، وخرجنا حملة شهادات عالية من الظلم ان نسميهم مثقفين ثقافة جامعية حقة .

٢ ـ وقفنا زمنا موقف الاستنكار مما كان يسمى « الجامعة الامريكية » ولاحظ كثيرون ان لها اهدافا تبشيرية او استعمارية ، وقد كانت فى بدايتها اقرب الى المرحلة الثانوية .

ولكنها نمت على مر الزمن ، واصبحت فعلا صورة من صور التعليم الجامعى الذى وقف نفسه على اقسام ودراسات خاصة كالادب واللغة او الاقتصاد والسياسة ، وادت ذلك كله اداء استلفت النظر واقبل عليها الشباب والشابات من المصريين بحيث اصبحوا يكونون اغلبية طلابها وقد كانت من قبل معهدا للوافدين او النزلاء ، وعزز من مركزها انها تعد خريجيها اعدادا صحيحا فى اللغة الانجليزية ولهذا لم يكن غريبا ان اعدها حلقة من حلقات تعليمنا الجامعى وبدأنا فعلا نعقد اتفاقات وصلات بينها وبين معاهدنا وكلياتنا الجامعية .. واصبحنا فى عصر لايمكن لمثقف ثقافة كاملة ان يصل الى مايرغب فى تعلمه الا اذا اجاد لغة اجنبية على الأقل ، واذا كانت الجامعة الامريكية تخرج المصرى الذى يجيد العربية والانجليزية معا فانى ادعو ان تكون هذه الجامعة اسوة حسنة لكلياتنا الانسانية والعلمية .

٣ ـ مضى على تعليمنا الجامعى نحو سبعين عاما ـ اذا ماتركنا جانبا الجامعة المصرية القديمة التى لم تعمر طويلا ـ وسرنا فى بداية الشوط سيرا متئدا فوقفنا زمنا عند « جامعة فؤاد الاول » ثم افرخت بعد عشرين عاما تقريبا « جامعة الاسكندرية » وتلتها « جامعة اسيوط » . وحين ضاقت جامعة القاهرة بمن فيها انشئت الى جانبها « جامعة عين شمس » وتم هذا التطور على مراحل ، وليتنا اخذنا انفسنا بذلك ولكن

مع الاسف قفزنا قفزة كبيرة فى الستينيات ، وصعد عدد الجامعات المصرية الى نحو ثلاث عشرة جامعة ، وادع جانبا الجامعة الازهرية وفروعها المختلفة ، وكأننا لانفكر فى جد بما يتطلبه التعليم الجامعي من استاذ وكتاب وطالب وجو وحياة ، ويظهر ان التنافس الاقليمى كان له دخل فى هذه الطفرة الزائدة عن الحاجة ، وفى الأمم الراقية جامعات متعددة فعلا ، ولكنها لم تنم هذا النمو السريع الذى نلحظه بيننا ، والذى لايبدو أننا قانعون به ونعد العدة لكي تكون فى كل عاصمة اقليم جامعة ، وما احوج هذه الاقاليم الى مدارس فنية من صناعية وزراعية وتجارية تغنيها عن هذا التعليم الجامعى . واصبح ناقوس الخطر يهددنا ببطالة نامية على مر السنين بين حملة الشهادات العالية ، وقد هددنا فعلا وبدأنا نشكو من بطالة الجامعيين ومن قضوا زهرة حياتهم فى الدرس والبحث دون ان يحظوا بثمرة لذلك ، ويسعدنى انا بدأنا نحس بالحاجة الماسة الى التعليم الفنى من صناعى وزراعى فى مستوياته المختلفة وفى التكنولوجيا الحديثة ارجو ان نعد له اعدادا لائقا قائما على احدث الاجهزة واقدر الفنيين والصناعيين .

الباب الثالث :

حياتنا النيابية

الفصل الأول :

حياتنا النيابية

ترجع الى آخريات القرن الماضى الذى عرف ماكان يسمى « مجلس شورى النواب القوانين » وقد كان محدود العدد ، محدود السلطة والاختصاص ، ثم توقف نشاطه زمنا ، وفى العقد الثانى من القرن العشرين اتجهنا نحو مايسمى « الجمعية التشريعية » ، وكانت اكبر عددا ولكنها لم تكن اوسع اختصاصا ، وصاحبها تمثيل اقليمى اعتقد انه جدير بان ينوه به وهو ماكان يسمى « بمجالس المديريات » ، فكان لكل مديرية ممثلون اقليميون يعنون خاصة بشئون التعليم والصحة وإنشاء الطرق ، وقد اسهموا فى ذلك اسهاما ملحوظا .

وقضت الحرب العالمية الاولى بان توقف الجمعية التشريعية نشاطها فى حين استمرت مجالس المديريات فى اداء رسالتها ، ومن آثارها الباقية مدارس اسست للنهوض بالتعليم الاولى والابتدائى بل الثانوى ، ولم تغفل الفتاة فأسست لها مدارسها الخاصة ووضعت دعائم معاهد للتعليم فسيحة ولائقة كثيرا ماعز علينا اليوم ان نحققها .

والى جانب رسالتها إلتعليمية كانت لها رسالة اخرى

صحية عنيت فيها ايضا بانشاء الملائم من المستشفيات المستوصفات ولم يفتها امر الطرق ، وان كان اثرها فى هذا لميدان اقل وضوحا ، ولو قدر لها ان تتابع السير لغذت لاقاليم بغذاء ماكان احوجها اليه لاسيما والعواصم الكبرى طغت عليها باضطراد .. وما ان جاء الدستور ، دستورنا الاول حتى نادى بانشاء مجلسين احدهما مجلس النواب والاخر مجلس الشيوخ ولم يدع هذان المجلسان محلا للمجالس الاقليمية .

وقد اتصلت بحياتنا النيابية هذه منذ عهد مبكر ، فتتبعت انتخابات مجالس المديريات والجمعية التشريعية وكان لى نشاط فى انتخابات مجلس الشيوخ ، ذلك لان والدى تقدم لعضويته ومن مآسى مجالسنا النيابية فى العقدين الثالث والرابع من هذا القرن العدوان عليها وحل البرلمان من حين لآخر ، وادى ذلك الى جهود ضائعة وتوقف نشاط ماكان احوجنا الى متابعته .. ولم يقف الامر على العدوان على المجالس النيابية بل امتد الى الدستور نفسه واحل دستور محل آخر ، وعشنا مع ماكان يسمى دستور سنة ٣٠ زمنا الى ان عدنا مرة اخرى عام خمسة وثلاثين الى الدستور الاول ، بلبلة كنا نأمل الا نبتلى بها لاسيما وقد جاءت الحياة النيابية وليدة ثورة ١٩١٩ التى احدثت يقظة شعبية كاملة وحققت صحوة كان ينبغى ان نغذيها باضطراد ، لكن دار المندوب السامى من ناحية وقصر عابدين من ناحية اخرى ماكانا يرحبان بالتمثيل الشعبى وامتداد نفوذه .

وبلغ ايمان سعد زغلول بالحياة النيابية واثرها فى تربية الشعوب والنهوض بها انه لم يقنع بالنضال السياسى الذى

بدأ به ثورة سنة ١٩ بل شاء ان يكون معلما برلمانيا يرأس مجلس النواب ويدير مناقشاته ويوجهها الوجهه السليمة ، لكن الاجل وافاه عام سبعة وعشرين فحرم الحياة النيابية من قدوة وتوجيه لم توفق لهما دائما ، واذا كانت دار المندوب السامى والسراى قد أساءتا الى حياتنا النيابية فإن الحزبية التى سنعرض لها فى حديث خاص يقع عليها شىء من وزر توقف هذه الحياة واهتزازها لخلافات شخصية او سعي وراء شهوة الحكم والسلطان ، وقد عرضت مع صديقى الاستاذ ميريت غالى لهذا الموضوع وما صادف حياتنا النيابية من قصور حتى عام تسعة واربعين فى كتاب سميناه « الاداة الحكومية » وقد سبقنا به الاعتراف بنواحى النقص فى تمثيلنا البرلمانى ترشيحا وانتخابا واداء للرسالة البرلمانية قبل ان تجيء ثورة سنة ٥٢ ، واعترف بان هذه الثورة كانت شبه اعتراض على التمثيل النيابى والاداء الحزبى ، وفيها شىء من اعلان افلاس المدنيين فى اداء رسالتهم البرلمانية ، واقرر هنا فى صدق واخلاص انى فى حديث طويل لى مع المرحوم « على ماهر » قبل ان اشترك فى وزارته التى تلت الثورة لاحظت هذا الافلاس المدنى ورغبت الى رئيس الحكومة ان يحاول المدنيون رد اعتبارهم ، ولاسبيل الى ذلك الا بحسن اختيار رجال صحائفهم بيضاء ، وعزائمهم قوية ، وكنت اعتقد انا لو وفقنا لهذا لاعفينا رجال الثورة من مسئولية الحكم واعبائه . وبديهى انه لم يكن مجديا بجال ان نعول على سياسيين قدماء دار حولهم مادار من نقد وتعليق .. امل كنت اعلل النفس به وان شعرت بصعوبة تحقيقه ، ولعل هذا الأمل هو الذى قضى على وزارة « على ماهر » الثانية أن يتأخر تشكيلها نحو اسبوعين او يزيد ، ويظهر ان رجال الثورة ـ برغم انهم رشحوا

اشخاصا للاشتراك فى هذه الوزارة واظن انى كنت واحدا منهم ـ فانهم لم يكونوا متحمسين لها كل التحمس ، ولعلهم كانوا يشعرون فى ضمائرهم بانهم اولى بان يديروا دفة الامور ، ولا ادل على هذا من ان وزارة « على ماهر » الثانية لم تعمر الا يوما او يومين ، وانتقل الحكم من المدنيين الى العسكريين ، واضطلع به المرحوم « محمد نجيب » تحت اشراف مجلس الوصاية واريد بى وببعض زملائى القريبين منى ان نشترك فى وزارة « محمد نجيب » الاولى ، وكنا ثلاثة رغبوا ان نتحمل العبء معهم وهم « محموه محمد » و« ميريت غالى » و« ابراهيم مدكور » ولكن الثلاثة ادركوا فى يقين ان عمر المدنيين فى وزارة عسكرية لن يكون طويلا ، وان قادة الثورة من حقهم ان يرسموا اهدافهم ، وان يحققوها على ايديهم . وشرفت بجلسة طويلة مع المرحوم « محمد نجيب » عارضا علىّ الأشتراك فى وزارته ، وكان عذرى واضحا وصريحا .. وملخصه انى مستعد لان اقدم خبرتى ومشورتى دون ان اتولى مسئولية تنفيذية لا احس بان طريقى اليها معبد . كان من نتائج هذا انى رفضت الاشتراك فى الوزارة وقبلت الانضمام الى عضوية « مجلس الانتاج » وقبول رياسة « مجلس الخدمات » وماكنت يوما من مناهض ثورة ٥٢ ، بل كنت ارى من واجبى ان ادعمها واعتقد انى كنت ممن مهدوا لها بكتاب « الاداة الحكومية » الذى اشرت اليه من قبل ، ومواقفى البرلمانية المختلفة وعلى رأسها « استجواب الاسلحة الفاسدة » ولكن رجال الثورة كانوا اميل الى حكم الفرد ويريدون سلطة مطلقة ، ويرغبون فى التحرر من قيود المجالس النيابية وعلى ذلك حلوا مجلس النواب ومجلس الشيوخ ، وقضينا عشر سنوات لم نعرف فيها الا المجالس

الاستشارية « اما الهيئات البرلمانية » التى تسأل وتستجوب فلم يكن ثمة استعداد لها . وحتى المجالس الاستشارية لم تعمر طويلا فقد عشت مع « مجلس الانتاج » نحو عامين ومع « مجلس الخدمات » نحو عام ونصف وحلت محلها هيئات اخرى استشارية لم احس بان هناك جدوى كبيرة فى الاشتراك فيها ، وحتى « مجلس قيادة الثورة » نفسه ، وهو قائم على العسكريين وحدهم اريد التخلص منه .. ونحونا نحو « حكم الفرد » الذى كان يستريح الى هذا اللون من الحكم وكان صريحا مع نفسه ومع زملائه وقد اعلن انه يريد ان يسير الامور بنفسه ، وان كان لم يسلم من شد ومد بين اقرب الناس اليه وهو وزير الدفاع حينذاك .

ورؤى ان نعود مرة اخرى الى مايمكن ان يسمى « حياة نيابية » بانشاء « مجلس الامة » الذى يقوم على نظام « الحزب الواحد » ويعتبر شبه بطانة للسلطة الحاكمة ، وعرض علىّ مرة آخرى ان اسهم فى هذا المضمار لصلتى الطويلة بحياتنا النيابية التى عشت فيها خمسة عشر عاما . ولم يكن ثمة سبيل لان انخرط فى هذا السلك .

وسارت حياتنا النيابية على اساس نظام حكم الفرد . وهو دون نزاع لايحقق الديمقراطية المنشودة ، ولايسلك مسلك الرقابة البرلمانية السليمة . وانتقلنا من « مجلس النواب » الى « مجلس الشعب » واخيرا آمنا بان الحياة النيابية لا تلتئم مع قاعدة الحزب الواحد ، فأخذنا نفتح الابواب فى حيطة لتعدد الاحزاب لغرس نواة المعارضة .. والامل كبير فى ان حياتنا النيابية الحالية جديرة بأن تقوّم نفسها بنفسها ، وان تمكن للحرية والديمقراطية بحيث تضرب المثل لمن حولنا فى تكوين

حياة نيابية قوية وسليمة ، وتأخذ مكانها بين النظم النيابية الحقيقية فى البلاد الديمقراطية . واشهد ان ماخطونا فى هذا السبيل حتى الآن يبعث على الامل . وستستكمل الحياة النيابية نشاطها وقوتها يوم ان نحسن اختيار المرشحين ونفتح الباب للكفايات الجادة المخلصة . وحياة كل حزب فى قوة افراده وسلامة اختياره وحرصه على قيمه ومبادئه .

الفصل الثانى :

الحزبية

حجر الزاوية فى البنيان البرلمانى ، وعلى اساسه تتضح المعالم ، ويخلق جو للتأييد والمعارضة ، والحقيقة دائما بنت البحث ، وقيمة التأييد فى ان يصدر عن اناس اتضحت امامهم الاهداف السياسية وعدوها قواما لرسالتهم البرلمانية ، وليس التأييد مجرد مناصرة وتبعية ، بل هو جهاد ونضال باسم الحق والمصلحة العامة ، ولا قيمة لحياة برلمانية بدون معارضة تكشف مايخفى وتتدارك مايفوت وتحاول ان تقوم المعوج والمعارضة النزيهة خير عون للحكم السليم .

وقد عرفنا الحزبية قبل ان نستكمل استقلالنا فشق الحزب الوطنى على ايدى « مصطفى كامل » الطريق السياسى فى اوائل هذا القرن ، وحاول الخديوى ان يستعين به ويؤيده ولكنه كان احرص على مركزه من الدفاع عن حقوق الوطن ، وفتحت ثورة سنة ١٩ باب الحزبية الشعبية الحقيقية ، وترتب عليها « حزب الوفد » الذى كان يرى ان رسالته الاولى هى التخلص من الحماية وتحقيق الاستقلال المنشود ، وكسب اسمه عن طريق المنهج الذى سلكه حين اوفد بعض رجاله الى اوربا وامريكا للمطالبة بهذا الاستقلال امام اكبر هيئة دولية فى العشرينيات وهى « عصبة الامم » وقد حققت مساعى

الوفد وجهوده المتواصلة قدرا من الاستقلال وماكان يمكن ان يحقق كل ماينشده دون قوة او سلاح .

وانتهينا الى معاهدة سنة ٣٦ ، وتعد نهاية مرحلة طويلة فى سبيل الحصول على الاستقلال ولم تخل هذه المعاهدة من عيوب ونواحى نقص كان لابد من تداركها ، ولكننا فى ضوء معاهدة سنة ٣٦ وصلنا الى مرحلة يجب ان نفسح المجال فيها للسياسة فنرسم برامجنا الحزبية التى تقوم على اتجاهات ودعائم شعبية .

وقدر لى ان اضطلع بشىء من عبء الحياة البرلمانية عام سبعة وثلاثين ، واريد لى ان اخلف والدى فى مجلس الشيوخ وقد كان وفديا منذ بدء ثورة سنة ١٩ ، وسرت على نهجه مؤمنا بأن للوفد قواما وتكوينا يمكنان من الوقوف فى وجه السراى ودار المندوب السامى ، وقد اضطلع بذلك زمنا ، وارتفعت رايته باسم المعارضة التى كانت تهدف الى صالح الوطن وحمايته ، وبعد بضع سنوات من الحياة البرلمانية احسست بان الوفد ـ وانا احد افراد حزبه ـ قد آن له الاوان لان يرسم برنامجا شاملا يواجه به جوانب الاصلاح المختلفة ، وكثيرا مارفعت الصوت بهذا فى الهيئة البرلمانية الوفدية ، وربما مثلت لونا من الوان المعارضة الداخلية فى قلب الحزب الواحد . وكم وددت لو استجاب القائمون على امر الوفد حينذاك الى وضع هذا البرنامج وتحديد خطواته ومعالمه ،.وشاركنى فى هذا الاتجاه بعض رجال الهيئة الوفدية وعلى رأسهم المرحوم « يوسف الجندى » واتفق معى وفدى كبير آخر انتقل الى رحمة الله هو المرحوم « محمد محمد الوكيل » ولما يئست من نجاح دعوتى بدأت تضعف نزعتى الحزبية ، وبدوت فى

مواقفى البرلمانية اقرب الى المستقلين منى الى الحزبيين ، ويوم ان انتهت مدة عضويتى تقدمت للانتخابات مرة اخرى مستقلا وامام منافس من حزب الوفد ، وشاء الله ان ابقى بين المستقلين فى مجلس الشيوخ الى ان حل عام ١٩٥٢ .

ولم تقف حزبيتنا في العقود الثلاثة السابقة على ثورة سنة ٥٢ عند حزب الوفد بل احتفظ « الحزب الوطنى » بحياته ونظرياته وان تضاءل عدد من انتموا اليه . وعاصر حزب « الاحرار الدستوريين » تكوين الوفد فى العشرينيات بخلاف فى الطريقة ومعالجة الامور وبقى حزب الاحرار الدستوريين « الوجهة الثانية » فى حياتنا النيابية والسياسية لكنه لم يصل يوما الى قوة الوفد ووفرة انصاره ومؤيديه .

ولم يسلم الوفد نفسه من خلافات فى قياداته والمشرفين عليه ، وترتب على ذلك ظهور احزاب سياسية فى الاربعينيات تفاوتت قوة وضعفا لكنها كانت على كل حال شعبا من الوفد انفصلت عنه « كحزب الكتلة » وعلى رأسه « مكرم عبيد » والحزب السعدى وعلى رأسه « احمد ماهر » .

ومنذ اتصالى بالوفد وانا اقدر « احمد ماهر » وزميله « النقراشى » واؤيد كثيرا مما اتجها اليه ، ولكنى لم اكن اسلم باضعاف الوفد وخروج بعض العناصر القوية منه ، لذلك اعتذرت آسفا عن دعوة كريمة وجهها إلىَّ الحزب السعدى على لسان احد اقطابه « الدكتور السنهورى » لكى اشترك فى وزارته الاولى ، وكأنما رأيت فى مسلك المستقلين درعا اتقى به التبعية الحزبية على غير هدى ، واستطيع ان اؤيد ما اومن به وارفض ما اراه يتعارض مع المصلحة العامة حتى ولو كانت السراى وراءه ، وقضيت خمس عشرة سنة فى مجلس

الشيوخ ، لم تخل من نقد ومعارضة ومحاولة لتقويم مايمكن تقويمه .

وفى الستينيات رأى رجال الثورة انه لامانع من العودة الى فكرة الحزبية ، ولكنها كانت عودة مترددة وغير صريحة ، فأنشىء « حزب الامة » وكأنما كان اسما على غير مسمى او على الاقل ، كانت الكلمة الاولى والاخيرة فيه للحاكم وليس للمحكومين الا التأييد والتنويه بالحسنات والمنجزات ، وبدأ الحكم الفردى يتضاءل شيئا فشيئا فى السبعينيات ، وانتهى به الامر الى ان يسلم بان الحياة النيابية تستلزم تعدد الاحزاب .. وانا من انصار هذا التعدد لكن لا احب التوسع فيه فالحياة النيابية الرشيدة هى تلك التى تقوم على حزبين قويين لكل منهما اتجاهاته الواضحة ومبادئه المقررة ، والنظام النيابى الامريكى او الانجليزى او الالمانى يصور هذا احسن تصوير . ويظهر ان غياب الحزبية نحو عشرين عاما دفعنا ـ يوم ان فتح الباب لها ـ الى تكوين هيئات متعددة وفى حركة الانتخابات الاخيرة لمجلس الشعب مايؤذن بان الرأى العام اميل الى ان يقف امام صورتين متقابلتين لكل واحدة منهما لونها ومعالمها .. اما الصور القاتمة او غير الواضحة المعالم فمن العسير عليها ان تعمر طويلا .. وتحت قبة البرلمان فى « مجلس الشعب » الان عدة احزاب اوضحها « الحزب الوطنى الديمقراطى » و« حزب الوفد » الذى جدد حياته مرة اخرى .

واساس الحزبية الحقيقية رسم المنهج والالتزام به ، وهى تتطلب دون نزاع ضربا من التربية البرلمانية والسياسية ، وكلى رجاء ان تضطلع احزابنا بهذه المهمة كى تعد الدعائم الصحيحة لحزبية حقة وحياة نيابية مفيدة .

الفصل الثالث :

جماعة النهضة القومية

جماعة عشت معها عدة سنين فى الاربعينيات ، واسهمت فى تأسيسها مع زميلين كريمين هما الاستاذ ميريت غالى والمرحوم محمد زكى عبد القادر ، ودفعنا اليها ذلك القلق الذى كنا نحس به جميعا ابان الحرب العالمية الثانية ، وكان لابد لنا ان نحاول الخروج من هذا القلق وان نعد للمستقبل ، ووصل بنا الاعداد لهذا المستقبل انا تساءلنا : هل من الخير ان نسهم فى تلك الحرب او ان نقف بمعزل عنها ؟ وكان لدى المرحوم احمد ماهر الشجاعة التى دفعته الى ان يدعو الى الاشتراك فيها لكى يحفظ لمصر حقها فى عهد السلام وكنت شخصيا من هذا الرأى ولكن السراى كانت تعارضه تمام المعارضة .

هذا الى ان الرسالة الاصلاحية ومتطلبات النهوض والتقدم كانت تستلزم درسا وبحثا لم تشأ الاحزاب الكبرى ان تسهم فيه الاسهام الكافى ، ولا ان تعد له البرامج التنفيذية المدروسة برغم ماوجه اليها من ملاحظات فى هذا الميدان .

وخيل الينا انه فى وسع بعض المفكرين ان يضطلعوا بهذا العبء . وان يكونوا هيئة لهذا الاعداد ، وكانوا مخلصين كل

الاخلاص فيما ذهبوا اليه دون هدف او غاية اللهم الا رسم سبل الاصلاح ، واعداد وسائل النهضة الحقة ، واحياء الشعور الوطني وتكوين رأى عام مستنير .

وقد اسست الجماعة فعلا من ثمانية اعضاء انتقل اغلبهم الى رحمة الله واذكر من بينهم « محمد سلطان » الذى عقد اول لقاء لهذه الجماعة في مكتبه وقد تحمس لها تحمسا ملحوظا . واذكر ايضا « محمد على رشدى » رجل بنك مصر الذى لم تمنعه اعماله ومسئولياته من ان ينضم الى هذه الجماعة ، وممن رحلوا ايضا الدكتور « يحيى العلايلى » صاحب الخبرة الطويلة فى الانتاج الزراعى والدكتور « وديع فرج » استاذ القانون بجامعة القاهرة والاستاذ « عبد الملك حمزة » رجل السلك الدبلوماسى المعروف ومن الاحياء الاستاذ « محمد على الغتيت » . ولست فى حاجة ان اشير الى ان هؤلاء جميعا انما التقوا باسم المصلحة العامة ، وكانوا سواسية فى الميدان لم يفرق بينهم جاه ولا مال ، ودفعهم تمسكهم بالاصلاح - وبينهم بعض كبار الملاك الزراعيين - ان ينادوا بتحديد الملكية قبل ثورة سنة ٥٢ ببضع سنين .

التقت الجماعة على اهداف واضحة اولها : تدارك النقص فى اجهزتنا الادارية ، ومحاولة ادعام السلطة التنفيذية ادعاما يمكنها من ان تؤدى رسالتها على الوجه الاكمل ، وقد لوحظت عليها جوانب نقص كثيرة اخصها مركزية شكونا منها مر الشكوى ولانزال نعانى بعض مظاهرها ، وان كنا قد خطونا فى الثلاثين سنة الاخيرة خطوات كبيرة للخروج منها .. وامر آخر لايزال محل تعميق وملاحظة برغم المسابقات والاختبارات لاختيار عمال الدولة وموظفيها وهو المحاباة والمحسوبية ..

المحاباة فى التعيين فيهمل الاصلح ويؤخذ من دونه ، والمحاباة فى المعاملة فيدلل المهمل ويكافأ احيانا وينسى المجد والمجتهد ، وليس شىء اضر بالحاكم من ان ينتهز اقاربه ومن ينتسبون اليه فرصة حكمه ، واضر من هذا ان يكون الحاكم نفسه مستغلا وتتكون له ثروة لم تعرف قبل حكمه ، واضر من هذا كله ان نتسامح مع المنتفعين والمستغلين والمنحرفين .. والاداة الحكومية كل متصل الاجزاء ، واذا ما وفقت هذه الاداة الى وعى ورقابة تامة فى مختلف درجاتها استطاعت ان تواجه أعباءها وان تؤدى رسالتها على اكمل وجه ، ورئيس القلم مسئول في ميدانه مسئولية رئيس الادارة والمصلحة وقد نادت الجماعة بتوحيد القضاء ، ومن حسن الحظ انه قد اخذ بندائها ، وقطعنا فى ذلك شوطا كبيرا ، وامنا بان استقلال القضاء اضمن وسيلة لتحقيق العدالة ، ومرت بنا ظروف حورب فيها هذا الاستقلال وامتهن ، واحسسنا فيها بان ليست لدينا سلطة قضائية يمكن التعويل عليها .

والى جانب اصلاح الاداة الحكومية اتجهت الجماعة نحو الحياة الاقتصادية ، ولاحظت ان الثروة الزراعية دعامة اولى من دعائم اقتصادنا ، ودعت الى تعزيزها بخلق ملكيات صغيرة والتخلص من الملكيات الكبيرة فى تدرج لايحدث بلبلة ولا اضطرابات ، قالت الجماعة بذلك قبل ثورة سنة ٥٢ بعدة سنين وقد اخذت الثورة بهذه الفكرة ولكنها طبقتها تطبيقا ثوريا ، ومهما يكن من امر فالاصلاح الزراعى اصبح امرا مألوفا ، وكل ماينبغى معالجته هو « العلاقة بين المالك والمستأجر » وظروفنا الاقتصادية تقضى باعادة النظر فى هذه العلاقة بحيث تتوزع المسئوليات على ابناء الشعب جميعا بدرجة مقبولة سواء كانوا ملاكا ام مستأجرين .

نسلك اليوم فى سبيل تنمية الانتاج الزراعى طرقا ماكان أحوجنا اليها منذ اربعين سنة مضت ، فننوع فى زراعاتنا ، ونختار احسن البذور ، ونحاول بوجه عام السمو بهذا الانتاج ، ويشكو انتاجنا الزراعى اليوم من نقص الايدى العاملة ، وكان من الضرورى ان نتجه نحو الميكنة وهى تجربة ما احوجنا ان نعد لها فى صبر وجلد ، وما اجدرنا ان نتوسع فى الملكيات المتوسطة ، ونمكن خريجى المعاهد الزراعية منها ، ونعاونهم على تعهدها ، ذلك لان الانتاج الزراعى دخلت فيه التكنولوجيا والعلم الحديث ، بحيث لايقوى عليه المزارع العادى ، ومن حسن الحظ انا اخذنا بهذا اخيرا وبدأنا نوزع على شباب الجامعيين مساحات من الارض الجديدة التى تتطلب رعاية وتعهدا طويلا ونأمل ان تراقب هذه التجربة بجد بحيث يقوم مايمسها من نقص او اهمال ، ودعت الجماعة الى استصلاح الاراضى البور ، وخلق مناطق زراعية باستمرار ، ولكنا اهملنا هذا اهمالا يكاد يكون تاما او اتجهنا نحوه فى بدء عهد ثورة سنة ٥٢ ولكنا لم نسلك فيه السبيل القويم ، وتجربة مديرية التحرير من الامثلة المحزنة لهذا الميدان ، وها نحن اولاء نحاول تدارك ذلك فى السنوات الاخيرة ، ونرجو ان نتعهده باضطراد .

ولم تغفل الجماعة ثروتنا الصناعية ، ونشاطنا التجارى ، ووضعت لذلك خططا وبرامج لم يقدر لها ان توضع موضع التنفيذ الا اخيرا . ووقفت الجماعة عند سياستنا الخارجية ولاحظت انها طغت منذ ثورة سنة ١٩ على الاصلاح الداخلى ولذلك رأت ان تقف بها عند حدودها الحقيقية ، ووجهت النظر نحو الخدمات الصحية والاجتماعية ولها فى ذلك برنامج طويل .

واتجهت الجماعة بهذا كله الى الدرس والبحث ، وتبادل الرأى مع المختصين والفنيين ، فاخذت نفسها باجتماع اسبوعى تعرض فيه مشاكل معينة او تحاول ان تستوفيها بحثا وان تقترح لها الحلول المطلوبة ، وحرصت علي ان تتصل بجماهير المثقفين فنظمت سلسلة من المحاضرات وعالجت طائفة من مشاكلهم الكبرى فى الاربعينيات ، ووضعت فى بعضها بحوثا مستقلة ، فكان لها دراسة فى « الاصلاح الزراعى » واخرى فى « الارصدة الاسترلينية » وما اشبهها فى ذلك بصنيع حزب العمال الانجليزى الذى درج بعد الحرب العالمية الثانية على اخراج كراسات صغيرة تعالج بعض المشاكل الاقتصادية والاجتماعية فى انجلترا .

واستطاعت الجماعة بعد درس طويل ان تتجه نحو الرأى العام ببيان سمته « صوت مصر » احرص على ان اسجل منه هنا مايلى :

يابنى الوطن :

هذا هو البرنامج ، وقد شئنا به ان ننسق نواحى الاصلاح ، ونجمل الاهداف والمقاصد ، ونجمع معالم النهوض الحقة ، على انا لانقنع بهذا العموم والشمول ونرى ان وراء كل نقطة من نقط البرنامج مشروعات يجب ان توضح وتفصل ، وان يتضافر على اعدادها الفنيون والسياسيون ، ونأمل ان نساهم فى اعدادها بنصيب بما تقدم من دراسات وبحوث ولا قيمة لهذه المشروعات ان لم تكن عملية تتمشى مع ظروفنا وتلائم بيئتنا ، وقومية نسلم بها جميعا ونواصل تنفيذها مهما تباينت الميول السياسية و الاتجاهات الحزبية ، ومحدودة الاجل كى

يحاسب منفذوها على خطواتهم ويقاس فى دقة مدى نجاحهم .

هذه المشروعات هى طريق النجاة وسلم الوصول ، استطاعت ان تخطو ببعض الامم خطوات فسيحة فى سبيل النهوض والتقدم ، واضحى العالم اليوم وكله مشروعات دقيقة محكمة ، فلنحذ حذوه ، ولنسلك مسلكه ، كى نسير على هدى وبينه ، ونعمل دون تردد او تراجع .

محاولة كان فى وسعها ان تنتهى بنا الى تكوين حزب او هيئة سياسية ذات مبادىء وبرامج واضحة ، ولكنها لم تسلم من بعض المنافسات وشاء المرحوم « على ماهر » ان ينحو النحو نفسه ، بل حرص على ان يطلق على نشاطه اسم « جماعة نهضة مصر » والمؤمنون بالنهضة القومية لايستريحون الى هذه المنافسات ، ولا يرغبون فى اندماج لايقوم على اساس واضح سليم ، ولم تتردد جماعة نهضة مصر فى ان تتصل بالمعنيين بجماعة النهضة القومية ومع هذا احتفظ كل باستقلاله ، وكم وددت لو خطت جماعة النهضة القومية خطوة حاسمة قبل نهاية الاربعينيات لاسيما والجو العسكرى كان يتحرك من جانبه وفى داخله ، ولو استطاعت حركة مدنية قوية أن تطفو على السطح لانتهت الى تضامن مدني عسكرى يتكلم باسم المصريين جميعا ، ومهما يكن من امر فانى اعتقد ان جماعة النهضة القومية كانت من العوامل التى دفعت الى ثورة سنة ٥٢ .

الفصل الرابع :

الترشيح والانتخاب

عمليتان برلمانيتان هما اساس الحياة النيابية وروحها .. ومسئولية الترشيح اساسا تقع على عاتق الحزب الذى يختار ممثليه فى المجالس النيابية ، وكلما كان هذا الترشيح سليما ودقيقا استطاع ان يبعث الى المجالس النيابية من هم جديرون بها ، ولا افكر ان احزابنا السياسية الكبرى كانت تعني بهذا الجانب ولكنها لم تسلم بدورها من مجاملات ، بل متناقضات . واوضح صور هذا التناقض ان يرشح الحزب الواحد ممثلين له فى دائرة واحدة .

وقد تقدمت للحياة النيابية تحت راية حزب الوفد ، وكانت الراية القومية المحببة ، واضطررت بعد بضع سنين ان اتقدم مرة اخرى مستقلا ، وفى حياة حزبية حقه لا محل لترشيح المستقلين ، ومن واجب الحزب ان يبنى ترشيحه على اساس البرنامج الذى اقره واقتنع به ، ولاتقصر الترشيحات على طائفة معينة من ملاك او مثقفين او علماء او عمال بل الحياة النيابية الكاملة تستلزم وجود هؤلاء جميعا وقد كان فى مجلس النواب والشيوخ قديما اعضاء من وحدات المجتمع المختلفة ، كان فيه الملاك والفلاحون وبعض ممثلين للاتجاهات العمالية ، وان كانت الحركة العمالية حتى سنة ٥٢ لم تمثل تمثيلا

واضحا ، وشاعت ثورة سنة ٥٢ ان تقف على العمال والفلاحين نصف الدوائر الانتخابية ، وفى هذا الاتجاه باعث يقظة للعمال والفلاحين ، ولعل التجربة حققت اهدافها اليوم ، وما اجدرنا ان نفتح الباب للعمال والفلاحين لدى الاحزاب جميعا وحينذاك نحقق الغرض المنشود من التمثيل الكامل لوحدات الامة فى حياتنا النيابية دون ان تقف عند نصيب الزامي لطائفة من طوائف الشعب ومن يدرى فقد يصل حزب العمال المصرى الى درجة تقربه من حزب العمال البريطانى ، لاسيما وقد وصلنا الى صورة الترشيح اظن انا تعجلنا فيها بعض الشىء وهى « الترشيح بالقائمة » وفى ذلك ولاشك ربط للمرشح بحزبه ، وتخلص من العلاقات الفردية والصلات الاسرية ، وكلما كان برنامج الحزب واضحا سار الناخبون وراءه ، وان بدا فى قائمة عيب فالمسئول عنه الحزب لا المرشح ، وفى القائمة مايغنينا عن ان نقصر نصفها على فريق معين من ابناء الشعب فكل افراد القائمة سواء فى انتمائهم الى الحزب الذى رشحهم .

اما الانتخاب فهو مدرسة شعبية لم نستغلها بعد استغلالا كافيا . ذلك لانا عولنا فيها اساسا على العلاقات الاسرية ، والصداقات الفردية ، وربما كان فى الثلاثينيات والاربعينيات شيوخ لكل قرية يستطيعون ان يوجهوا الرأى فيها ، واظن ان هذا العهد قد انقضى واصبح كل فرد يحاول ان يثبت وجوده وان يبدى رأيه على نحو مايحكم ويقدر ، وما اجدر المرشحين ان يؤدوا رسالتهم على وجهها ، وان يوضحوا مهمتهم التى تقوم على خدمة الصالح العام لا على اساس مصالح فردية .

وبدأنا فى دعايتنا الانتخابية نتجه بعض الشىء نحو

لقاءات منظمة تجمع بين الشباب والشيوخ ، وتعقد فى نواحى الدائرة الانتخابية المختلفة ، وهذا هو المسلك الذى دعوت اليه وطبقته فى الثلاثينيات ، وقد كان من حسن حظى ان اشتملت دائرتى الانتخابية على مراكز عمالية لها شأنها ومن بينها « مصنع السكر بالحوامدية »وفيه عشرات المئات من العمال الوافدين من القرى المجاورة والتزمت فى دعوتى الانتخابية ان التقى بهم مساء كل يوم عند انصرافهم من عملهم ، وان اتحدث معهم عن الخدمات الاجتماعية والمصالح العامة التى تنصب على مقر الدائرة او تمتد الى القطر جميعا ، وفى وسعى ان اقرر ان هذه اللقاءات العمالية كانت سر نجاحى فى انتخابات عام سبعة وثلاثين برغم المنافسة المحلية القوية ، لا انكر ان الوعى الانتخابى فى الثلاثينيات كان ادنى مما هو عليه الان فحركة التعليم فى الخمسين سنة الاخيرة قد خطت خطوات فسيحة ، ووسائل الاعلام قد وجهت الاميين وانصاف المثقفين وجهات تمكنهم من الحكم وابداء الرأى .

ومع الاسف الشديد شاب بعض انتخاباتنا النيابية فى العقود الثلاثة الاخيرة ، وهى عقد الخمسينيات والستينيات والسبعينيات تدخل السلطة التنفيذية فنفرت كثيرين من الانتخاب واداء هذا الواجب الوطنى ، وزاد الامر ازدراء تلك النسب المئوية الوهمية التى اعلن عنها من ان الحضور وصل الى تسعين او خمس وتسعين فى المائة ، وهانحن اولاء نحاول تصحيح ذلك ولابد ان نعنى بهذا التصحيح عناية كافية ان كنا نريد لانفسنا حياة نيابية قوية وسليمة ، والمستقبل على كل حال يبعث على الامل فى انا سنصل الى ناخبين يفهمون مايصنعون ويقدرون مايختارون

الفصل الخامس :

الحياة السياسية

قدر لى ان اتصل بها منذ عهد مبكر ، وقد ربيت عليها فى جو الثورة المصرية عام تسعة عشر وتسعمائة والف ، فاشتركت في المظاهرة برغم سعيرها وجام الغضب الذى صبه الجندى البريطانى عليها ، واسهمت ايضا فى لجان الطلبة وفى شىء من الحركات القيادية للشباب ، ونلت شرف الاعتقال لبضعة ايام ، وليس السجن مرا دائما بل منه مايعد مبعث فخر واعتزاز طول الحياة ، وتقدم والدى لعضوية مجلس الشيوخ ، وكان لابد لى ان اسهم معه فى الحركة الانتخابية وكنا نحمل جميعا راية الوفد ، وما كان اعزها من راية ، ولم يكد ينتهى العقد الثالث من هذا القرن حتى سافرت الى اوربا ، فبعدت عن السياسة والسياسيين ، وفى عام خمسة وثلاثين وتسعمائة والف ، كنت آمل ـ كما اشرت من قبل ـ ان اعيش مع العلم والدرس ولكن واجب حمل الامانة قضى على بان اتقدم عام سبعة وثلاثين لانتخابات مجلس الشيوخ فى وقت لم استكمل فيه السن القانونى ، ولم يفتنى ان اخطر اعضاء الوفد الذين رشحونى لذلك وكان ردهم ان هذه ليست مسألتى ، ولم يفت الخصوم السياسيين ان يطعنوا فى سنى وبرغم ذلك سارت المعركة الانتخابية فى طريقها وقدر لى

نجاح ماكنت احلم به ، ولعل من اهم اسباب هذا النجاح ان الناخبين رأوا فيَّ شابا شاءوا ان يقدموه الى مجلس الشيوخ والمسنين ، وفى بدء عضويتى فى هذا المجلس لم اتردد مرة اخرى فى ان اعلن انى لبيت دعوة الاسرة وانى لا احب ان احمل اعضاء لجنة الطعون وزر عمل لايد لهم فيه ، وكان ردهم كريما حين قالوا : قد دخلت دارنا وكان فى وسعك الا تدخل ، اما وقد دخلت فنحن الذين نملك التصرف فى شأن خروجك او بقائك . وبقى طعن السن الذى وجه الىّ معلقا عدة سنوات رأت اللجنة بعدها ان تعتمد هذه العضوية .

ولم يكن حقى البرلمانى طوال مدة الطعن هذه اقل من حق اى عضو آخر فى الاشتراك فى لجان المجلس وجلساته ، وآمل ان اعقد فصلا خاصا لهذا الجانب من حياتنا النيابية .

جذبتني السياسة كما اشرت على الرغم منى ، وكنت احس بما فى حياتنا السياسية من نقص رجوت ان اسهم فى تدارك شىء منه ، والحياة السياسية فى بلد ما تقوم على دعائم أربع :

أولها : حركات عامة وثورات شعبية او حروب ومحن ، وتكاد ترجع حياتنا السياسية المعاصرة الى بدء الاستعمار البريطانى وما تلاه من ثورة عرابى وقيام الحزب الوطنى بقيادة مصطفى كامل ثم محمد فريد ولا نبعد عن الصواب ان قررنا أن ثورة سنة ١٩١٩ كانت البدء الحقيقى لحياة سياسية قوية وواعية ، فقد كانت هذه الثورة دون نزاع شعبية انبعثت من اطراف البلاد شمالا وجنوبا وحدثت فيها مقاومات يسجلها التاريخ ان فى كفر الزيات وما حولها من اعمال محافظة الغربية او فى الشوبك الغربى من اعمال محافظة الجيزة او

فى المنيا ، وكان لهذه الثورة صدى عمر نحو ثلاثين عاما ، ثم تلتها ثورة عام ٥٢ ، وكانت اساسا حركة عسكرية لكنها صادفت هوى لدى كثير من المثقفين ، لانها قامت فى مرحلة من تاريخنا السياسى لم يكن من اليسير على الحكم الملكى ان يعمر طويلا ولا احاول هنا ان اؤرخ لهذه الثورات لكنى اريد ان اشير فقط الى امرين هامين : اولهما انا لم نفد كثيرا من تجارب الماضى ، وكان ينبغى ان تكون ثورة عرابى درسا لمن قاموا على امر ثورة ١٩ وان تكون هذه بدورها درسا لثورة ٥٢ ، وامر آخر هو ان الجانب الشخصى كان له شأنه فى توجيه هذه الثورات والافادة منها او القضاء عليها

وفى هذا مايقودنى الى الدعامة الثانية من دعائم الحياة السياسية وهى قيادة حكيمة وبطولة تبعث فى النفوس ما تبعث من احترام وتقدير ، وكان فى وسع عرابى ان يحقق شيئا من هذه القيادة ، ولكن السلطة البريطانية كتمت انفاسه بابعاده عن الوطن ، وحاول النديم طوال بضع سنوات ان يوقد الشعلة ، لكنه كان يعمل فى الخفاء ، واصبحت ثورة عرابى جزءا من التاريخ الذى لم نتنبه الى احيائه احياء حقا الا فى العقدين الاخيرين من هذا القرن ، وكان سعد زغلول بعد ثورة سنة ١٩ قيادة لها وزنها وتقديرها ، وفى وسعنا ان نقول انها كانت قيادة الامة ، وكان حزب الوفد هو الحزب الحى المتحرك الذى مثل الامة بحق ، وحاول ان يقف فى وجه الاستعمار وفى وجه السراى على حد سواء ، لم يعمر سعد زغلول طويلا وحدثت انقسامات فى حزب الوفد بعد وفاته ، فكانت الفرقة التى قضت على كثير من نفوذه وسلطاته على ان هذا النفوذ ظل يحسب له حسابه لا من جانب المستعمر البريطانى فحسب بل من جانب السراى ايضا . وتأرجحت الكفة نحو عشرين عاما

بين دار المندوب السامى وقصر عابدين ، ويخيل الىّ ان قيادة حزب الوفد فى اخريات العقد الرابع من هذا القرن آثرت السلام ، وضعفت مقاومتها لسلطات السراى وقد مهد هذا دون نزاع لثورة سنة ٥٢ ، وسبق لى ان اشرت انى كنت جنديا وفديا فى ثورة سنة ١٩ ودخلت مجلس الشيوخ تحت راية حزب الوفد ، وبقيت على ذلك بضع سنين ، وكان كل املى ان ينتهى هذا الحزب الكبير الى برنامج شامل ترسم اهدافه ، وتحدد خططه ، وتوضح وسائله ، ويلتزم به الحزب الذى تبناه ، وحاولت عرض ذلك غير مرة فى اجتماعات الهيئة الوفدية لكن قيادات الحزب لم تكن تستسيغ فيما يظهر ان تقيد نفسها بقيود تعلنها امام الناس .

وجاءت ثورة ٥٢ ، وكان هدفها التخلص من سلطان السراى واستكمال استقلال البلاد باخراج مابقى من جيوش الاستعمار ، وعقد معاهدة استقلال تام ، وعد ذلك كله وسيلة لهدف اسمى هو الاصلاح الاجتماعى او العدالة الاجتماعية ، كما كانت تسمى وقد نجحت هذه الثورة فعلا فى التخلص من السراى وطغيانها ، كما قضت على كل ذيول الاستعمار البريطانى ، وهمت نحو هدفها الاكبر وهو الاصلاح الاجتماعى ، ولكنها مع الأسف بليت بما بليت به قيادات سابقة ، من خلافات داخلية وتطاحن على السلطة ، وكان فى هذا التطاحن تشتيت ومضيعة لجهود كبيرة ، وبلغ بهذه القيادات الامر ان دخلت فى حروب ماكان اغنانا عنها كحرب اليمن لكى تخفى عوامل الفرقة الداخلية ، واخشى ما اخشاه ان يكون من بين اهداف حرب عام ٦٧ هى الاخرى شىء من صرف الاذهان عن الخصومات الداخلية بين القيادات السياسية الكبرى ، ولست فى حاجة ان اشير الى ان هذا

الجو نفسه افسح السبيل للتجسس واعمال المخابرات والمباحث واخفت صوت النقد وحرية الرأى ، وهذا الصوت نفسه دعامة ثالثة قوية فى تكوين حياتنا السياسية السليمة ويوم ان كان حزب الوفد قويا كانت صحافته توجه الرأى العام وتكشف المستور وتنقد وتلوم ، وامتد نقدها الى السراى نفسها فضلا عن نقد التصرفات البريطانية غير السليمة وقد امتد هذا النقد الى الحياة البرلمانية فاستطاع نواب وشيوخ ان يسألوا ويستجوبوا عن بعض تصرفات السراى وما كان فيها من عدوان على حقوق الافراد وحقوق الامة والوطن ولم تكن السراى ترحب مطلقا بالرأى الواضح الصريح ولكنها كانت تخضع لقوات الشعب الممثلة فى حزب الوفد القوى وتسجيلا للتاريخ إحب ان اشير الى انه بعد وفاة المرحوم انطون الجميل رئيس تحرير صحيفة الاهرام عرض علىّ القائمون على امر هذه الصحيفة ان أخلفه فيما كان يضطلع به من رياسة تحريرها ، واحسست بان هذا الاختيار ربما جر عليهم بعض المتاعب ، ونبهتهم الى ذلك ، والحوا ولم ار بدا من ان انزل عند رغبتهم وما ان علمت السراى بذلك حتى وجهت اليهم ما وجهت من اعتراض ورفض ، وحرصا على مصلحة ورثة لاذنب لهم سارعت الى الاعتذار عن هذه المهمة ، هذه حادثة صغيرة لكنها تبين الى اى مدى كانت السراى تخشى الرأى العام الحر الطليق ، وقد كان لى فى هذا الشأن حديث طويل مع المرحوم ابراهيم عبد الهادى الذى كان رئيسا للديوان حينذاك ، وابراهيم عبد الهادى وفدى قديم ، تلاقينا اولا فى ساحة لجان الطلبة وقيادات الشباب ، ثم تلاقينا ثانية عند تقدمى الى انتخابات مجلس الشيوخ لاول مرة ، وكان المحامى الذى كلفه الوفد بان يدافع عنى ضد الطعن الذى وجه الى سنى ، ولم يطرأ على صداقتنا وعلاقتنا

هذه اى تغيير برغم معارضتى فى مجلس الشيوخ ، ويوم ان كون مع اصدقاء له على رأسهم النقراشى حزبا جديدا عرض علىّ ان اشترك معه ، ولم اتردد فى الاعتذار لانى كنت اريد للوفد ان يقوى لا ان يضعف وينفك شمله ، ولعله لو كان محدثى فى شأن رياسة تحرير الاهرام شخصا اخر غير ابراهيم عبد الهادى لوقفت موقف المعارضة .

ونحس جميعا بان صحافتنا بعد ثورة ١٩٥٢ كانت صحافة رسمية ، وان تعددت الوانها ، واصبحت قطاعا عاما ، وماكان لها فى ظروف كهذه ان تقوم برسالتها على وجهها ، وانصرف كثير من الكتاب والنقاد عن ان يكتبوا او ينشروا شيئا فى الصحافة اليومية او الاسبوعية ، وفى السبعينيات هبت على الصحافة نسمة حقيقية من الطلاقة والحرية واخذت تنمو شيئا فشيئا ، ولكنا نخطىء كل الخطأ ان زعمنا ان وسائل الاعلام من صحافة واذاعة ومسرح وسينما اصبحت بمعزل عن كل تدخل او رقابة ومع هذا فهى تحظى بحرية وطلاقة ملحوظة وان فاتها شىء فهو الصدق فى القول والبعد عن مطامع الحزبية الهدامة والتشكيك الذى يتعارض مع الصالح العام .

والدعامة الرابعة والاخيرة هى الرأى العام المستنير ، وأسارع فاقرر ان هذا الرأى العام برغم ما صادف من صعوبات وعثرات فى نصف القرن الاخير فانه ينمو وينمو باطراد ، وعلينا ان نيسر له وسائل النمو السليم ، نيسرها فى تربية النشء على صدق القول ، وتحرى الحقيقة ، وانكار الذات واحترام الصالح العام ، ونيسرها ايضا فيما نقدم لهذا النشء من قراءات رائدة تحيى امامه صورا من الماضى يستطيع ان يحاكيها وان يفيد منها ، ونيسرها ايضا بان نفسح

لهذا النشء المجال فى ان يعبر عما يجول بخاطره فنعد من ابناء اليوم قادة المستقبل ، وقد شغلنى مع جماعة من الاصدقاء امر هذا الرأى العام فحاولنا ان نكون نواة صغيرة من بعض المعنيين بالشئون العامة سميناها « جماعة النهضة القومية » وقد سبق ان عرضنا لها من قبل .

هذه هى حياتنا السياسية خلال الستين عاما الماضية بما لها وما عليها ، وقد ذقت حلوها ومرها ، ولم اكن فى يوم ما يائسا من امرها ، حتى فى ساعات الشدة ، وتحطيم الاقلام ، وركود الاذهان ، واملى كبير فى ان يؤدى القائمون على صحفنا ووسائل اعلامنا واجبهم فى النقد البناء والتوجيه السديد ، واحمد الله انا بدأنا نتعفف عن السباب والمهاترات ، وآمل ان تستعيد صحافتنا منزلتها بين الصحف العالمية الكبرى .

الفصل السادس :

مجلس الشيوخ

الهيئة البرلمانية الثانية التى تقابل « مجلس النواب » وقد قضى بهما معا دستور سنة ٢٧ وسلطاتهما التشريعية واحدة ، ورقابة كل واحد منهما البرلمانية كاملة ، والفرق الوحيد ان مجلس الشيوخ لم يكن من حقه ان يقترع على الثقة بالوزارة ، وقصر هذا على « مجلس النواب » هذا الى ان اعضاءه كانوا اقل عددا من اعضاء « مجلس النواب » لان المنتخبين منهم كانوا ثلث اعضاء المجلس الاخر ، وبذلك شملت دائرة عضو « مجلس الشيوخ » ثلاث دوائر انتخابية لمجلس النواب ويضاف الى الاعضاء المنتخبين عدد معين استكمالا لتمثيل الطوائف التى لم تجد سبيلها الى الانتخاب .

قدر لى ان اخوض مضمار الحياة النيابية فى سن مبكرة ، فتقدمت لانتخابات « مجلس الشيوخ » عام سبعة وثلاثين ولما يمض على عودتى من اوربا عامان ، وربما كان فى صغر سنى ما ادخل لونا جديدا على هذه العضوية واحسست بان الناخبين انفسهم كانوا يرحبون بان يدخلوا بين الشيوخ شابا يفيد من حكمتهم وتجربتهم ، ولكن هذا الحماس الجماهيرى لم يحل دون ان يطعن فى ترشيحى وفى انتخابى ، وسارت الانتخابات فى طريقها برغم هذا الطعن ، وفزت بالعضوية ،

وحين تقدمت الى لجنة الطعن صارحتها بسنى الحقيقى واعلنت رغبتي في ان استقيل من عضوية لم استكمل شروطها . وكان رد اللجنة : « لك ان تدخل دارنا كما تشاء فان دخلت فلا تملك الخروج منها الا بموافقتنا » واستمسكت بى اللجنة ولم تفصل في الطعن الذى قدم ضدى الا بعد ان بلغت السن القانونية .

ولم يمنعنى هذا من ان اقوم بواجبى فى « مجلس الشيوخ » سواء فى لجانه او فى جلساته وقد اتصلت باكثر من لجنة ، ووقفت جهودى بخاصة على اللجنة المالية وعنيت بلجنة الاوقاف والمعاهد الدينية زمنا ، اما جلسات المجلس فكنت حريصا عليها الحرص كله ، ولم اتخلف عن واحدة منها الا لضرورة قاهرة وكثيرا ما كان علىَّ فيها واجب أؤديه بصفتي مقررا للجنة من اللجان التى انضمت اليها ، واذكر ان اول كلمة لى فى مجلس الشيوخ دارت حول « تعليم الفتاة »

وكنت ولا ازال من انصاره ، وقد يكون بين السادة الشيوخ من لايقرنى على هذا الرأى ولكن هذه الكلمة كان فيها شىء من الاعلان عن ميولى واتجاهاتى ، واشهد انى افدت كثيرا من معاشرة الشيوخ الحكماء ، ونعمت بصحبة قدر غير قليل منهم ممن اكتملت خبرتهم واتسعت افاقهم وكانوا قيادات فى ميادينهم سواء كانوا وزراء او رؤساء حكومات سابقين او قانونيين واطباء ومهندسين وعلماء ووجهاء بمختلف بلاد القطر .

ومرت بى فترة فى اول حياتى النيابية كنت اعدها نموذجا للمعارضة البرلمانية الجادة والموضوعية وقد قضيت ثلاث سنوات او يزيد مع هيئة برلمانية وفدية فى مجلس الشيوخ

تمثل المعارضة وعلى رأسها المرحوم « يوسف الجندى » واستطيع ان اقرر ان هذه الفترة كانت من ازهى الفترات فى حياتنا النيابية التى عشتها بوجه عام ، فقد كانت المعارضة وفدية من الناحية الحزبية لكنها كانت مصرية قبل كل شىء .. تعارض عن بينة .. وتناقش بعد درس وبحث .. وتحلل وتحكم دون تحيز او مجاملة . وكم كان لهذه المعارضة من مواقف سجلتها مضابط مجلس الشيوخ ، ويكفى ان اشير الى مثل واحد كانت المعارضة فيه تدافع عن وجهة نظر معينة ، ولم يشأ ممثل الحكومة ان يأخذ برأيها ، ومن محاسن الصدف ان رئيس الحكومة شهد هذا الحوار بين احد وزرائه وبين رجال المعارضة فلم يتردد فى ان يأخذ الكلمة .. وان يؤيد المعارضة فيما ذهبت اليه ورئيس الحكومة هذا هو « على ماهر » وله مواقف لايمكن انكارها .

وفى مجلس الشيوخ الى جانب التحليل والمناقشة ، والتوجيه والمعارضة .. كانت هناك تشريعات تصحح بعض اخطاء الماضى او ترسم سبلا لمواجهة المستقبل .

كنا نقيس هذه المشروعات بمقياسها الصحيح سواء اكانت صادرة عن بعض اعضاء المجلس ام من الحكومة . وكان لى مشروع قانون تقدمت به عام خمسين الى مجلس الشيوخ لتحديد الملكية ، واحيل على اللجنة المختصة وليته نظر فى حينه واتخذ فيه قرار ما ، ولكن ابى القدر الا ان يبقى فى ملفات اللجان الى ان جاءت ثورة سنة ٥٢ فحملت راية الاصلاح الزراعى ووجهته الوجهة التى ارتأتها . ومن المشروعات التى تحمست لها وايدتها فى اللجان المختصة وفى الجلسات العامة قانون « الغاء الوقف الاهلى » ومكنتنى

صلتى بلجنة الاوقاف والمعاهد الدينية من ان اقف على سيئات « الوقف الاهلى » ونواحى النقص فيه ، وامنت بانه كان وسيلة من وسائل حماية الملكية لم تحقق اغراضها بل ادت عكس مايراد بها . وقد اخذ المجلس بهذا الاصلاح برغم ماصادفه من معارضه .

ولمجلس الشيوخ الحق فى ان يسأل ويستجوب كمجلس النواب سواء بسواء .. ولم اتجه كثيرا نحو الاسئلة البرلمانية لانى كنت احقق ما اريد منها عن طريق اللجان ، ولاشك ان صلة السلطة التشريعية بالسلطة التنفيذية عن طريق اللجان ايسر وابين

والبيان فى اللجنة اكمل وايسر منه فى جلسة علنية للمجلس ، ولم اسهم الا فى استجواب واحد هو ماسمى « استجواب الاسلحة الفاسدة » ولهذا الاستجواب قصة احرص على ان اسجلها لكى يعرف لكل ذى فضل فضله ، فقد بدأت قصة « الاسلحة الفاسدة » فى « ديوان المحاسبة » وكان على رأسه زميل وصديق كريم هو الاستاذ محمود محمد محمود ، ورئيس الديوان هذا هوالبطل الحقيقى لموضوع الاسلحة الفاسدة فهو الذى كشف عنها ، استوقفه ما شابها من تصرفات غير سليمة ، ولم يتردد فى ان يفاتحنى بما لاحظة واحس به ، وفاتح ايضا زميلا لى كان عضوا فى مجلس الشيوخ حينذاك هو المرحوم الاستاذ مصطفى مرعى ورغب رئيس الديوان فى ان يعد مذكرة فى هذا الموضوع ويبعث بها الى مجلس الشيوخ ولكن مصطفى مرعى وانا اثرنا ان نضطلع بهذا العبء ، وتركت لزميلى الاستاذ مصطفى مرعى ان يتقدم هو بالاستجواب فى ضوء البيانات التى حصلنا عليها من رئيس الديوان ، وحدد للاستجواب جلسة

خاصة ، ولكن لسوء الحظ لم يحضر مقدم الاستجواب فى هذه الجلسة فلم اتردد فى ان اتبناه وتلك سنة معروفة فى التقاليد البرلمانية تبنيته وانا اعلم انه يمس السراى التى لاترحب بمثل هذه الاستجوابات .

ويظهر انى حظيت بالغضب السامي منذ زمن بعيد ، وكان بينى وبين الملك فاروق رحمه الله مواقف اعتقد انه لم ينسها ، ومن اوائلها صدام ما كان متوقعا مع سيارته التى كان يقودها بنفسه فى كورنيش الاسكندرية حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر وانا انعطف الى شارع جانبى وهو بزى البحر ، وحمدا لله ان اتقى الخطر ، والقى نظرة علىّ دون اشارة او محادثة ، وسبق هذا ما كان لى من ملاحظات وتعليق على موقف السراى فى كتابى « الاداة الحكومية » ولم تخل اعمالى فى « مجلس الشيوخ » من ان الفت نظر السراى ، ووقفت موقف المعارضة من نفقات استبدال بين املاك الخاصة الملكية والاوقاف الخيرية وبخاصة وقف « المطاعنة » ، وقدم يوما اقتراح بمشروع لحماية الاسرة المالكة ولعله كان يقصد حماية الملكة الوالدة وعارضت هذا المشروع لانى رأيت فيه مايتنافى مع الغرض المقصود منه ، وكان لى فى موضوع الاسلحة الفاسدة ما كان ، فعرضت لصفقاتها وماشابها من نقص واستغلال ، والكل يعلم انها لم تتم الا بعلم من السراى ، وبلغ الامر بالسراى ان طلبت الى المشرفين على اعمال جلسات المجلس ان يوافوها بكل ملاحظة تصدر منى ، وقال لى يوما المرحوم « على ماهر » انه اقترح اسمى فى وزارة من وزاراته ولم تقره السراى وقتها ، ورحم الله فاروق مرة اخرى ، فهو الذى عجل باخرة ملكه ولم يفته ان يصرح بذلك احيانا ، وجاء موضوع الاسلحة الفاسدة « ضغثا على إباله » فقد سبق ثورة سنة ٥٢ بنحو عام او يزيد قليلا .

اللجنة المالية

دعامة هامة من دعائم الرقابة البرلمانية فى مجلسى "النواب والشيوخ" . وأشهد أنه كان للجنة المالية بمجلس الشيوخ هيبة وتقدير من جانب ممثلى السلطة التنفيذية الذين كانوا يعرضون عليها مشروع الميزانية والمشروعات الأخرى التى تتعلق بالمال العام ، وقد اشترك فيها رجال لهم ماضيهم وخبرتهم ومن بينهم من عاش مع الأجهزة الحكومية زمنا طويلا قدر لى أن أنضم إلى عضويتها ولمَّا يمض علىَّ فى مجلس الشيوخ إلا ثلاث سنوات ، وحظيت فيها بصحبة عدد غير قليل من رجال الرعيل الأول أمثال عبد الحميد سليمان ، ومحمود شكرى ، ومحمد زكى الابراشى ، وعبد القوى أحمد ، وانطون الجميل ، وحسن صادق ، وقد أفدت من خبرة هؤلاء الرجال ونضج آرائهم الشىء الكثير ، وأولعت بأعمال هذه اللجنة فتابعتها متابعة صادقة إلى حد أن انتهى بها الأمر أن اختارتنى مقررا لها ، وبقيت أضطلع بهذا العبء نحو عشر سنوات ، وكُلفت بعرض عدد غير قليل من المشروعات والقرارات التى انتهت اليها ، ولم يخرج المجلس يوما على رأيها ، ولم يرفض أى اقتراح ذهبت إليه . ولها مواقف إزاء بعض المشروعات التى مرت بمجلس النواب واعتمدها ولكن

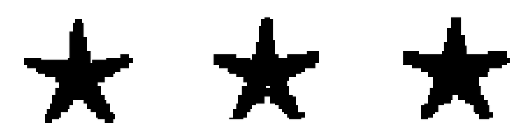
اللجنة المالية فى مجلس الشيوخ لم تتردد فى رفضها . وأذكر من ذلك مثلين مهمين .

أولهما : يتصل بشركة طيران أسسها بعض من لهم صلة بالسراى ، واقاموها على عدد من الطائرات القديمة التى خلفتها الحرب العالمية الثانية وأظنها كانت مهداة من الحكومة الايطالية إلى السراى وهى شركة « سعيدة » وأريد أن تعينها الدولة فى الوقت الذى كانت فيه شركة مصر للطيران أحوج ماتكون إلى أية إعانة وهى ولاشك أجدر بها وأوْلى ، وعرض موضوع هذه الاعانة على المجلسين فأقره مجلس النواب ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مجلس الشيوخ فحللته اللجنة المالية تحليلا دقيقا ، وانتهت إلى أن هذه الشركة فى أوضاعها ومعداتها ليست جديرة بأى إعانة ، ورُفض الاعتماد المقترح رفضا باتا برغم أن السراى أوفدت "طاهر باشا" للدفاع عن وجهة نظرها .

ومثل آخر ليس أقل شأنا من موضوع شركة الطيران هذه ، ذلك أن شركة "الانجلو أيجيبشان أويل فيل" أوشك امتيازها على انتهاء مدته ، فرغبت فىُ أن تمنح مدة جديدة ، وعُرض الأمر كالمعتاد على مجلسى "النواب والشيوخ" ولم ير مجلس النواب بأسا فى الموافقة على هذا المد ، أما اللجنة المالية فى مجلس الشيوخ فقد وقفت إزاءه موقفا حاسما ورفضت اقتراح المد رفضا باتا . وباسم التاريخ أحب أن أنوه هنا باسم زميل كان رئيسا للجنة المالية فى ذلك التاريخ وهو المرحوم المهندس حسن باشا صادق وقد كان على صلة "بالأنجلو ايجبشيان أويل فيل" ، ولكنه امتنع عن أن يحضر

اللجنة أثناء نظر هذا الموضوع . ولم يوص بشيء مطلقا ، ولم يحرك ساكنا .

ويطول بى الحديث إن عرضت لقضايا وأمور أثيرت فى هذه اللجنة طوال عشر سنوات ، ولم تتأثر بعامل حزبى ولا بمصلحة شخصية ، وكانت تتحرز ما استطاعت من الاعتمادات الخاصة بالمصروفات السريعة ، وأذكر أن رئيسا كبيرا للحكومة هو المرحوم حسين باشا سرى شهد اللجنة مرة راغبا فى أن تُقر اقتراحا باعتماد إضافى بمبلغ عشرة آلاف جنيه للمصروفات السرية . وبرغم سرية هذا الموضوع لم تقره اللجنة إلا حين عرفت انه لايتعارض مع الصالح العام فى شيء ، وفى اعتمادات الميزانية والاعتمادات الاضافية مجال للترقيات والعلاوات الاستثنائية أو للمحاباة والمحسوبية ومتى أحست اللجنة بأن وراء أى اعتماد دافعا شخصيا أبت أن تُقره ولو كان محركه رئيس الوزراء .



هذه هى اللجنة المالية ، التى عشت معها أطول زمن عاشه عضو من أعضاء مجلس الشيوخ وقد وقفتنى على الأجهزة الحكومية المختلفة وأعانتنى على تلك الدراسات التى قدمتها فى كتاب "الأداة الحكومية" .

واتصلت بلجنة أخرى من لجان مجلس الشيوخ هى "لجنة الأوقاف والمعاهد الدينية" وأنوه بها هنا فقط لحادثة تدل على قيم الرجال ، وتقدم مثلا للقدوة الصالحة وذلك أنه أريد فى وقت ادخال تعديل على قانون "هيئة كبار العلماء" يفتح الباب لزميل وصديق كنت أعزه وأقدره لكى يُضم إلى هذه الهيئة وهو

المرحوم "مصطفى عبد الرازق" ذلك لأن هذه الهيئة كانت الطريق الذى يوصله الى "مشيخة الأزهر" وتشاء الصدف أن يُعرض هذا التعديل فى يوم كنت فيه على موعد مع مصطفى عبد الرازق لتناول طعام الغذاء ، وأنا بوجه عام ـ أمقت الباب الخلفى الذى يُقصد به أن يوصل إلى غرض معين ، ولما عرض هذا عارضت فى التعديل لكن أغلبية اللجنة وافقت عليه ولم تحل معارضتى دون لقاء زميلى وصديقى ، وأنا أعلم أنه قد عرف موقفى ، ولكنه كان أكرم من أن يكون لهذا الموقف أثر فى نفسه .

ذكريات من الخير أن نسجلها لكى نوفى بعض رجالنا حقهم .

الفصـــــل الثامـــن :

الأداة الحكوميــة

عشت معها طويلا عن طريق اللجنة المالية لمجلس الشيوخ ، وقد أفسحت لى المجال لكى أقف على جوانبها المختلفة ، إنْ من ناحية السلطة التشريعية أو من ناحية السلطة التنفيذية أو من ناحية السلطة القضائية ، وقد علمتنى اللجنة المالية لمجلس الشيوخ أشياء كثيرة عن هذه النواحى ، والميزانية العامة للدولة تنصب عليها جميعها ، وفى مناقشاتها فرصة للاتصال بكبار المسئولين والقائمين على أمر هذه السلطات على اختلافها وفى السلطة التنفيذية بوجه خاص جوانب كثيرة من إدارات ومصالح وعهد ومخازن ، ومشتريات ومبيعات ، وعاملين على هذه النواحى من أدنى درجات السلم الوظيفى الى أعلاه ، ودفعنى هذا لأن أتعمق هذا البحث وأجمع عنه ما وجدت إليه السبيل من إحصاءات وبيانات ، وعاوننى فى ذلك أخ عزيز وزميل قديم هو الاستاذ (ميريت غالى) وقضينا ثلاث سنوات أو يزيد نبحث ونتناقش ونحلل ونعلل واستقر رأينا على أن نُخرج ما انتهينا إليه من دراسات فى كتاب خاص ، ويوم أن أكتمل إعداده رأيت من الواجب أن أعرضه على السكرتير العام لحزب الوفد وهو المرحوم "محمد صبرى أبو علم" وكنت عضوا فيه ليدلى فيه

برأيه ، وقد تفضل بقراءته ورده إلى قائلا إنه لو فكر يوما أن يكتب فى هذا الموضوع ما صنع شيئا خيرا مما كتبنا . وفي هذا ماشجعنا على أن نتقدم لطبع الكتاب ونشره برغم ظروف الحرب وجو الرقابة السائد ، ولعل ظروف الحرب نفسها كانت من الأسباب التى دفعتنا الى هذا التفكير ذلك لأنا كنا نحاول دائما أن نعد للمستقبل وكنا نتوقع أنه ستواجهنا أمور لانحب أن نفاجأ بها ، وأرسل المخطوط الى الرقيب العام ، وكان صديقا وزميلا قديما فتركت له الوقت الكافى للنظر فى الموضوع ، وطال انتظارى فلم أر بُدًّا من أن استفسر عن الموقف ، وكان الرد سلبيا ، وعز علينا الا يرى النور ما اعددناه من بحث ودرس ، فحاولنا نشره عام ثلاثة وأربعين وتسعمائة وألف فى حدود ضيقة بمبلغ نحو مائة وخمسين نسخة منه على الآلة الكاتبة ، وهى مخالفة ولاشك ، ولكن هدفنا منها كان استطلاع رأى الآخرين فى مشاكلنا الادارية المختلفة ، ورأينا فيما كتبنا شهادة تبرر النشر الذى لجأنا اليه . وكان للكتاب صدى لدى كثير من المعنيين بالشئون العامة من رؤساء حكومات ووزراء حاليين وسابقين وأعضاء فى مجلسى النواب والشيوخ . ولم تَخْفَ المخالفة على وزارة الداخلية التى بعثت برسالة تليفونية إلى المدن والقرى فى القطر جميعه قالت فيها : "ظهر كتاب فى حجم دفتر التليفون بعنوان" الأداة الحكومية" وعلى كل من وقع فى يده أن يقدمه الى عمدة الناحية أو إلى قسم البوليس ، وقامت بالفعل بتفتيش منازل المؤلفين وجاء هذا الاجراء دعاية للكتاب نفسه ، وباعثا على التفكير فى نشره على صورة أوسع ولم يمض عام أو يزيد إلا وطبع الكتاب طبعة واسعة وظهر فى مكتبات مصر وبعض البلاد العربية وتواردت علينا تعليقات كثيرة تدور حوله .

ونعتقد أن هذا الكتاب وضع برغبة صادقة فى الاصلاح ، وروح هادئة فى معالجة مشاكلنا السياسية والادارية والقضائية ، فوجه النظر الى ضرورة سياسة رشيدة ، تخطط وترسم البرامج ، وتلتزم بما تخططه وترسمه . وقيمة الحياة النيابية فيما يتوفر لها من حرية الكلمة ووضوح الرؤية والبعد عن الهدم والمهاترة ، وقد لاحظنا على تجربتنا النيابية فى العقدين الثالث والرابع من هذا القرن انها بُليت بعدوان السراى تارة ، أو عدوان المندوب السامى تارة أخرى ، ولا سبيل لحياة نيابية سليمة الا إنْ توفر لها جو الحرية والاستقرار والعمل الدائب والتوجيه الرشيد .

وزاد الطين بلة أن حق السلطة التنفيذية فى حل مجلس النواب قد أسىء استعماله وكان عاملا من عوامل البلبلة وعائقا عن السير فى طريق البناء سيرا مطردا .

أما السلطة التنفيذية فقد استوقفنا فيها بخاصة أمران : أولهما . المركزية الطاغية التى جمعت كل شىء فى العاصمة الكبرى وفى دواوين الوزارات ، ولم تدع شيئا يذكر لحكام الاقاليم . وفى الدواوين الكبرى نفسها والمصالح الكبرى يكاد يرجع البت فى الأمور صغيرها وكبيرها إلى الرئيس الأعلى ، وقد يصعد ذلك إلى الوزير المختص ، وفى هذا ما فيه من الشلل والبطء ، وتعطيل كفايات كان يمكن الافادة منها ، واعدادها لتولى مسئوليات تضطلع بها وتحسن أداءها . ودعونا الى الحكم الاقليمى أو المحلى ، وتكوين هيئات ادارية فى كل اقليم توجه مصالحه ، وتتتبع شئونه عن قرب ، وتملك البت فيما يعرض عليها . ويسعدنا أنا آمنا بهذا أخيرا ، وأصبحت كل محافظة شبه إقليم مستقل فى حدود

معينة ، ولرئيسها الأعلى أن يعالج أمورها فى استقلال وفى حدود ماتقضى به القوانين واللوائح العامة ، والانتقال من الحكم المركزى الى الحكم المحلى يتطلب إعدادا وتدريبا خاصا أرجو أن نضعه دائما موضوع الاعتبار ، وأن نفسح له المجال لكى يحقق غايته ، ولاشك فى أن الحكم المحلى يُلقى اليوم أعباء كثيرة على الرؤساء المحليين ، وقد لايخلو من محسوبيات أو انحرافات ولكنه برغم هذا جدير بأن نعززه وألا نتراجع عنه بحال .

والأمر الآخر الذى استوقفنا أيضا فى أجهزتنا الحكومية هو : الرقابة والمتابعة وبقدر مايتوفر للقلم أو الفرع أو الادارة أو المصلحة رئيس يقظ يتتبع أمورها يمكن أن نرجو استقامة فى العمل وانتاجا مطردا ، ولدينا الآن أجهزة كبرى لهذه الرقابة والمتابعة كالجهاز المركزى للمحاسبات والجهاز المركزى للتنظيم والادارة ولكنها لاتستطيع بحال أن تحل محل المراقبة المباشرة ، وفى الأربعينيات كانت إداراتنا ومصالحنا فى حدود أضيق كثيرا مما أصبحت عليه اليوم ، واستطاعت بهذا أن تحقق شيئا من الرقابة والمتابعة ، وإن لم تسلم من البطء فى البت واتخاذ القرارات ، وليس بغريب ان يزداد هذا الخلل وذلك البطء فى الستينيات والسبعينيات بعد أن تضخمت اجهزتنا الادارية تضخما كبيرا وتنوعت وتعددت ، ومن التوفيق ان يختار الرجل المناسب للمكان المناسب ، وتطغى أحيانا الحزبية أو الصداقة أو القرابة على الصالح العام فتكل الأمور إلى مَنْ لايُحسن إدارتها والاشراف عليها ، وأذكر حديثا دار بينى وبين المرحوم اسماعيل صدقى قبل اخراج كتابنا الذى نتحدث عنه ، وكان ذلك رغبة فى الافادة

من تجربته الطويلة فيما يتعلق بأثر الرئيس فى مرؤوسيه وقدوته لمن يعلمون معه . وقد قال لى : "اضطلعت بعدة وزارات وتوليت رياسة الحكومة وكنت أشعر دائما أنه إن توفر لكل وزارة وكيل يعرف شئونها ويرعى مصلحة وطنه ، استقامت الأمور وتفرغ الوزراء ورئيس الحكومة لرسم السياسة الكبرى وهذا ما يجب أن يقف عنده الوزير دائما" . وما يقال عن وكيل الوزارة - وهو الرئيس الأعلى للسلطة الادارية فى وزارته - يقال أيضا عن رئيس المصلحة أو الادارة أو القسم أو القلم ، وما أحوجنا أن نعد هؤلاء إعدادا سليما دون محاباة أو عدوان على المجدين والمجتهدين .

ووقفنا قليلا عند السلطة القضائية ، وسعدنا بتعزيز استقلالها ، وإن لم يسلم من عدوان فيما بعد . ولم نسترح الى تعدد أنواع القضاء ، وتنوع المحاكم بين مختلطة وشرعية وأهلية ، ورأينا أنه قد آن الأوان لتوحيد القضاء . ومن حسن الحظ أننا تخلصنا من المحاكم المختلطة فى الوقت المناسب ، ولم ننته إلى التوحيد المنشود بالسرعة نفسها ، وقدر له أن يجد سبيله إلى التطبيق فى الستينيات . ولاحظنا أيضا أن ادارة قضايا الحكومة إن لاءمت العهد الماضى وعاشت مع سلطة المستشار البريطانى فانه قد آن الأوان لأن يحل محلها هيئة أشمل وأعلى تقوم على واجبين مهمين ، أولهما تشريعى يعنى بصياغة مشروعات القوانين الجديدة وملاءمة بعضها البعض الآخر ، والآخر : قضاء إدارى يختص بالفصل فيما يرفع ضد الحكومة من قضايا ومطالبات ، وأصبح مجلس الدولة يؤدى هذين الواجبين وإن أتخم بالتشريعات المتلاحقة التى يتعذر عليه أن يتابعها فى حرص ودقة .

هذه هي الصورة التى بدت أمامنا عن الأداة الحكومية فى الأربعينيات ، وهي صورة كنا نحاول فى معالجتها أحيانا ان نضع أمامنا نماذج من ادارات القطاع الخاص والشركات الكبرى وكنا نتمنى أن تحظى الادارات الحكومية بما تحظى به أجهزة القطاع الخاص من إشراف وضبط ودقة واتقان . وتأبى الظروف إلا أن تؤمم هذه الشركات وأن يمتد إليها مابليت به الادارات الحكومية من الفوضى وضعف الرقابة والتهاون والاهمال .

وسئلنا غير مرة فى الثلاثين سنة الأخيرة هل من سبيل الى أن نعاود النظر فى أمر الاداة الحكومية اليوم ؟ ولم نتردد فى أن نعلن عجزنا وضعفنا عن الاضطلاع بهذا العبء ، وفى وسع الجهاز المركزى للتنظيم والادارة ان يضطلع به ويتولى اقتراح وسائل معالجة النقص فى أجهزتنا الادارية المختلفة . ومعوقات العمل الادارى كثيرة أخصها لوائح بالية ، وتعليمات لاتلائم العصر ومتطلباته ، وتَكَدُّس أعداد من الموظفين فى حيز لايسمح لهم بالعمل والانتاج ، الحق أن أداتنا الحكومية فى حاجة ماسة إلى نظرة متأنية وشاملة نتدارك ، فيها من نقص ، ونأمل على الأقل أن نسلك فى ادارتنا الجديدة النظم والوسائل التى يقتضيها القرن العشرون .

الفصـــل التاســـع :

ديـــوان المحاسبـــة

كنت من المؤمنين بهذا الديوان ، ومن الداعين إليه ، وهو لاشك عين البرلمانيين على ماتقوم به السلطة التنفيذية من أعمال ، وكنت من دعاة إنشاء هذا الديوان ، ويوم أن أنشىء كان من حسن حظ البرلمانيين أن تولى رياسته رجل عُرف بالدقة والنزاهة وأصالة الرأى وسلامة التقدير وهو المرحوم بهى الدين بركات وقد وضع للديوان قواعده وأصوله ، وبدأ فعلاً فى رقابته ، ووافى البرلمانيين بتقريره السنوى ، وحرص مجلس الشيوخ على أن يعنى بهذا التقدير العناية الكافية ، لكى يعزز سلطة هذه الرقابة البرلمانية . وقد تولى بهى الدين هذه الرقابة زمنا . وجاء بعده رؤساء للديوان متلاحقون كان من آخرهم اثناء حياتى النيابية زميل وصديق كريم هو الاستاذ محمود محمد محمود .

وقد كشفت تقارير الديوان عن مخالفات وقصور يستلزم اعادة النظر فى وضع الادارات المالية والحسابية أو فى الأجهزة الحكومية فى جملتها . ومن محاسن الصدف أن رئيس الديوان الأول كان يترفع عن صغائر الأمور ، ويضع النقط على الحروف فيما يتصل بالمخالفات الكبيرة ، والتلاعب أو الاهمال الواضح . ونهج رؤساء الديوان اللاحقون هذا

النهج ماوسعهم ، ولكنى أعترف بأن البرلمانيين وبخاصة فى مجلس النواب لم يعيروا هذه التقارير ماتستحقه من تعهد ورعاية ، وأن يرتبوا عليها ما يمكن أن يقترحوه من نظم أو قوانين ولوائح تعين على الضبط والربط ، واستوقفهم بوجه خاص موضوع "الأسلحة الفاسدة" .

على أننا بعد أن نمت الأداة الحكومية وتعددت أعباؤها ، وزادت الرغبة فى أن تضطلع الدولة بكل شىء تقريبا فى الثلاثين الأخيرة ، أحسسنا بأن هذه الأعباء وهذه المسئوليات تستلزم رقابة أشمل وأوسع ، وانتهى بنا الأمر إلى أن حوّلنا "ديوان المحاسبة" إلى ماسميناه "الجهاز المركزى للمحاسبة" وترتب على ذلك أن نشر الديوان رقابته فى الادارات والمصالح المختلفة ، وحاول أن يقف على كل ادارة أو مصلحة هيئة خاصة بهذه الرقابة ، ولا أستطيع أن أعرض للحكم على هذه التجربة ولكن آمل إن كَشَف مراقب او محاسب من رجال الجهاز عن خطأ عام أن يوجهنا ذلك الى وضع النظم واللوائح أو القوانين إن اقتضى الأمر لمعالجة النقص بصورة حاسمة .

والحق أن الشكوى عامة من بطء الأداة الحكومية ، ومن وجود مخالفات فى بعض اقسامها واداراتها وكم أود أن نقف وقفة جريئة ازاء الجهاز الادارى فى جملته ونعالجه معالجة شاملة فنتخلص من بعض اللوائح والتعليمات البالية ، ونوزع السلطات توزيعا دقيقا على المسئولين المباشرين لأن هؤلاء إن أدوا الأمانة على وجهها أعفوا الجهاز المركزى مما يحاول البحث عنه .

دروس

وقفت نفسى على الحياة النيابية نحو خمس عشرة سنة ، وقليل من البرلمانيين من قدر له أن يمر بهذه التجربة الطويلة . وقد أملت علىَّ هذه التجربة دروسا أحب أن أقف عند بعضها .

١ ـ سبق أن قررت أن الانتخابات النيابية سواء فى المجالس المحلية أو فى الحياة البرلمانية الواسعة فرصة سانحة لتكوين شعبى ونهوض فكرى إن حاول المرشحون أن يتخذوا من الترشيح فرصة للأخذ والرد .. للحوار والمناقشة . وسبق لى أن أفدت من هذه الفرصة فى وقت قل فيه عدد المثقفين والمستنيرين فى قرانا ومدننا ، وما أحوجنا اليوم أن نأخذ بهذا وأن نعقد ندوات متلاحقة فى حملاتنا الانتخابية .

ومضى الزمن الذى كان يُعَوِّل فيه على الصداقة أو القرابة أو النسب ، وما أحوج مرشحينا عمالا كانوا أو فنيين أن يتصلوا بالجماهير وأن يعقدوا ندوات متلاحقة يوضحون فيها مهمتهم ويهيئون الشعب لمتابعتهم فى أعمالهم ، وسبق أن أشرت أن هذه التجربة التى تمت منذ خمسين عاما أو يزيد فى مصنع السكر بالحوامدية كان لها أثر واضح .

٢ ـ لاشك فى أن الحزبية دعامة قوية للحياة النيابية على شريطة أن يكون لكل حزب برنامجه الواضح ورسالته الكاملة ،

وما أجدر هذا البرنامج بأن يكتب وأن يسجل لكى يرجع إليه المرشحون والناخبون على السواء ، وفى وضع هذه البرامج مايحدد مهمة كل حزب ومايعين على ضبط العدد وتحديده ، والبلاد القديمة العهد بالحياة النيابية تقنع كل القناعة بحزبين أو ثلاثة على الأكثر ولاتتسع أبواب الاصلاح والتجديد لأكثر من ذلك .

أنا أومن بحرية التحزب ولكنى لا أوافق على تعدد الأحزاب فى غير مادا عٍ .

٣ ـ تقوم الحياة البرلمانية على أخذ ورد بين الأعضاء والسلطات التنفيذية ، واللجان البرلمانية ميدان فسيح للتقويم والتهذيب وسبيل واضح للربط بين الرقابة البرلمانية والعمل التنفيذى وأخشى ما أخشاه أن تطغى الحزبية العمياء على الحوار والمساءلة وسبيل هذا الحوار هو اللجان البرلمانية وقد عشت فيها زمنا يسمح لى بأن أقرر بأنه يمكن أن يُحل فى اللجنة البرلمانية مالم يحله وزير فى مكتبه ولا رئيس حكومة فى مجلس الوزراء وأحسن الحلول ما جاء وليد تعاون وتبادل وفهم وتحقيق ، وأتساءل حقا هل تؤدى لجاننا البرلمانية رسالتها حق الأداء ؟

٤ ـ من الخير أن تقترب المسافة دائما بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية وأن يكون هناك تعاون صادق بين الطرفين ، وهذا التعاون الصادق لايحول دون المعارضة التى قد تكشف عن أمور لم تعرف من قبل وهدفنا جميعا أن نصل إلى الطريق المستقيم . والمعارضة لمجرد المعارضة لاتحترم الحياة النيابية فى شىء .

٥ ـ وأختم هذه الدروس بتوجيه النظر إلى الجهاز المركزى للمحاسبة والذى كان يسمى قديما ديوان المحاسبة وهو دون نزاع فرع مهم من فروع الرقابة البرلمانية وما أجدر البرلمانيين أن يؤمنوا به وأن يتعاونوا معه وأخشى ما أخشاه أن تصبح رقابته شكلية وصورية دون أن تمهد لتجديد واصلاح فى حياتنا العامة ، وسبق لى أن أشرت أن كتابا اخرجته مع زميل لى وهو الأداة الحكومية انما جاء ثمرة الأخذ والرد فى اللجنة المالية وغيرها من لجاننا البرلمانية لنعلن عن الجهاز المركزى للمحاسبات إعلانا جليا واضحا كي يحس الناس بمهمته ووظيفته .

الباب الرابع :

حياتنا الثقافية

الفصـــل الأول :

ثقافــة القــرن العشــرين

بدأت هزيلة ، محدودة النطاق ، ضيقة الأفق ، ومقصورة على نسبة مئوية صغيرة من جملة السكان ، ولاسبيل لأن نتحدث عن ثقافة شعبية أو جماهيرية فى العقدين الأول والثانى من هذا القرن ، وأدع جانبا القرن التاسع عشر وقد نعمنا فى البداية بوعى ويقظة كنا نود أن يتابعا السير فى اضطراد لكنهما لم يقدر لهما ـ مع الأسف الشديد ـ أن يؤتيا أكلهما على وجه مقبول بعد النصف الأول من هذا القرن ، ولم يتابع أبناء محمد على نهضته الثقافية والعلمية متابعة صادقة ، وجاء الاستعمار البريطانى فشتت الشمل ، ولم يكن حريصا على الحياة الثقافية ، شأنه فى ذلك شأن ألوان الاستعمار ـ بوجه عام ـ التى عرفها التاريخ .

وكان القوامون على هذه الثقافة فى أغلبهم ممن رُبُّوا تربية شرقية فى كتاتيبنا وفى المعاهد الأزهرية ، فلم تتسع آفاقهم لمستحدثات العلم والثقافة العالمية فى الدول الكبرى ، اللهم إلا نفر أتيحت لهم فرصة الاتصال بالغرب ، وحاولوا أن يأخذوا عنه ، وأن ينشروا بعض أفكاره . وفى العواصم الكبرى ـ وبخاصة القاهرة والاسكندرية وأسيوط ـ أنشئت

بعض المدارس الأجنبية ففتحت آفاقا نحو علم وثقافة جديدة . وانشئت بعض المدارس الابتدائية والثانوية الاميرية ، وكان التدريس فيها باللغة الانجليزية ، وهذا هو الذى دفع سعد زغلول يوم أن كان وزيرا للمعارف إلى أن يُعَرِّب التعليم . وبدا في وضوح أن كتاتيبنا ومعاهدنا الدينية لاتكفى وحدها فى خلق جو ثقافي يلائم العصر ، ويتمشى مع متطلباته . واتجهنا نحو ماسميناه "الجامعة المصرية القديمة" التى لو قدر لها أن تعمر طويلا لكانت دعامة وطنية دائمة لحياتنا الثقافية فى القرن الحالى ، ومع هذا انبعثت منها أشعة وأضواء كان لها اثرها فيما تلا العقدين الأولين من هذا القرن .

كانت ثقافتنا العامة إذن فى البداية دينية ولغوية أساسا ، تعنى بالأخذ عن السابقين أكثر مما تعنى بالتجديد والابتكار ، وتردد القولة الشائعة : "ماترك الأول للآخر شيئا" ونزولا عند قانون التطور العام ، وبعد الوقوف على مستحدثات الفكر المعاصر تبينا أن هناك أشياء كثيرة نستطيع أن نستحدثها ، وأن نضيفها الى معلوماتنا السابقة ، وبدأنا نخرج من جمود بُلينا به ، وارتفعت فى الثلاثينيات والأربعينيات راية التحرر والتجديد ، بل وصلنا الى درجة النقد والشك فيما قيل من قبل ، وانتشرت موجة نشيطة تؤيد المنهج "الديكارتى" الذى ينادى بأن الانسان موجود لأنه يفكر ، ومن حقه ان يفكر فى كل شىء ، ونزولا عند هذا التطور اتسعت آفاقنا الثقافية ، وأدركنا أن هناك علوما ومعارف كنا بعيدين عنها ، لاننكر تراثنا ، ولانهمله ، ولكنا نمحصه ونحلله ، ونوازن فيه بين الغث والسمين ، ونعتد كل الاعتداد بقيمه ومقرراته ، واذا كان القدامى قد جادلوا ، ورددوا القولة المشهورة لمالك فى درسه بالحرم المدنى وهى : "مامنا إلا رَدٌّ وَرُدَّ عليه إلا صاحب القبر

هذا" ونعمنا بثقافة خلاقة لاتنكر ما استقر من معارف الماضى ، ولاتتردد فى ان تضيف إليها ماتضيف ، ووصلنا إلى درجة نستطيع معها ان نقول : انه توفر لدينا ثقافة مصرية معاصرة ، متفتحة ومجددة ، وهى إلى جانب هذا مشعة ، ترسل أضواءها إلى العالم العربى والعالم الاسلامى . لكنا فى الستينيات والسبعينيات أحسسنا بنكسة تأبى إلا أن ترجع بنا إلى الوراء ، وترفض كل جديد ومستحدث ، وتصور القديم بصورة عفَا عليها الدهر ، لاتتلاءم مع متطلبات العصر فى شىء . ـ

جمود فى التفكير ، ولدته فى الغالب قيادات ضعيفة ، ودعاة لم يكتمل نضجهم وتفكيرهم ، وامتد شيطان السياسة إلى ميدان الثقافة ، بصبغة رجعية هدامة ، والدعوات السرية التى ظهرت فى العقدين الأخيرين إنما جاءت صدى لذلك كله . ونشك كل الشك فى أن غايتها كانت خالصة لله وللوطن ، ولم تسلم من مؤثرات وسياسات خارجية .

ولا حياة لثقافة حرة سليمة إلا إذا عاشت فى ضوء النهار . وفى جو الحرية الكامل ، وبقدر ما يتوفر لمجتمع ماحظ من هذا الضوء ، ومن تلك الحرية ، تتضح معالم ثقافته ، ويلتف حولها مفكروه وباحثوه ، وللثقافة مقومات وعوامل شتى سنحاول أن نعرض لها تباعا .

الفصــــل الثانى :

بين العاميـــة والفصحـــى

لا حياة لعلم وثقافة بدون لغة تؤديهما ، وتحقق نشرهما على وجه كامل بين الأفراد والجماعات ، والازدهار الثقافى والحضارى يقترنان دائما بالازدهار اللغوى ، وقد استطاعت عربية البادية والصحراء في الجاهلية أن تواجه متطلبات صدر الاسلام والدولة الأموية ، ولاشك فى أن لغة القرآن والحديث قد كستها بكساء أعذب وأرق ، وسارت فى طريق اليسرَ والوضوح والدقة فى القرون التالية .

أخذت العربية عن الثقافات القديمة شرقية كانت أو غربية ما أخذت ، فأفادت من الثقافة الهندية والفارسية ، كما أفادت من الثقافة اليونانية واللاتينية ، واستمر أخذها طوال ثلاثة قرون ، من القرن السابع الميلادى إلى القرن التاسع ، وقامت فى الاسلام حركة ترجمة نشيطة قوية شاملة لاتكاد تجاريها حركة أخرى فى العصور القديمة والقرون الوسطى ، واتسع لها صدر اللغة العربية اتساعا تاما ، وبقدر ما أخذت العربية عن غيرها أعطت ، وربما كان عطاؤها أوسع ، ونستطيع أن نقرر أن العربية كانت لغة العلم الأولى فى العالم طوال أربعة قرون من القرن العاشر الى القرن الثالث عشر الميلادى ،

واتجه الغرب نحوها باحثا عن كنوزها ونفائسها ، وأخذ هو بدوره يترجم من العربية الى العبرية أو اللاتينية ، وفى ضوء هذه الترجمات نشطت الحركة الفكرية فى الغرب من القرن الثالث عشر ، ومهدت لعصر النهضة والتاريخ الحديث ، وتابع العرب والمسلمون درسهم وبحثهم فى علوم الدين واللغة والرياضيات والطبيعيات ، وكان بينهم فلكيون ورياضيون وأطباء لهم منزلتهم بين كبار العلماء والأطباء العالميين فى التاريخ القديم والحديث .

ولم تقف الثقافة الاسلامية عند العربية وحدها ، بل امتدت إلى لغات شرقية أخرى ، وبقيت الثقافة الاسلامية مزدهرة حتى أوائل القرن السابع الهجرى . ثم أخذت تهبط وتتداعى فى القرون التالية ، وقنع الباحثون والدارسون بأن يرددوا أفكار من سبقوهم وأصبحوا تقليديين أكثر منهم مجددين ومبتكرين ، ومالت الثقافة العربية الى الجمود والمحافظة ، ولم تقو على التجديد والابتكار فى الوقت الذى أخذت فيه الثقافة الغربية تسلك سبلا جديدة ، وتضيف الى ماضيها اضافات لها وزنها وفى فجر القرن الماضى بدأنا نشعر بهذا التخلف ، وتولى محمد على حركة نهضة ثقافية وعلمية ، أخذ فيها عن فرنسا ماوسعه ، وكانت بداية وعى ويقظة ، وبذرت بذورا صالحة أضحت مشاعل على الطريق ، وإن توقفت هذه النهضة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وفى فجر القرن العشرين أحسسنا بأن عربيتنا دارجة كانت أو لغة خاصة قد هبطت إلى مستوى لايعزز الثقافة ، ولايعين على النهوض بها . فدخلت فى الدراجة ألفاظ أجنبية من تركية وفارسية ، أو يونانية وإيطالية وفرنسية وانجليزية .

وفى الأمية السائدة فى العقدين الأول والثانى من هذا القرن لم يكن ثمة سبيل هين لتدارك هذا النقص ، اللهم إلا أن يُنشر التعليم نشرا صحيحا وشاملا ، وأن تُيسر سبل القراءة والسماع بلغة أكثر صفاء ونقاء . وعشنا مع الاتراك مددا طويلة ، واختلطنا بهم نسبا ومصاهرة ، وكان لألفاظهم واستعمالاتهم حياة واضحة ، ولاتزال منها بقايا نتندر بها فى مسارحنا واذاعاتنا المسموعة والمرئية .

والذى لاشك فيه ان دارجة اليوم أنقى وأصفى من الدارجة التى عشنا معها فى العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن ، وتقترب العامية باضطراد من لغتنا الفصحى الحديثة ، ولم نحقق بعد كل ما كنا ننشد من محاربة الأمية ، ولكنا نعتقد أن وسائل الاعلام ساعدت على تهذيب اللغة الدارجة وتطويرها ، ومن مستحدثاتنا الأخيرة "الجامعة العمالية" وستصبح الثقافة متاعا شائعا لكل المواطنين . ومهما يكن من أمر رقى العامية وتقدمها ، فإن تلك الدعوة التى رددت زمنا بأن نجعلها لغة الحديث والكتابة معا أصبحت لامحل لها . ولكل مجتمع لغته الدارجة ، والمهم هو ألا تبعد المسافة بين لغة الحديث والكتابة بُعدا يجعل منهما لغتين منفصلتين .

عشت مع لغتنا الدارجة منذ فجر هذا القرن ، وتابعت نموها وتطورها ابتداء من العقد الثالث ، ونحن اليوم نحس بأن الفلاح فى حقله والعامل فى مصنعه يتحدثان بلغة تتلاقى وتتقارب وإن اختلفت فى بعض لهجاتها أو صور نطقها ، إلا ان هذا كله لايسمو بها إلى أن تصبح لغة قومية .

وقد رُمى لطفى السيد ظلما بأنه كان من أنصار العامية ،

والحقيقة أنه كان ينشد تهذيبها وتصفيتها وتقريبها من الفصحى ، وصاحب "الجريدة" فى أوائل هذا القرن حرص الحرص كله على ان تقوم صحيفته على اللغة الفصحى ، وأراد بها أن تكون الفصحى الحديثة الخالية من التعقيد والتركيب والسجع والصور البلاغية الثقيلة ، وأخذت هذه الفصحى الحديثة تنمو وتقوى على أيدى كتاب وأدباء قدموا منها صورا جذابة شيقة ، وهذه الفصحى الحديثة دفعت مستشرقا ألمانيا إلى أن يُخرج معجما فى اللغة العربية المعاصرة هو الاستاذ "فير" وقد عوَّل فيه بخاصة على أقلام لطفى السيد ، وطه حسين ، ومحمد هيكل ، وعباس العقاد ، وأحمد أمين ، ومَن عاصروهم .

هذه الفصحى هى لغة الخاصة ، أو لغة الكتابة التى تقابل لغة الحديث ، وهى بدورها قد حظيت بعناية ودقة وتجديد ، وانتشرت فى البلاد العربية على اختلافها ، وما أجدرها أن تكون لغتنا القومية ، وأصبحنا نمقت الجناس والتشبيه وغريب الألفاظ وثقيل التراكيب ، ونريد لها أن تكون لغة الدارس فى درسه ، ولغة المذيع فى اذاعته ، ولغة الكاتب فيما يقدم من بحوث ومقالات . ونأسف أن موجة جديدة ظهرت فى العشرينيات الأخيرة ، تحاول أن تفسح الطريق للعامية مرة أخرى وبخاصة فى لغة المسرح والاذاعة ، وعذر شباب هذا الجيل الذى يميل الى الدارجة أنه لم ينل حظه من العناية اللغوية الصحيحة فى مراحل تعليمه المختلفة إنْ فى التعليم العام أو فى التعليم العالى والجامعى .

★ ★ ★

هذه هى لغتنا الدارجة ، ولغتنا الفصحى ، وصلتهما معا

بحياتنا الثقافية وثيقة ، ورسالتنا أن نقرب بينهما ما استطعنا ، وأن نهذب الدارجة ماوسعنا ، ونيسر الفصحى ما أمكننا ، وأن نتخذها أداة للتبادل والتعامل فى شئوننا العامة والخاصة ، وأن نعد لها فى البيت والمدرسة وفى النادى والمجتمع الكبير ، وعلينا أن نتقى بخاصة عدوان القوى المستعمرة ، والاستعمار منه سياسى ومنه حضارى وثقافى . وكثيرا ما تتسرب ألفاظ أمريكية إلى لغة السوق والبيت ، وقد نجرها الى لغة الاذاعة والصحافة ، ولست من خصوم التعريب ، ولكنى لا أسلم به الا لضرورة ، ومادام فى العربية لفظ يمكن ان يؤدى المعنى الذى نريده ، فلا يصح ان نتشدق بألفاظ أجنبية .

وسبق لى أن قلت إن الاذاعة المسموعة والمرئية هى مدرسة الشعب ؛ وفى وسعها أن تُقَوِّمَ لغته لفظا ونطقا ، ولاحظنا فى الأشهر الأخيرة انها خصصت فقرة لاصلاح بعض الأخطاء الشائعة فى الاستعمال أو النطق ، واختارت لهذه الفقرة عنوانا سبقها اليه بعض اللغويين هو اصطلاح "قل ولاتقل" . وليتها إلى جانب هذا تحارب اللفظ الأجنبى الذى كثيرا ما ولده التقليد الأعمى ، وولوع المغلوب بمحاكاة الغالب . ونحمد الله أنا لسنا مغلوبين ولكنا ـ وشبابنا بوجه خاص ـ متعجلون ، وفى السوق والمتجر والحياة العامة نزعة إلى "الأمركة" لايليق بنا أن نسير وراءها ، وعلى المدرسة والمعهد والجامعة أن تحارب الدخيل من الألفاظ الأجنبية ، أمريكية كانت أو غير أمريكية ، وأن تأخذ الطفل والشاب بالعربية السهلة الواضحة .

الفصـــل الثالث :

مكافحـــة الأميــة

عمل طويل النفَس ، وجهد متصل يتطلب صبرا وأناة ومتابعة ، وهدف لايتحقق إلا إذا نظمت وسائله وأحكمت سبله ، وقد قطعت فيه الأمم الناهضة أشواطا انتهت بها الى أن تخلصت من هذه المشكلة ، وأصبحت ولاوجود لها فى الدول الكبرى فى أوربا وأمريكا .

وفى العقد الأول من القرن التاسع عشر ، لم نكن نحس تماما بهذه المشكلة ، ووجدنا فى الكتاتيب ما يُمَكِّن نفرا من أبناء القرية أو المدينة من تعلم القراءة والكتابة ، وبقدر محدود ولم تلبث أعباء الحياة المعاصرة أن وجهت نظرنا الى أن القراءة والكتابة ضرورتان من ضرورات هذه الحياة وقديما قال الانجليز : "إن المواطن ـ أى مواطن ـ لابد أن يعرف الراءات الثلاثة" التى تترجم فى لغتهم عن القراءة والكتابة والحساب .

وفى أوائل العقد الثانى قلنا بإلزامية التعليم ، وآمنا بأنه لابد لنا أن ننشىء مدارس ومعاهد تمكن الشباب والناشئة من تعلم القراءة والكتابة ، وقدر من المعلومات العامة فى العلوم الانسانية أو الطبيعية أو الرياضية ، ولكننا لم نوفر وسائل هذا

التعليم فى كل نجع أو قرية ، وأخذ التعليم الالزامى ينمو على مر الزمن ، وإن لم يستوعب قط من هم فى سنه من الأطفال والشباب . ونخطىء إن زعمنا أن مكافحة الأمية يراد بها تعليم الشيوخ والمسنين ممن فاتهم التعليم فى الماضى ، فتلك نافلة يحسن أن نؤديها ، ولكن الواجب الحق هو أن نتعهد الأجيال الصاعدة لكى تتسلح بسلاح العلم والمعرفة .

وبذلت محاولات متلاحقة نحو تعليم القراءة والكتابة لمن فاتهم ذلك في سن مبكرة ، ولكن هذه الجهود على اختلافها لم تخط بنا خطوة يُعْتَدُّ بها ، ويقينا عندنا أمية تصعد إلى نحو ستين فى المئة أو يزيد من السكان ، وليست هذه الأمية مقصورة على الكهول والشيوخ ، ولكن المؤلم فيها أنها تشمل أيضا عددا من الشباب . ولو أحسنا التدبير لاستطعنا خلال جيل أو جيلين أن نقضى على الأمية فى من هم بين الخامسة والثلاثين من العمر ، وهذا هو الفشل الذريع الذى أبتليت به مدارسنا الالزامية والابتدائية ، فقد خرَّجت شبه أميين تعلموا القراءة والكتابة بقدر محدود ، ثم شغلتهم الحياة عن ذلك ، وانضموا إلى صفوف الأميين .

ونقطة البدء فى المكافحة إذن هى مرحلة التعليم الابتدائى والاعدادى أو بعبارة أخرى مرحلة التعليم الأساسى ، ومدتها ثمان سنوات ، ولو قامت المدرسة بواجبها خلال هذه الفترة ولو وفت بحاجة الناشئين جميعا ، لاستطعنا خلال ربع قرن أن نقضى على الأمية البغيضة فى تلك المرحلة من العمر ، وأتساءل حقا : هل استكملت قرانا ونجوعنا وسائل تعليمها بحيث تحقق هذا الهدف المنشود ؟ وهل لى أن آمل فى نهاية القرن العشرين ، وبيننا وبينها نحو عشر سنوات وقد اتخذ

قرار سياسى فى هذا الشأن ، وأملى كبير فى ان يوضع موضع التنفيذ فى وجود ناشئة تجيد القراءة والكتابة دون أن يحرم من ذلك فتى أو فتاة فى البلاد جميعها ، وما أحوجنا أن نرسم سياسة شاملة لتحقيق هذا الهدف ، أما مَن هم فى سن الأربعين ومابعدها فنترك أمرهم لميولهم ورغباتهم الخاصة إن شاءوا ... فالمسألة بالنسبة لهم مسألة زمن سيسوى الحساب على كل حال ، وليس معنى هذا أنى ادعو إلى سد الطريق فى وجه من يريدون أن يتعلموا القراءة من العمال الزراعيين أو الصناعيين ، لكنى أريد فقط أن أواجه المشكلة الحقيقية لما نسميه أمية أبناء الوطن ، ولا سبيل لمحاربة هذه الأمية إلا إذا استأصلناها فى المنبع ... وأملى كبير فى أن نوفق لذلك .

وأميل إلى التفاؤل لأن عامة الشعب أصبحوا يقدرون التعليم حق قدره ، ويبذلون فى سبيله كل مايستطيعون بذله . ومضى الزمن الذى كانت تكتفى فيه أسرة بأن تقف أحد أبنائها على التعليم ... أما اليوم فأبناء الأسرة الواحدة بنين وبنات يتنافسون فيما بينهم لتحصيل قدر من التعليم ، يعدونه السلاح الأمثل لحياة ناهضة مستنيرة .

ومشكلة ابناء القرن العشرين فى حقيقتها ليست مكافحة الأمية ، وإنما الذى يجب ان نعد له العدة ، وأن نتهيأ له بالنسبة للأجيال الصاعدة ، هو ما اصطلحنا على تسميته بالتعليم الأساسى الذى يحقق قدرا من المعرفة لمن يعيشون فى هذا القرن . وكلى رجاء أن تحل مشكلة التعليم الأساسى محل مشكلة مكافحة الأمية ، وأن نعد العدة الكاملة لتهيئة أبناء اليوم فيما بين الخامسة والثالثة عشرة لكى يعيشوا عصرهم ، ويتسلحوا بأسلحته الضرورية .

وسائــل الاعـــلام

نمت فى قرننا هذا نموا عظيما وتطورت تطورا كبيرا . ففى ثلثه الأول كانت موقوفة على الصحافة اليومية أو الاسبوعية أو الشهرية . ثم أخذت الاذاعة طريقها إلى الظهور ... ونمت وتنوعت فى الثلثين الأخيرين فبدأت مسموعة ثم انضمت إليها الاذاعة المرئية ، وتربطنا وسائل الاعلام جميعها بوطننا وعصرنا وعالمنا ، وجاءت الأقمار الصناعية أخيرا فمكنتنا من الوقوف على أحداث الدنيا شرقا وغربا بعد وقوعها بساعات ، وبدا العالم صغيرا متصلا اتصالا وثيقا ، ففى الصحافة والاذاعة معا ثقافة وعلم ومعرفة الى جانب الخبر والحدث والاختراع والابتكار . وبفضلها يعيش ابن القرن العشرين فى عصره تمام العيش ، ويتابع أحداثه كل المتابعة .

وللصحافة فى بلدنا تاريخ طويل يرجع الى أخريات القرن الثامن عشر حين بدأ نابليون بونابرت يوزع منشوراته التى كانت أشبه ما تكون بالصحافة اليومية ، وتعهدها محمد على فى أوائل القرن التاسع عشر ، وإن تلكأت حركتها على أيدى من جاءوا بعده من أبنائه ، وقد بدأت بَدْءاً حقيقياً فى أخريات القرن الماضى ، وعلى أيدى القطاع الخاص ، ثم سارت

الهوينى فى العقدين الأولين من هذا القرن ، وجاءت الحركات السياسية والحزبية فغذتها ونوعتها . ويعنينا من الصحافة فى بحثنا هذا جانبها الثقافى ، ولاشك فى أن الأقلام التى تواردت عليها كان لها أثرها فى حركتنا الأدبية والفكرية ، وإذا كان قراء الأمس محدودين ومعدودين فقد أصبحوا اليوم آلافا مؤلفة ، ومن صحفنا اليومية ما ناهز توزيعه مليون نسخة وقد يجاوزه أحيانا ولها قراؤها فى مصر وخارجها . وإذا تركنا جانبا القضايا السياسية ومشكلاتها فإنا نعتقد أن من بين صحفنا مايرتبط ارتباطا وثيقا بحياتنا الفكرية والثقافية . وللأهرام فى هذا الميدان شأن وفى أعدادها صفحات تصور الواقع تصويرا صادقا دقيقا ، ومن عصورها الذهبية الفترة التى تولى فيها المرحوم "أنطون الجميل" إدارتها ، وقد كان صديقا وزميلا فى مجلس الشيوخ ومجمع اللغة العربية ، وكم كانت تروقنى كلماته القصيرة الدالة ، فقد كان يؤمن أن القارىء اليوم يكاد يزدحم بقراءات كثيرة . ومن العون له أن يحذف الهدف ، وأن تؤدَّى المعلومات بلغة واضحة ناطقة . وبرغم أن صحيفته كانت ملكا لأسرة خاصة فإنها اكتست بطابع قومى واضح ، ولعل صلتى بأنطون الجميل هى التى وجهت الأنظار نحوى بعد وفاته لكى أقود صحيفته الخالدة ، وعُرضت علىَّ رياسة تحريرها . ولم أتردد فى قبولها إيمانا بأنها تؤدى خدمة ثقافية وإعلامية لها شأنها فيما نرجو ومانَدعو إليه من نهوض واصلاح ، ولكن أبت "السراى" إلا أن تدخل إصبعها حتى فى هذه الشئون الفرعية وكأنما ظنت أنه سيُتخذ من الأهرام سلاح للهجوم والنقد لما يمكن أن يحدث من تصرفات غير سليمة ، ومهما يكن من أمر فإن حرصى على مصلحة أصحا هذه الصحيفة دفعنى إلى أن

احميهم من خصومة ما كان أغناهم عنها . وللسراى معى مواقف أخرى مشابهة .

وإذا كنت قد نوهت بالأهرام فماذاك إلا لأنها ترتبط ارتباطا طويلا بحركاتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وهناك صحف أخرى لم يقدر لها أن تعمر طويلا ، كالسياسة اليومية والاسبوعية وللسياسة الاسبوعية بوجه خاص قَدَمُ صدق فى نهضتنا الفكرية والأدبية .

وقد قامت هذه الصحيفة الى جانب الهلال والمقتطف ، وصحيفتين أخريين كانت لى بهما صلات أوثق وأدوم وهما الرسالة والثقافة ، وكم راقنى من الرسالة أنها كانت تحمل حقا مدلولها فكانت لسان إصلاح ونهوض ينشد الاصلاح لذاته ، ويرى كل مفكر أن يسهم فيه وأن يضع لبنة فى بنيانه دون نظر الى مطمع أو مغنم ، وقدر لهذه الصحيفة نجاح كبير ، بدأت تحت كنف "لجنة التأليف والترجمة والنشر" ثم استقل بها المرحوم "أحمد حسن الزيات" . وكم كان مؤمنا بها ومخلصا لها . وقد تابعتُها منذ عام خمسة وثلاثين بعد عودتى من بعثتى ، وأسهمت فيها ما استطعت حتى عام واحد وخمسين ، وفى عام اثنين وخمسين قدر لها أن تتوقف عن الظهور لأسباب مالية . وكم أسف القراء والمثقفون لهذا التوقف . وأذكر أنى زرت الخرطوم عام ثلاثة وخمسين ، وكان من بين الأسئلة البارزة التى وُجهت الىَّ : أين صحيفة الرسالة ؟ .

ولم يختلف شأن مجلة الثقافة عن الرسالة كثيرا فقد عُمرت زمنا ، وقامت إلى جانب الرسالة تحت إشراف "لجنة التأليف

والترجمة والنشر" ولكنها بدورها عدت عليها العوادى . وأريد أخيرا أن تَبعث من مرقدها ، ولكنها مالبثت أن اختفت بعد أن ظهرت زمنا .

والواقع أن صحافتنا الأدبية والثقافية أسبوعية كانت أو شهرية لم يقدر لها نجاح كبير فى ربع القرن الأخير ، ونافستها صحف أخرى شهرية أو نصف شهرية فى المشرق والمغرب تغذت بكثير من الأقلام المصرية ، وظهرت فى أثواب جديدة أخاذة ، وطغت على صحافتنا الاسبوعية والشهرية ، وما أحوجنا أن نعيد النظر فى هذا ، ونستعيد قيادتنا الصحفية لقراء العربية جميعا . ويخيل إلىّ أن الأمر يتطلب هواية ورغبة لا سبيل لنجاح صحيفة بدونهما .

ثم جاءت الاذاعة المسموعة فى أوائل الثلاثينيات ، فصادفت هوى ، وخاطبت جمهورا أوسع وأشمل ، واجتمع على مائدتها الجاهل والمتعلم ، القارىء والأمى . وقد عددتها بحق مدرسة الشعب المفتوحة للجميع . ولها دون نزاع أثر فى تقويم لغة التخاطب ، وفى تزويد العامة بمعلومات ماكانوا يستطيعون الوصول إليها . وقد خضعت فى البداية لسلطان السياسة والحاكم بخاصة ، ولكنها تحررت فى العقود الثلاثة الأخيرة ، وأفسح مجال الحديث فيها لمن لهم رأى سواء أكانوا مؤيدين أم معارضين . بل راقنى منها أنها اتخذت من تسجيلاتها سبيلا للتظلم والشكوى .. وهى شكوى فى الغالب موجهة نحو المسئولين والمقصرين ممن يتولون أمر شئون العامة إنْ فى الادارة الحكومية أو فى القطاع العام . ومن المطمئن حقا أن تجىء ردود هذه الشكاوى مقنعة ومطمئنة ، وفيها اعتراف بالخطأ أو بالقصور أحيانا وفيها أساسا تسليم

بالحق متى بدا واضحا . وكم يذكرنى هذا بموقف قديم فى العهد الملكى فقد كان لى حديث إصلاحى واجتماعى خالص شئت أن أذيعه ، ولكن احد رجال السراى وهو كريم ثابت رغب فى أن يطلع على الحديث قبل إلقائه ، وكان طبيعيا ان أرفض ذلك ، وأن أمتنع عن التحدث إلى الجماهير .

وفى حياتنا الاجتماعية والاقتصادية جوانب فى وسع المثقفين والمفكرين أن يواجهوها ، وأن يدلوا برأيهم فيها . ويسعدنى اليوم أن الحديث فى اذاعاتنا لايقف عند من له صلة وثيقة بالأدب وصناعة الكلام ، وقد أسهم فى ذلك الاطباء والمهندسون والعلماء والفنانون ، وأدلى كل منهم بدلوه وأشهد أن إذاعاتنا وسّعت برامجها ونوعتها وعودت الجماهير عليها بحيث لاتستطيع أن تضغطها أو تقف إرسالها على أوقات معينة وهذه نقطة كثيرا ما طال فيها الأخذ والرد . وأشير إلى الوقت الضائع وبخاصة من الشباب الذين يجلسون إلى الاذاعة ساعات وساعات ، وأشير أيضا إلى أن الاذاعة صرفتنا عن القراءة نوعا ما . وكل تلك ملاحظات لاتخلو من صدق وصحة ، وسبق لى أن تناولت هذا الموضوع فى حديث خاص مع بعض السادة وزراء الاعلام ، وكنت أميل إلى أن تحدد أوقات إذاعتنا أسوة بما يجرى فى بعض البلاد الراقية ، وكانت معارضته الأساسية مبنية على العادة ، عادة الجماهير ، وكيف نتخلص منها ؟ وكم من عادات سيئة يدفعنا الواجب إلى أن نبرىء الناس منها . وأسعد مجمع اللغة العربية ـ مع هذا ـ أن أسهم فى الاحتفال بالعيد الخمسينى لاذاعتنا المسموعة ، وأفسح لها داره وشهدنا مع الشاهدين بماأدت من خدمات .

واستمتعنا أيضا بالاذاعة المرئية . وهي ولاشك اشد وضوحا وأكثر حيوية تمثل الواقع وتقدمه للنظارة حيا ملموسا ، واضافت الى الاذاعة المسموعة ما أضافت من توجيه وإصلاح أو نقد وتعليق ، وأشادت بذكر بعض كبار القادة والمصلحين ممن أدوا رسالتهم ولاقوا ربهم ، ونظمت ضروبا من الحوار والمحادثة واجهت بها بعض عيوب الماضي ، ودعت إلى تداركها وإصلاحها .

ومن حسن الحظ أنها محدودة الزمن ، وأرجو ألا تزيد في وقتها المقرر خشية أن يختلط فيها الغث بالسمين ، وتلك مشكلة الاذاعة بوجه عام مسموعة كانت أو مرئية ، فقد يطغى فيها الكم على الكيف ، وما أحوجنا الى اختيار دقيق يبعد بنا عن العبث والاسفاف ، فيقوّم ويصلح ، متحاشيا أن يهدم ويفسد .

التأليـــف

لاشك أن الثقافة فى حاجة إلى غذاء مستمر ، يواجه متطلبات العصر ، ويعرض الآراء الجديدة ، وسبيل هذا الغذاء إنشاء وابتكار من المثقفين والقيادات العلمية والفكرية ، فتجيء مؤلفاتهم خطوة إلى الأمام ، ودليلا على النهوض والتقدم . وجرت الثقافات جميعها على أن يأخذ بعضها عن بعض في الماضي والحاضر على السواء ، ومن الخطأ أن نقف بالثقافة عند حدود ضيقة . واعتبارات سياسية ، وهذه هى مهمة المترجمين ، وبقدر ما تقوم الثقافة فى أمة على مايتصل بالحاضر من تأليف وترجمة فإنها تقضى أيضا بأن نرجع إلى الماضي فنحييه ، ونكشف عن كنوزه ، ونفيد مما جاء فيه ، ومن لا ماضي له لا حاضر له ، وهذا مانسميه "إحياء التراث" .

ويعنينا أن نقول كلمة عن التأليف المصرى فى وقتنا الحاضر ، ونلحظ أن ماقمنا به فى العقدين الأولين من هذا القرن كان فى أغلبه نقلا عن الماضي ، ووقوفا عنده ، اللهم الا دعوات صادقة إلى التجديد ومجاراة العصر على نحو ما صنع محمد عبده وبعض تلاميذه ، ولانزاع فى أنه كان لدعوته وحركته أثرها فى نهضتنا الثقافية المعاصرة برغم معارضة المحافظين .

ويطبع كل عصر بطابع خاص على النحو الذى تأخذ به الأقلام وترتفع به الأصوات ، ففى الثقافة الفرنسية مثلا نلاحظ أن القرن السابع عشر الميلادى طبع فى فرنسا بدعوة "ديكارت" ومن تأثر به من الديكارتيين اللاحقين ... ومما يقال عن "ديكارت" بفرنسا فى الناحية الفكرية يمكن أن يقال عن "شكسبير" بانجلترا فى الناحية الأدبية ، وعلى غرار هذا نلاحظ أن فى العقود الثلاثة من العشرينيات إلى الأربعينيات قد طبعت حركتنا الثقافية بأقلام ومؤلفات كان لها صداها وتوجيهها أمثال مؤلفات طه حسين وهيكل وأحمد أمين وعباس العقاد ، وفضل هؤلاء جميعا يتلخص فى أنهم لم يكتبوا فقط لظاهرة عابرة ، أو لحدث خاص أو لفكرة طارئة ، وإنما كانوا يكتبون للعصر كله ، وقفوا أنفسهم على نشر دعوات واتجاهات ومبادىء وضحوها وسجلوا فيها آراءهم ، فبقيت مرجعا لأبناء القرن العشرين ، ولمن يجيئون بعدهم ، وهذه هى حقيقة التأليف الذى تتميز به ثقافة عن أخرى ... ولانزاع فى أن المقالات الصحفية ، والمحاضرات الجماهيرية إسهام فى الغذاء الفكرى والثقافى ، ولكن أثرها يزول بزوال ظروفها ومناسباتها ، ولاحياة لها إلا إن سجلت فى بحث مدعم ودرس كامل .

وللحياة الجامعية شأن كبير فى الغذاء الثقافى إن وقف الجامعيون أنفسهم عليه ، وإن عنوا به ، وإن اتسعت أوقاتهم للتعمق والدرس . وكان لنا من هذا الطراز جيل أو جيلان ، حملوا الرسالة وأدوا الأمانة ، ثم جاءت الاعارات الخارجية والاسهام فى الحركات التعليمية فى البلاد العربية شرقا وغربا ، فحالت دون المتابعة والتواصل ، وحرمت البحث العميق من أساتذة يعز عليهم فى غربتهم أن يعطوا العطاء

الذى ينشد منهم . ولاشك فى أن الاعارة الخارجية رسالة ما كان ألزم مصر أن تؤديها ، ولكنها باعدت بين بعض الشيوخ وكتبهم ومكتباتهم ، فلم يواصلوا الانتاج ، ولم يتابعوا العطاء .

والدراسات الجامعية فى الماجستير والدكتوراه باب مهم من أبواب الغذاء الثقافى ، والتقدم الفكرى ... وهناك رسائل تعد فاتحة لدعوة جديدة ، وتوجيهها إلى ميادين يجب متابعتها واستكمالها ... وكثير من كبار الاساتذة الجامعيين فى اوربا وأمريكا وفى فرنسا بخاصة إنما بدأوا حياتهم الفكرية والنظرية بتلك اللبنة التى قدموها فى رسالتهم للماجستير أو الدكتوراه ، ثم تابعوا ذلك فيما بعد ... وكان لهم خط سير متصل ومتكامل .

ويسوؤنى أن أقرر أن دراساتنا الجامعية فى ثلث القرن الأخير تعمر بها المكتبات الخاصة ، أو ركن من أركان المكتبات العامة ، فى نسختها الأصيلة ، أو فى طبعة لايكاد يعرفها الناس . وقليل من الرسائل الجامعية ماينشر ويوزع ويكون له سوق بين الباحثين والدارسين ، وطغت المذكرات بدورها على التأليف الجامعى ، وكثيرا ما تذهب هذه المذكرات مع الريح . ولايعنى واضعوها بتعميقها بإخراج مؤلف يعد حجة ، ويمكن الرجوع إليه ، وهذا نقص كبير واضح فى درسنا الجامعى فى ربع القرن الأخير . وأعترف بأن مؤلفين لى فى الفلسفة الاسلامية إنما جاء اصدى لدرس تابعته طوال بضع سنوات فى الدراسات المتخصصة بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

وإذا كان الكتاب العلمى أو الفلسفى غير واضح المعالم

فيما أخرجناه منذ الخمسينيات حتى اليوم ، فإن الكتاب القصصى والروائى من حسن الحظ أصدق تعبيرا ، وأوضح دلالة ، وأغنى مادة ... ورحم الله محمود تيمور وعزيز أباظة ومحمد فريد أبو حديد وأقرانهم الذين غذوا الفن القصصى والروائى بغذاء كانت له ثماره الطيبة على أيدى نجيب محفوظ ورفاقه .

وهناك باب خاص من التأليف ما أحوج المكتبة العربية إليه وهو الموسوعات ودوائر المعارف وقد فكرنا فيه منذ ثلث قرن أو يزيد ، ونعاود هذا التفكير حينا بعد حين د يفوتنا فى الغالب أننا لانقدر أن هذا اللون من التأليف يتطلب جهازا متخصصا ومستقرا . فيزَوَّد بالمراجع والمصادر المختلفة ، ويقوم عليه عدد من الباحثين والمشرفين يفرغون له ، ويرسمون خططه ، ويدعون اليه من هو جدير بالاسهام فيه . ومن الخطأ أن نظن أن موسوعة عربية يمكن أن تعد خلال بضع سنين . وقد زرت يوما عن قصد مؤسسة "لاروس" الفرنسية ، ووقفت على الجهد والزمن والرجال الذين يحملون هذه الرسالة ويتابعونها فى حرص وعناية . ومرت بنا تجربة صغيرة من هذا اللون من التأليف كان من حظى أن أسهمت فيها وهى "الموسوعة الميسرة" ولا أذيع سرا إن قلت إن فكرة هذه الموسوعة بدأت فيما كان يسمى (كولومبيا ديسك) ولكن القائمين عليها استطاعوا أن يتخلصوا من الصورة الأصلية التى وضعت أمامهم ، وأن يُخرجوا موسوعة صغيرة وميسرة على نحو ما يوحي به اسمها ، وقد قضوا فى ذلك بضع سنوات وما ان ظهرت هذه الموسوعة حتى نفدت فى سوق الكتب بعد بضعة أشهر ، وكنا نرجو أن نتوسع فى هذه التجربة فى طبعة ثانية . ونتخذ منها نواة لموسوعة أكبر

وأشمل ، وفكرت الادارة الثقافية بالجامعة العربية فى أن تضطلع بهذا العبء ، ولكن طغى عليها الطابع الاقليمى والنزعة الوطنية ... وبدل أن يجتمع العالم العربى على موسوعة عربية شاملة تنافست الدول العربية فى أن تضطلع كل واحدة منها بالعبء ذاته ، وكانت النتيجة أنه لم يخرج حتى الآن شىء يُعتز به . والعمل الجماعى إن لم يقم على فهم وتعاون صادق لايمكن ان يوصل الى نتيجة يُطمأن إليها .

وأسعدنى أن اتجهت الأنظار أخيرا نحو مكتبة الطفل ، فحاولت أن تتدارك ماسبق للهراوى وكامل الكيلانى أن وجها النظر اليه ، وسارت فيه "دار المعارف" شوطا بعيدا ، فاخرجت للأطفال مكتبة قيمة اشتملت على عدة سلاسل بين مؤلَّف ومترجمٍ ، ثم لم يلبث أن توقف السير فى هذا الطريق ومعلوم أن لكلٍ قراءته التى تلائمه وقدرٌ من الثقافة التى ينبغى أن يعنى بها ، وما أحوجنا إلى مكتبة الطفل فى البيت والمدرسة ، والمكتبات العامة والفرعية فى المدن والأحياء .

وسلكت بعض المدارس الأجنبية مسلكا نموذجيا ما أجدرنا أن نأخذ به فأنشأت ماسمته "مكتبة الفصل" وقدمت لكل فصل ولكل سن ما يلائمه من القراءات الحرة ، وفى هذا تعويد على القراءة أولا ، وتوجيه نحو ألوان الثقافة المختلفة آخرا ، وأستطيع أن أقرر أن لمكتبة الفصل هذه الفضل فى أن حببت أبنائى فى القراءة ، وأن وجهتهم إليها ، حتى فى أثناء الاجازة الصيفية .

وليتنا نوفق لهيئة مستقلة تقوم على هذا اللون من التأليف على نحو ما يصنع "لاروس" مثلا فى مجموعاته المختلفة . ونحن ندعو إلى تغذية التأليف ، ومتابعته فى ميادينه

المختلفة ، لكى نقدم للقراء ألوانا من الغذاء الثقافى يختارون منه مايغريهم أو يلائمهم ...

والدعوة الى التوسع فى التأليف تقترن بدعوة أخرى إلى تعويد النشء على القراءة ، وتحبيبهم فيها وهذه ناحية كثيرا ما فاتتنا فى مراحل التعليم المختلفة من رياض الأطفال إلى التعليم الجامعى .

ومما يحزن ويزعج فى آن واحد أن يَقنع الطالب الجامعى بالمذكرات التى تقع تحت يده سواء كانت قديمة أم حديثة ، وتبدو غريبة عن موضوعه ، فلايكاد يعرف له مراجع فى العربية أو فى بعض اللغات الأجنبية . نريد أن نؤلف لكى يقرأ الناس فى مختلف أعمارهم ، أما أن تزين المكتبات الخاصة ببعض المؤلفات فذلك ركود وفقر ثقافى .

الفصـــــل السادس :

الترجمـــــة

لم يبق اليوم شك فى عالمية الثقافة ، وما أشبهها بالماء والهواء ، فهى تسير وتنتشر حيث تشاء ، وتفك القيود وتجاوز الحدود ، ويبحث عنها طلابها ما أمكنهم البحث ، وما تهيأت لهم الأسباب ، وفى التنافس المدنى والعسكرى الحضارى والعلمى مايدفع طلاب ذلك التنافس إلى كشف الأسرار ، والوقوف على غريب المبتكرات والمستحدثات ، والثقافة الحية هى التى تأخذ وتعطى ، تقوم على ماضيها ولاتنسى ماضى الآخرين ، وتغذى حاضرها بحيث يصبح هدفا لها وهدفا لطلاب العلم والمعرفة . وفى تاريخ الحضارات الأنسانية مايبرهن على أنه قد أخذ لاحقها عن سابقها ، واستعان طلاب النهوض والتجديد بكل ما يحقق أغراضهم من معطيات الماضى والحاضر على السواء .

ويكفى أن نشير إلى حضارتنا الاسلامية ، فقد قام فيها البحث والدرس على أساس حركة ترجمة لانكاد نجد لها نظيرا فى التاريخ القديم والمتوسط ، وقضى المسلمون نحو قرنين ونصف من القرن الثامن الميلادى الى منتصف القرن العاشر يبحثون عن معطيات الحضارات السابقة شرقية كانت أو

غربية ، من يونانية ورومانية أو هندية وفارسية ، وبعثوا البعوث شرقا وغربا فى جمع ذلك التراث ، وأعدوا العدة لنقله الى العربية ، وكونوا لذلك مدارس متخصصة للترجمة والتعريب ، وأخصها مدرسة حنين بن اسحق فترجموا عن اليونانية كما ترجموا عن السريانية والفارسية ، وترجموا كل مااستطاعوا الوصول إليه فى الأدب والفن ، وفى العلم والفلسفة ، ويوم أن اكتمل لهم زاد وفير من المعرفة بدأوا يبحثون ويفكرون بأنفسهم وعلى طريقتهم ، وأنشأوا مايسمى بحق العلم والفلسفة العربيين . وجاء دور الغرب بعد هذا ، فأخذ عن الحضارة والعلم الاسلامى ماأخذ ، وأصبح من المسلم به الآن أن النهضة الأوربية الحديثة مدينة للحضارة الاسلامية السابقة ، وإذا انتقلنا للتاريخ الحديث والمعاصر وجدنا أن النهضة المصرية المعاصرة بدأت بإرسال البعوث الى فرنسا ، وترجمة كل ما يمكن ترجمته إلى اللغة العربية ، وبدا ذلك واضحا فى أوائل القرن التاسع عشر على أيدى أمثال رفاعة الطهطاوى و نصر الهورينى .

وبذلت محاولات تالية فى الترجمة عن الفرنسية أو الانجليزية ولكنها فى أخريات هذا القرن وأوائل القرن العشرين وقفت فى الأغلب عند جهود فردية ربما فاتها التجويد والتنقيح .

وتستلزم الترجمة السليمة تمكناً من اللغة المنقول عنها واللغة المنقول اليها وتمكناً ايضا من الموضوع الذى تنصب عليه الترجمة ، ومن هنا كان ينقصنا قيام هيئة متخصصة تقوم على أمر هذه الترجمة وتؤديها أداء صحيحا ، ولعل لجنة التأليف والترجمة والنشر قد تنبهت الى هذه المهمة فى

الثلاثينيات وإن تركت أمرها لحرية الباحث واختياره ، وشاءت الادارة الثقافية بالجامعة العربية فى الأربعينيات أن تتجه نحو بعض أمهات الكتب فى الأدب الأجنبى محاولة أن تنقلها إلى العربية ، ولكن هذا التخطيط لم يؤد مع الأسف إلى الغاية التى كنا ننشدها ، ولايفوتنا أن نشير إلى محاولة سابقة قام بها لطفى السيد فى العقد الثانى من القرن العشرين بتوجيهه النظر إلى بعض مؤلفات "أرسطو" وضرورة ترجمتها إلى العربية .

ولنا تجربة أخرى فى هذا الباب ، وهى تجربة "الألف كتاب" وقد بدأت فكرتها فى وزارة المعارف القديمة ، وفى ادارتها الثقافية بوجه خاص د ثم انقطع سير الزمن ، وفكرنا فى ان نعود إليها اخيرا ...

وكنا نأمل أن يكون لحياتنا الجامعية أثر واضح فى هذا الميدان سواء باضطلاع فريق من الجامعيين بنقل بعض أمهات الكتب فى الأدب واللغة ، أو فى العلم والفلسفة ، من الانتاج الفرنسى أو الانجليزى أو الألمانى ، وأخشى ما أخشاه أنا كنا نؤثر التأليف على الترجمة ، ونعد الأول إنتاجا شخصيا فى حين أن الترجمة إن أديت على وجهها نقلت إلينا ثمارا يعز على كثيرين الوقوف عليها فى لغتها الأصلية . ولا أظن أن جامعيا شابا فكر فى أن يترجم نصا من النصوص الأجنبية للعربية مستعينا به للحصول على الماجستير أو الدكتوراه . وما أجدرنا أن ندخل الترجمة فى ميدان الجهود الجامعية والبحوث الأكاديمية . وقد قضيت زمنا لكى أوجه النظر أيضا إلى اعتبار إحياء التراث عملا أكاديميا ينبغى أن

يدخل في قائمة الدراسات التى يضطلع بها شباب الجامعيين . وحياة الترجمة تتوقف على التمكن من اللغة الوطنية ولغة أو أكثر أجنبية ، وهنا نلحظ مع الأسف الشديد أن مجيدى اللغة قليلون ، وأكثرهم لايعرف لغة أجنبية، أما مجيد واللغات الأجنبية فأخشى أن أقول إنهم أصبحوا يعدون على الأصابع وقد كانت لدينا وفرة منهم فى الثلاثينيات والأربعينيات ، والعناية باللغات بوجه عام فى تدهور وتراجع ملحوظ ، ويكفى أن نشير إلى أنا نشكو مر الشكوى من عدم اقبال الشباب على لغتهم الوطنية ، وولوعهم بها ، ورغبتهم فى التمكن منها . وقد أضحت قراءاتهم قليلة ، وإذا بدا لهم أن يقرأوا اتجهوا نحو الخفيف من المكتوب والمنشور ، وكثيرا ما تعجز أقلامهم عن أداء المعنى الذى يريدون توضيحه بلغتهم الوطنية ، ولا سبيل لأن نتحدث عن اللغات الأجنبية ، كالفرنسية والانجليزية والألمانية ، فانها لاتنال العناية التى تستحقها فى مدارسنا الاميرية ، ولم يبق بيننا من مدارس اللغات مايُعوَّل عليه التعويل الكافى الا "الجامعة الامريكية" وبعض المدارس الألمانية ، وحصيلة هذه جميعها دون ماينبغى ، وهى فى الغالب إنما تغذى رجال المال والتجارة .

ومشكلة الترجمة باختصار هى مشكلة اللغات والتمكن منها ، ونهضتنا الثقافية والحضارية والاجتماعية متوقفة على ما يمكن عقده من صلات بيننا وبين شعوب العالم . وقد بدأت فى الكويت منذ بضع سنوات حركة ترجمة تتخير الطريف من العلم والأدب لتنقله إلى اللغة العربية ، وهى تتابع السير وتختار النص الذى يراد ترجمته ، وتكله إلى مترجم متخصص

، ومراجع محقق ، وكأنما شاءت أن تسد فراغا كان على المنظمة العربية للتربية والثقافة أن تضطلع به . ولسنا بهذا نرفض الجهود الاقليمية والمحلية متى أحسنت الاختيار ، وأجادت الترجمة ، وكل جهد نافع فى هذا الميدان يضيف ثروة إلى الثقافة العربية .

الفصل السابع

إحياء التراث

لكل ثقافة تراثها ، ومن لاماضى له لا حاضر له ، وتراثنا المصرى القديم يجتذب الباحثين والدارسين فى أوربا وأمريكا ، وقد بذلت فيه جهود ناجحة للكشف عن مختلف آثارنا المصرية ، ونضطلع نحن بعبء كبير فى هذا المضمار ، ولم يصرفنا ذلك عن العناية بالآثار الرومانية والقبطية والاسلامية .

ويعنينا هنا أن نقف عند تراثنا العربى ، وقد اتجهت مصر نحوه فى أخريات القرن الثامن عشر ... يوم أن عرفت فن الطباعة الحديث ، وتابعت السير فى القرن التاسع عشر جادة أحيانا أو متأنية أحيانا أخرى . واضطلعت بهذا الاحياء مطبعة بولاق "المطبعة الاميرية الآن" ثم جاءت "الكتبخانة المصرية" أو "دار الكتب" فعدَّت هذا الاحياء واجبا من واجباتها ، ووقفت عليه باحثين متخصصين أخرجوا كتبا مثل "الأغانى" و"العقد الفريد" و"صبح الأعشى" وكم كنا نود أن تستمر هذه الدار فى حمل هذه الأمانة وأداء هذه الرسالة ، ولكنها توقفت فى الأربعينيات وحُرمت من المحققين المجيدين .

ويظهر أن وزارة المعارف أحست بهذا النقص ، وفكرت فى

تداركه ، ولكنها لم تخط فى هذا السبيل خطوات ملحوظة ، وشاءت وزارة الثقافة بعد ذلك بنحو ثلاثين عاما تقريبا أن تعود إلى الفكرة فى "دار الكتب" نفسها ، وأن تعد شبابا يضطلع بالتحقيق وإخراج النصوص القديمة وكم كنا نتمنى لهذه التجربة النجاح والتوفيق ، ولكنها مالبثت أن توارت كغيرها من مشروعات أخرى ولانزال مع هذا نعول على الهيئة المصرية العامة للكتاب ومركز تحقيق التراث بها ولها إسهام سابق فى إحياء تراثنا القديم ، وما أجدرها أن تستعيد مجد "دار الكتب المصرية" ولاننسى بعض دور النشر الخاصة "كدار المعارف" أو "مطابع الحلبى" التى حاولت أن تحيى شيئا من تراثنا القديم . والحقيقة أن المحقق المُعَدَّ لاحياء النصوص القديمة والمستكمِل لأسباب ذلك أصبح غير متوافر برغم أنا أنشأنا أقساما لدراسات متخصصة فى هذه الناحية بكليات الآداب . ولعل ذلك راجع إلى أن إحياء التراث لايضمن لصاحبه حياة منتظمة مستقرة ، ومن هنا كانت الجهود الفردية التى يقوم بها أصحابها إلى جانب عملهم الأصلى بواجب إحياء التراث أكثر وضوحا فى ميدان هذا الإحياء .

وأحرص على أن أشير إلى أن المرحوم طه حسين يوم أن كان وزيرا للمعارف رغب فى أن يوجه النظر الى هذا التراث ، فبعث بعثة الى اليمن فى طلب بعض النصوص القديمة وكان لهده البعثة آثارها فيما كشفته من مخطوطات ، وليس بغريب على "عميد الأدب العربى" أن يوجه النظر الى التراث واحيائه وهو الذى سلك فى إحياء ذكرى ابى العلاء مسلكا عمليا بأن تُخْرَجَ مؤلفاته مرة أخرى إخراجا علميا محققا .

وفى ربع القرن الأخير أتجهت أقطار شقيقة نحو تراثنا العربى ، وأخرجت منه ما أخرجت ، وما أحوجنا إلى تنظيم هذا الجهد وتنسيقه منعا للتكرار وتعارض بعض التحقيقات . وهنا أشير مرة أخرى إلى أن فى وسع المنظمة العربية للتربية والثقافة أن تدلى فى هذا الميدان بدلوها فى دور منسق ومنظم ، وقد سبق لها أن اتجهت نحو جمع النصوص العربية المتناثرة فى العالم العربى والاسلامى - وبذلت فى ذلك جهودا لها وزنها - جُمعت فيما سُمِّى "معهد المخطوطات العربية" وكم نود أن يستعيد هذا المعهد نشاطه مرة آخرى ، وأن تُنشأ فيه هيئة تحقيق إلى جانب الجمع واقتناء مختلف المخطوطات . وهناك مظان للمخطوطات العربية القديمة موزعة فى العالم شرقا وغربا ، وفى وسعنا أن نحصل منها على ماننشده عن طريق التبادل والتعاون الثقافى ، وفى مكتبات اسطنبول ثروات أخشى أن قدرا منها لايزال خافيا على الباحثين والدارسين .

ويمكن أن نلاحظ بوجه عام أن جهود القرن الماضى وهذا القرن فى إحياء التراث تكاد تدور بوجه خاص حول الأدب واللغة أو الحديث والتفسير أو التاريخ ، وفى الحضارة الاسلامية ابواب أخرى لم تعالج العلاج الكافى ، ولم يكشف عنها بعد بصورة مرضية . وكان المستشرقون أسبق منا فى توجيه النظر نحو الدراسات العلمية والفلسفية الاسلامية . ومنذ خمسين عاما اتجهت نحو مفكر اسلامى كبير هو ابو نصر الفارابى وكان موضوع رسالتى الصغرى للحصول على الدكتوراه ولاحظت أن مؤلفاته لايزال قدر منها مخطوطا ، وما أخرج ليس على الصورة المرضية ، وصادفنى فى الوقت

نفسه جزء مهم من كتاب "الشفاء" لابن سينا لم ينشر بعد ، وهو الجزء المنصب على المنطق ، وبحثت عن أصوله في مكتبات انجلترا ، وبنيت على المخطوط دراستي . ودفعني كل ذلك إلى أن ألقي نظرة على الجهود التي بذلت لاحياء ذكرى كبار المفكرين في الفرنسية أو الانجليزية ، ووقفت بخاصة عند اعلام القرون الوسطى من المسيحيين أمثال القديس "توما الاكويني" و"البير الكبير" فوجدت أن مؤلفاتهم جميعا قد أخرجت إخراجا دقيقا محكما ، وزينت بها المكتبات العامة والخاصة ، وقد دعوت في دراستي الج اتي اشرت اليها من قبل إلى أنا في حاجة ماسة إلى تدارك هذا النقص ، لاسيما والمدرسة الاسلامية في الفلسفة مجهولة من كثيرين . وليس علماء الاسلام بأحسن حظا من فلاسفته فيما يتعلق بنشر مخطوطاتهم . وهنا أيضا سبقنا المستشرقون إلى هذا الميدان ، وعرفوا لهم قدرهم . واتجه المرحوم الدكتور كامل حسين نحو ابي بكر الرازي الطبيب وحاول ان يحيي شيئا من مؤلفاته ، وما أحوج قراء العربية أن يعرفوا هذا الرازي في نصه العربي كما عرفه الغربيون في ترجماته اللاتينية .

وأسعدني أن الذكرى الألفية لابن سينا دفعتنا إلى إخراج موسوعته الفلسفية وهي كتاب "الشفاء" الذي يشتمل على اثنين وعشرين جزءا قضينا في إخراجها نحو ربع قرن تقريبا ، وحرصت على أن يفتح في هذا الاسهام الباب للباحثين في العالم العربي جميعه ، واشترك فيه بعض المختصين من المشرق والمغرب . والتزم في التحقيق المنهج العلمي الدقيق ، وعول فيه على أكثر من نص ، واستعين احيانا ببعض الترجمات اللاتينية ، وقد ترجم كتاب

"الإلهيات" في نصه المحقق الى اللغة الفرنسية ، ولايبعد أن تترجم اجزاء اخرى الى لغات اجنبية

ووضعت بعثة اليمن تحت نظرنا مؤلفا فريدا ، وهو كتاب "المغنى" للقاضى عبد الجبار شيخ المعتزلة المتأخرين . ومما يؤسف له أنا لم نحصل على اجزاء هذا الكتاب كاملة برغم الحاحنا في طلبها ، ونعتقد أن لدى بعض الشيوخ اليمنيين من جماعة الزيدية أصولا لهذا الكتاب القيم . وبرغم الصعوبات التى صادفتنا ، لم نتردد في أن ننشر ما وقفنا عليه من أجزاء اعتمادا على مخطوط واحد ، آملين أن يكون في ذلك مايعين على استكمال الاجزاء الباقية ، هذا الى ان الفكر المعتزلى فى حاجة الى مزيد من البحث والدرس ، وفى المغنى مادة غزيرة منه ومن حسن الحظ أن جامعة صنعاء باسم التعاون الثقافى قد اعلنت استعدادها للإسهام في اخراج هذا الكتاب مرة أخرى اعتمادا على أصول واضحة قيمة . واذا كنا قد وقفنا عند عَلَمٍ من اعلام المعتزلة فانا اتجهنا ايضا نحو صوفى كبير هو زعيم المتصوفة ذوى النزعة الفلسفية ، وأعنى به ابن عربى وموسوعته "الفتوحات المكية" أكبر وأغزر من موسوعة "الشفاء" . وقد أخرجنا منها حتى الآن أحد عشر جزءا ، وبين أيدينا أجزاء أخرى محققة لاتزال تحت الطبع ، ونحرص كل الحرص على أن تستكمل اجزاؤه في تحقيق أَخَذَ بمنهج قويم ودراسة مقارنة شاملة . والطلب على هذا الكتاب شديد فى العالم الاسلامى جميعه ، واذكر انى زرت فى "ماليزيا" صديقا وجدت فى مكتبته الاجزاء الأولى من هذا التحقيق ، وسألته هل ترجع اليها ؟ فاجاب يكفينى أن أشاهدها . ولاأدل على هذا الاقبال من أن الأجزاء الأولى نفدت وأعيد طبعها مرة أخرى .

نواجه اليوم عبئا اشد واقسى وهو احياء تراث "ابن رشد" العربى الذى شغلت به هيئات علمية فى اوربا وامريكا . وعنيت به زمنا جامعة "هافرد" محاولة ان تخرج مؤلفاته فى نصفها العربى ، وترجماتها اللاتينية والعربية تحت رعاية "الاكاديمية اللاتينية" ، وقد توقف العمل فى هذه الاكاديمية اخيرا بوفاة المشرف عليه . وشاء الاتحاد الدولى للاكاديميات أن يضطلع بهذا العبء ، فعهد الى معهد القديس توما بكولونيا امر النصوص اللاتينية ، ووكل النصوص العربية الى فرنسا واسرائيل ، ثم شاء بعض الباحثين فى اسبانيا ان يضطلع بالنصوص العربية ، وما إن انضم "مجمع القاهرة" الى الاتحاد الدولى للاكاديميات حتى حاول تصحيح هذا الموقف . ورأى الاتحاد ان يوكل الى مصر امر النص العربى ، وقد بدأنا بالفعل فى اخراج رسائل ابن رشد الطبية حول "جالينوس وكتابىّ "الكليات" و"الكون والفساد" وتحت ايدينا نصوص اخرى استكمل تحقيقها . وهنا ايضا نرحب بكل مساهمة فى هذا المضمار ان من مصر او من خارجها فى العالم العربى والاسلامى ، او فى اوربا وامريكا ، واذا كان الدرس الفلسفى قد بدأت فيه خطوات فان المؤلفات العلمية القديمة لاتزال مهملة ، وقد عرف بها بعض المستشرقين عن طريق ما ترجم منها الى اللاتينية ، وما اجدر كلياتنا العلمية واكاديميات البحث العلمى ان تتجة نحو هذا الميدان وهو جدير بالنشر والاحياء . ولطبيب مصرى كبير انتقل الى رحمة الله اخيرا اسهام ملحوظ فى تاريخ العلم العربى واعنى به الدكتور بول غليونجى وقد سبق له ان كشف عن ابن النفيس واشار الى انه اهتدى الى الدورة الدموية الصغرى قبل "هارفى" . واستطاع اخيرا ان يحقق مع زميل له سورى هو

الدكتور سلمان قطاية شرح ابن النفيس لكتاب "التشريح" من تأليف ابن سينا وقد اخرج هذا الكتاب اخيرا وشاء القدر ان ينتزع مراجعه قبل ان يرى بنفسه ثمرة جهوده .

وقد صدر مؤخرا كتاب "المناظر" لابن الهيثم بتحقيق الاستاذ الدكتور عبدالحميد صبره ، هذه صورة مجملة عن جهودنا فى احياء التراث العربى ، وهى جهود تدعو الى متابعة وعناية وبخاصة فى ميدان الدراسات العلمية طبيعية كانت او رياضية .

الفصــــل الثامــن :

بين الأصالة والتجديد

مشكلة دار حولها جدل طويل فى العقود الثلاثة الأخيرة ، هى مشكلة التجديد والأصالة وأولع بها بوجه خاص بعض الكتاب والمفكرين من إخواننا اللبنانيين ، وأتساءل بحق : هل التجديد والأصالة مشكلتنا فى العصر الحاضر فقط ؟ أو هى الانسانية فى تطورها على مر الزمن ؟

ولن أعرض للثقافات القديمة بل اكتفى بأن أقف قليلا عند الثقافة العربية . ولايستطيع أحد أن ينكر أنها - إبان ازدهارها - اتسع صدرها للتجديد ، وأفادت منه ما أفادت ، أخذت عن المشرق والمغرب ، فلم تتنكر للثقافة اليونانية الرومانية ، وسعت فى طلب الثقافة الفارسية والهندية ، واستمسكت مع هذا كله بأصولها المجيدة ، وعرفت كيف تلائم بين الحضارة الاسلامية وما اتصل بها من حضارات أخرى ، والمجتمع الذى ينكر التجديد يسعى نحو الفناء ، ولكن أن يصبح التجديد مجرد بريق لماع لا وزن له ولا ثقل فهذه محاكاة ظاهرية لا أثر لها فى تكوين الأمم . ومما يُلحظ أن كثيرين من دعاة التجديد لم يتوفر لهم زاد كاف من تراثنا القديم ، فلم يتعمقوا فيه ، ولم يفهموه على حقيقته ، ومن هنا

تتجه اقتراحاتهم نحو الانتهاء إلى مسخ أشبه مايكون (بالموضات) فى الزى وغيره التى لاتعمر طويلا .

وإذا كان الحوار يدور حول التجديد والأصالة ، فلابد لنا أن نعرف أولا قيمنا التى نعتد بها ، وأن نضعها فى كفة الميزان ، ثم نقابل بها مايمكن أن ندخله عليها من تجديد ، ولاشك فى أن الحضارة الغربية تعانى اليوم من ذلك السير السريع الذى يكاد يقلب الأوضاع رأسا على عقب ، وفى هذا درس يدعونا الى التأمل والتريث ، وجدير بنا أن تكون حضارتنا لنا ، ومن صنعنا ، نكيفها على حسب ظروفنا ومقدساتنا ، وأصالتنا فيما نعتد به من قيم إن أغفلناها لم يبق لهذه الأصالة أى وزن .

وينبغى أيضا أن تُفهم الأصالة على وجهها ، فليس المراد منها الاستمساك بالقديم لا لشىء إلا لأنه قديم ، ومن القديم ما هو بال ، ومن العبث العودة إليه ، ولو عرفنا قيمنا الاسلامية على حقيقتها لقسنا فى ضوئها كل تجديد بمقياسه السليم .

وأخشى ما أخشاه أنا لانفهم التجديد على حقيقته ، فنريد به كل تقليد أعمى ، وكل محاكاة خداعة ، على أن المجتمع النشيط والنامى لابد له أن يجدد لكى يجارى متطلبات العصر ، ويحقق ماينشده من نهوض وتقدم . وليس بلازم أن يكون التجديد مجرد أخذ عن الغير بل فى وسعنا أن نجدد فى دائرة تقاليدنا ونظمنا د نجدد فيها تجديدا ينبعث منا ومن إدراكنا فنقوّم المعوج .. ونرفض البالى . أخشى ما أخشاه أن يُفهم التجديد على أنه مجرد الأخذ عن غيرنا وهذا صنيع الضعفاء الذين لاينعمون بتفكير مستقل وارادة قوية ... علينا

أن نجدد إن كنا حريصين على أن نساير الزمن . نجدد فيما يتلاءم مع قيمنا ومبادئنا . نجدد فيما يدعو إليه الاصلاح والنهوض بصرف النظر عن مشابهته لعادات أو تقاليد في بلد آخر . إنا نقبل من التجديد كل مافيه اصلاح . أما أن يكون التجديد مجرد "موضات" تطرأ فنحاكيها فهذا ليس من التجديد السليم في شيء . وبالاختصار لابد أن يكون لنا رأي فيما ندعو اليه ونحاول بثه ونَشْرَه من آراء وأفكار .

وليت كلمة الأصالة تُفهم على وجهها ... ويخيل إلى أن هناك فريقا يرى فيها مجرد القديم وإن كان باليا ... وإن كان لايلائم العصر في شيء ... الأصالة قيمة ... وكل ماله قيمة علينا أن نستمسك به سواء أكان قديما أم حديثا ... وإذا كانت للسابقين أصالتهم فعلى الحاضرين أن يحققوا هذه الأصالة بأنفسهم وأن يستمسكوا بما له قيمة ... وأن يأخذوا بما له وزن ... وحينذاك نستطيع أن نعدهم بين الأصلاء .

الفصـــل التــاسع :

الهيئات الثقافية الكبرى

تنوعت هذه الهيئات وتعددت على مر القرن العشرين ، وتخصصت فى بعض الجوانب ، أو فتحت باب الثقافة على مصراعيه ، فمنها ما عنى بالأدب والفن ، ومنها ماوقف نفسه على الاقتصاد والقانون أو العلم والفلسفة ، وسميت بأسماء مختلفة من لجان وجمعيات ، أو أندية ومجالس ، أو مجامع واتحادات . قدر لبعضها أن يعمر ، وأن يتابع السير ، وتوقف بعض آخر فى الطريق أو سمى بأسماء جديدة ، وليس من بينها مايرجع إلى القرن الماضى إلا هيئة واحدة ، ويعنينى أن أقف عند عدد منها كانت لى به صلة ، وحاولت أن أسهم فيه ما استطعت وسأعرض لها على حسب تاريخها الزمنى وأقدمها :

★ المجمع المصـــرى :

ثمرة من ثمار الحملة الفرنسية ، وكأنما شاء "نابليون" أن ينحو بحملته منحى ثقافيا ودراسيا الى جانب أهدافه العسكرية والسياسية ، فأحضر معه أربعين عالما من كبار العلماء الفرنسيين المعاصرين ، وأسس باسمهم هذا المجمع

الذى حرص على أن يكون هو نفسه رئيسا له ، وطلب إلى هؤلاء العلماء أن يدرسوا مصر فى سهلها وجبلها ، فى معادنها وكنوزها ، فى حيوانها وطيورها ، فى نباتها وزرعها . وأخرجت هذه الهيئة المختارة كتابها المشهور "Descrip-tion de l'egypte" ولاشك فى أن هذا الكتاب يعد أثرا ثقافيا ربما كان من أهم الآثار التى خلفتها الحملة الفرنسية إلى جانب حل رموز "حجر رشيد" .

وقد بقى هذا المجمع يتابع عمله إلى اليوم وإن عاش فى الظل ما استطاع ، وعنى بخاصة فى الخمسين سنة الأخيرة بالناحية الأثرية . ومن مميزاته الواضحة أنه كان صورة من صور التعاون بين المصريين والأجانب فى ميدان البحث والدرس ، ومما يؤسف له أن هذه الصورة أخذت فى التضاؤل عاما بعد عام ، وليت هذا المجمع يستعيد سيرته الأولى ، ولو على صورة لقاءات دورية ، أو بحوث موزعة بين أطراف مختلفة وتعقد من أجلها ندوات سنوية ، واجتماع دورى كل عام .

وقد اتصلت بهذا المجمع منذ عشرين سنة مضت ، وآسف أن ظروفى لم تسمح لى بالإسهام فى نشاطه فى جد وعناية أتم ، وفيه مكتبة تشتمل على قدر من الدوريات القديمة التى قد لانجدها فى مكتبة مصرية أخرى ، ومجموعة جديرة بالحفظ والصيانة ، ولعلنا باسم التاريخ وتقديس الماضى نستطيع أن ننشىء لهذا المجمع قسما خاصا مجددا فى المنطقة التى نشأ فيها ، ويسعدنى أن بين اعضائه من يضطلع بالعبء ويؤدى الأمانة ، وهو جدير بأن يحتفظ بالشعلة ويغذيها الغذاء الدائم .

★ الجمعية المصرية للاقتصاد والقانون

ويلى المجمع السابق تاريخيا "الجمعية المصرية للاقتصاد والقانون" وأظنها بلغت الثمانين من عمرها أو كادت . وأذكر أنى أسهمت فى عيدها الذهبى منذ ثلاثين عاما تقريبا ، وقد أحتفل به على صورة لائقة . وهى واحدة من تلك الهيئات المشتركة التى جمعت بين المصريين والأجانب ، وكان للفرنسيين بوجه خاص فيها إسهام واضح ، ولها صحيفة تحرص على أن تظهر بالعربية ولغة أجنبية ، ويشترك فى تحريرها علماء مصريون وأجانب ، وكان لبعض الأساتذة الأجانب الذين قاموا بالتدريس فى كلياتنا الجامعية شأن فى هذا التعاون ، إلا أنه ـ بدوره ـ فى تضاؤل مستمر ، وبرغم أن صلتى بهذه الجمعية قد انقطعت منذ بضع سنين فانى أرجو لها أن تستعيد شيئا من تقاليدها السابقة ، وما أحوجنا فى ميدان العلم والثقافة أن نتعاون ونتبادل البحث والدرس مع الهيئات العلمية المختلفة . وأذكر أنه تولى رياستها فى وقت ما بعض شيوخنا فى القانون والاقتصاد ، وفى مقدمتهم المرحوم "عبد الحميد بدوى" الذى أبى إلا أن يكل إلى أمر سكرتاريتها الدائمة زمنا ، وفى هذه الفترة أقيم العيد الخمسينى الذى أشرت إليه . وكان لهذه الجمعية أنشطة متنوعة أخصها محاضرات متخصصة للباحثين والدارسين باللغة العربية أو بلغات أجنبية . وفيها قاعة للمحاضرات تلائم هذا النوع من الدرس ، ولها مجلة خاصة بها ، وهى من أقدم المجلات الاقتصادية والقانونية . وتجمع بين العربية ولغة أخرى أجنبية كالفرنسية والانجليزية .

هذا ماض عزيز ، وله وزنه [illegible] دار خاصة به ، والفقهاء

والاقتصاديون أولى الناس بتعهد هذه الدار التى أريد انتزاعها يوما لعمل آخر ، واستطعت أن أقنع المسئولين بأنها تؤدى رسالة يجب تقديسها .

★ لجنة التأليف والترجمة والنشر :

قُدر لى فى الثلاثينيات آن آشترك فى لجنة مصرية خالصة آعدها لبنه فى بنياننا الثقافى المعاصر ، وهى "لجنة التأليف والترجمة والنشر" وما كان أجمل ما اشتملت عليه من زمرة ، جمعت بين العلم والعمل واتسمت بحسن التخطيط وصدق العزيمة ، حمل رايتها المرحوم أحمد أمين وضم إليه كل من اطمأن إليهم من الزملاء والأصدقاء ، ووهبها من وقته وجهده ما استطاع ، وقضت نحو ربع قرن فى درس متصل ونشر متلاحق ، جمعت بين العلم والأدب والفن والفلسفة ، تعاون حر طليق ، وانتاج مبعثه إيمان بالرسالة الثقافية وتدعيم لها بشتى الوسائل ، فألفت هذه اللجنة ، وترجمت ، وحققت ونشرت لطلاب العلم عامة ولبعض المتخصصين ، وكان يعنيها أن تغذى شباب الدارسين بغذاء سليم وجذاب . وقدر لى أن أسهم مع زميل لى هو الاستاذ يوسف كرم فى إخراج كتاب مدرسى فى تاريخ الفلسفة لتلاميذ المرحلة الثانوية ، وكان ذلك أول خطوة لادخال تاريخ الفلسفة فى منهج التعليم العام ، وضمت الجمعية إلى التأليف والترجمة صحيفة تحمل اسمها وهى صحيفة "الرسالة" التى كان لها من اسمها نصيب كبير ، وأسعدنى أن أسهمت فى أعداد كثيرة من هذه المجلة التى توقفت عن الظهور عام اثنين وخمسين ، وقدر لى أن أزور الخرطوم فى ذلك التاريخ وكان

أول سؤال وجهه الى المثقفون السودانيون : هو أين الرسالة ؟ وقد بقيت هذه الصحيفة زمنا فى أيدى لجنة التأليف ثم اختص بها المرحوم أحمد حسن الزيات الذى قواها وعززها ، ومع هذا لم تستطع أن تقاوم عدوان الزمن . وأخرجت اللجنة صحيفة أخرى هى "الثقافة" ، وعنوانها هى الأخرى دليل عليها . وقد عُمِّرت ما استطاع خدام الثقافة وعشاقها أن يغذوها ثم توقفت بدورها . ويسوؤنى أن هذه اللجنة أصبحت اليوم أثرا بعد عين ، وتمت تصفيتها النهائية فعلا ، والأمثلة التى قدمتها ثمار واضحة لجهود الأفراد ، وإسهام الدولة فيها محدود . وأعتقد أن "لجنة التأليف والترجمة والنشر" لم تحظ باعانة مالية من هيئة عامة أو خاصة ، وقامت جهودها كلها على سواعد من اضطلعوا بها . وما أشبه هذه اللجنة بوزارة ثقافة أهلية ، أحس أعضاؤها بالحاجة إلى غذاء وأضواء كاشفة فى ميدان العلم والمعرفة ، وقد آمنوا بهذا الميدان الايمان كله ، ولا أظن أن واحدا منهم سعى إلى رزق عن طريق انضمامه إلى هذه اللجنة . ومن محاسن الصدف أنها انتهت إلى تحقيق ربح سنوى كان يوزع على الأعضاء المؤسسين والمساهمين ، وكانت عملية وواقعية فى بدئها ، فاختارت مكانا متواضعا فى شارع "الكرداسى" بحى "عابدين" لم تكن تكاليفه مرهقة ، واتخذت لنفسها مطبعة خاصة لم تكن على المستوى الحديث ولكنها أعانت اللجنة كثيرا على أداء رسالتها بأقل التكاليف ، ويخيل الىَّ أن فكرة التأميم ، ومحاولة الدولة ابتداء من عام ١٩٥٢ أن تضع يدها على كل شىء قد سدت الطريق أمام هذه الأعمال العامة وما أشبهها من هيئات لم يكن قصدها الأول تحقيق ربح أو مغنم . إنما كان هدفها خدمة الوطن وأداء الواجب ومن العبث أن يظن أن الدولة كفيلة بأن تتحمل كل العبء . ومن حسن

الحظ أنا بدأنا نحس بالحاجة الماسة إلى الجهود الفردية والجماعية التى تتجه نحو الصالح العام برغبة صادقة ، وعزيمة قوية ، فهل من سبيل لأن نستعيد أمثال هذه الهيئات ؟ وأن تتكون جمعيات ثقافية وعلمية إلى جانب الأجهزة الحكومية ؟ وواجب الدولة أن تعزز هذه الهيئات ، وأن تأخذ بيدها .

★ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب :

فى الخمسينيات بدأت الدولة تفكر فى إنشاء هيئات حكومية تضطلع بأعباء الثقافة ورسالتها وفى مقدمتها مجلسان هما "المجلس الأعلى للعلوم" و"المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية" وكانت صلتى بالمجلس الثانى وثيقة ، حظيت بعضويته منذ إنشائه ، وبقيت فيه إلى أن حل محله مايسمى "المجلس الأعلى للثقافة" ولمجلس رعاية الفنون والآداب تاريخ ما أحوجه أن يسجل على حقيقته ، فقد أختير لعضويته رجال يعد كل واحد منهم رئيس مدرسة فى ميدانه ، رأوا جميعا أن عملهم الأول هو الاسهام فى لجان المجلس إسهاما حقيقيا ، وتغذيتها تغذية كاملة ، وعلى أيدى هذه اللجان أنتج وأثمر ، ومما يؤسف له أن من بين هذا الانتاج مالم يجد سبيله الى النور لقصور فى الميزانية أو الاهمال من جانب المشرفين على التنفيذ ، وأحب أن أقف قليلا عند لجنة كانت لى بها صلة طويلة ووثيقة وهى لجنة "الفلسفة والاجتماع وعلم النفس" . وقد رأت هذه اللجنة فى البداية أن اللغة الفلسفية فى حاجة إلى معجم جديد يحصر مصطلحاتها ، وأخرجت لذلك مشروعا مبدئيا كان

نقطة بدء للمعجم الفلسفى الذى أخرجه "مجمع اللغة العربية" فى الستينيات والى جانب هذا اتجهت هذه اللجنة نحو إحياء التراث الفلسفى فعمدت إلى بعض كبار رجاله لتحيي ذكراهم ، وتنشر ما ينبغى نشره من مؤلفاتهم ، وقد سبقت الادارة الثقافية بالجامعة العربية وعلى رأسها المرحوم "أحمد أمين" إلى إحياء ذكرى ابن سينا ، وأقيم لهذه الذكرى مهرجانات فى بغداد وطهران وباريس ، وهى الذكرى الألفية لفيلسوف إسلامى كبير ، حاولت أن تسهم فيها بلاد أخرى ومن بينها إيران وتركيا ، وقد عنيت مصر بخاصة ـ إلى جانب المهرجان ـ بأن تخرج أكبر موسوعة فلسفية عربية وهى "كتاب الشفاء" لابن سينا . وقد تابعت لجنة الفلسفة والاجتماع وعلم النفس بالمجلس الأعلى هذه المهمة ، وأخرجت أجزاء "الشفاء" جزءا جزءا ، وأسهم فى تحقيقها باحثون مصريون وعرب ، وتقع فى نحو اثنين وعشرين مجلدا ، وكان آخرها كتاب "السماع الطبيعى" الذى ظهر منذ عامين . ولم تقف اللجنة عند ابن سينا بل تابعت مفكرين إسلاميين آخرين على رأسهم الغزالى الذى أقيم له مهرجان كبير فى دمشق ، ووضع فيه كتاب شامل لمؤلفاته ، وأخرجت بعض رسائله . وكم وددنا أن نكوّن مجموعات كاملة لكل مفكر من هؤلاء المفكرين ، وبدأت اللجنة عملا آخر بمناسبة ذكرى مئوية لصوفى كبير هو ابن عربى صاحب "الفتوحات المكية" . ويقع كتابه هذا فى نحو عشرين جزءا . وقد أخرج منها أحد عشر جزءا نفد بعضها بعد ظهوره بسنوات ، ولم تكن صلتى "بالفتوحات المكية" أقل من صلتى بكتاب الشفاء ، وسعدت بأن أنجز كتاب الشفاء فى جملته ، وما أحوجه أن يعاد طبعه مرة أخرى ، أما كتاب الفتوحات

المكية فحبل العبادة فيه طويل ، ويُطَمْئننى أن منهج نشره قد وُضع وَطُبق ، وما على الباحثين إلا أن يتابعوا السير .

وكان للجنة الفلسفة حظ أنها رشحت أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد لأول جائزة من جوائز الدولة التقديرية التى منحها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب . وتم هذا الترشيح فى فترة الوحدة بين مصر وسوريا ، ولم يتردد إخواننا السوريون فى إقراره وإن أبدوا ملاحظات على نزعته المصرية القوية ، ولست فى حاجة أن أقول أن حب الوطن لايتعارض بحال مع الدعوات القومية . والقوميات الناجحة هى تلك التى تقوم على وحدات اجتماعية لكل منها شأنه وكيانه .

واستنت هذه اللجنة أيضا سنة إحياء ذكرى كبار المفكرين والباحثين وما أجدرنا أن نتابع هذه السنة لكى نربط فيها الماضى بالحاضر والقديم بالمعاصر وإذا لم نُحْى نحن أعلامنا فمن ذا الذى يقوم بهذا الاحياء ؟ وهذا مثل من أمثلة ثمار "المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب" وله ثمار أخرى فى لجانه المختلفة .

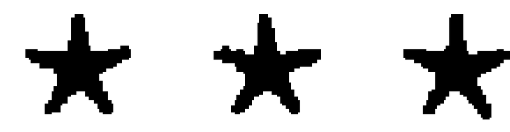
★ المجلس الأعلى للثقافة :

أريد أخيرا أن يحمل المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب اسم "المجلس الأعلى للثقافة" . ولم يكن بد من أن أشترك فى هذه الهيئة الجديدة ، وهى وريثة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ولكنها حتى الآن لم تأخذ تماما بتقاليد المجلس السابق ، ولم تتابع السير على

نهجه ، حقا إن لكل شعبة من شعب هذا المجلس لجانا متخصصة ولكنها ـ مع الأسف ـ لاتعمل بالقدر الذى ننشده ، وحياة الهيئات العلمية إنما تتركز فى أعمال هذه اللجان ، ووظائف المجلس الأعلى للثقافة متعددة ومتنوعة ، وأهدافه هى أهداف المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ففيه شعبة للفنون ، ولها لجانها المختلفة ، وشعبة ثانية للغة والأدب ، وثالثة للعلوم الاجتماعية ويكاد ينحصر عمل المجلس الأعلى للثقافة الآن فيما يمنح من جوائز تشجيعية كانت أو تقديرية ، وليست فكرة الجوائز مستحدثة فى هذا المجلس فقد سبقه اليها "المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب" وكانت تعد مهمة لها شأنها إلى جانب رسالة المجلس الأصلية . وكم أود أن يستعيد المجلس الأعلى للثقافة تقاليد لجان البحث والترجمة والتأليف والنشر والتحقيق ، وبذلك تستطيع هذه الهيئات العامة أن تضطلع بما لايقوى الأفراد على أدائه ، وأخشى ما أخشاه أن يحول نقص الاعتمادات المالية دون أداء هذا المجلس لرسالته العلمية والثقافية ، وفيه رجال جديرون برفع راية العلم والمعرفة ، وتحقيق قيادة فكرية لها وزنها .

وكثيرا ما تحدثنا عن موسوعة عربية ، وشكلنا لذلك لجانا ، لكنا لم نضع الفكرة حتى الآن موضع التنفيذ الجاد ، وكان فى وسع المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب متعاونا مع المجلس الأعلى للعلوم أن يرسم خطة هذه الموسوعة ، وأن يخطو فى سبيلها الخطوات الأولى ، ولايزال الأمر صادقا بالنسبة للمجلس الأعلى للثقافة وأكاديمية البحث العلمى ، وقد حاولت لجنة "الفلسفة والاجتماع وعلم النفس" أن تضرب فى هذا الميدان مثلا ، فاتجهت نحو إخراج "معجم اعلام الفكر

الانسانى" بصرف النظر عن أوطانهم وجنسياتهم ، وقد أُخرج من هذا المعجم جزؤه الأول ، وكنت حريصا على إخراجه لكى يمهد الطريق للأجزاء التالية ، ولست أدرى مامصيره اليوم . ومن حسن الحظ أننا عدنا أخيرا إلى فكرة الموسوعة العربية ، وعسانا نخطو فيها خطوات سريعة وإيجابية .



هذه هى هيئاتنا العلمية ، التى كانت لى بها صلة ، والتى اسهمت دون نزاع فى حياتنا الثقافية طوال القرن العشرين ، وانضمت إليها هيئة أخرى أكبر وأوسع وهى "المجالس القومية المتخصصة" كالمجلس الأعلى للانتاج ، والمجلس الأعلى للخدمات ، والمجلس الأعلى للتعليم ، والمجلس الأعلى للثقافة ، وهدفها جميعا أن ترسم الخطوط الكبرى لسياستنا الاقتصادية والتعليمية والثقافية ، وهى باختصار هيئات استشارية لرسم سياسة الدولة ، وجمعت هذه المجالس زمرةً من كبار القادة والمفكرين ، وفى وسع الأجهزة التنفيذية أن تفيد من بحثها ودرسها ، ولكن الصلة بين الطرفين لم تتضح بعد ، وما أجدرها أن توثق وتؤكد .

الفصــل العــاشــر :

مجمع اللغة العربيــة

من أهم هيئاتنا الثقافية والعلمية ، وهو جدير بأن يُوقَف عليه فصل خاص ، وقد فُكر فيه منذ منتصف القرن الماضى ، وحاول الأستاذ الإمام محمد عبده فى أخريات ذلك القرن ان يُكَوِّن نواة أهلية لمجمع لغوى ، لاسيما وقد كان مؤمنا الايمان كله بأنه وسيلة مهمة من وسائل النهوض باللغة العربية ، ولم يقدر لهذه النواة أن تعمر طويلا ، ثم حاول لطفى السيد فى العقد الثانى من القرن العشرين أن يعيد فكرة هذه الهيئة الأهلية مرة أخرى ، وحرص على أن يكوِّنها من العرب والمصريين ، عقدت عدة اجتماعات فى دار الكتب التى كان مديرا لها ، ثم اعترضت الحرب العالمية الأولى سير العمل ، وأريد بعد انتهاء هذه الحرب إحياء الفكرة ، ولكنها بدورها لم تعمر طويلا . وكان لابد أن ننتظر إلى أول الثلاثينيات من هذا القرن لكى يصدر المرسوم الملكى بإنشاء هذا المجمع .

ولاشك فى أننا متأثرون فى كل هذا بفكرة "الأكاديمية الفرنسية" ولكننا اختلفنا معها فيما يتعلق بتكوين هذه الهيئة ، فقد أردنا بها أن تقوم على أيدى علماء اللغة سواء أكانوا مصريين أم غير مصريين ، فقام تكوينها على أساس موضوعى دون أن تطغى الاعتبارات السياسية والاقليمية على

هذا الأساس ، ويختلف مجمع القاهرة بهذا عن كل المجامع اللغوية التي انشئت قبله أو بعده . وجاء الرعيل الأول من هذا المجمع مكونا من عشرين عضوا ، نصفهم من المصريين ، والنصف الآخر من غير المصريين . وقُسم النصف الأخير قسمة عادلة بين العرب والمستعمرين ، فكان فيه شيخ عراقى هو الأب "أنستاس الكرملى" ، وشيخان سوريان هما عبد القادر المغربى ومحمد كرد على وشيخ لبنانى هو عيسى اسكندر المعلوف وخامس تونسى هو حسن حسنى عبد الوهاب . وكانوا جميعا فى مقدمة أعلام الأدب واللغة فى ذلك التاريخ . أما المستعمريون فكان منهم اثنان من ألمانيا وهما "ليتمان" و"فيشر" وثالث فرنسى هو "لويس ماسينيون" ورابع انجليزى هو "جيب" وخامس إيطالى هو "نللينو" ، وكم كنا موفقين فى هذا الاختيار لأن هؤلاء الخمسة كانوا أئمة الاستشراق فى النصف الأول من هذا القرن . وقد تعاونوا مع زملائهم العرب والمصريين فى رسم خطة العمل ، وَوَضْع لائحته الداخلية التى قامت أساسا على تكوين لجان متخصصة ، كلجنة الأصول ولجنة الأدب ، وتكونت على غرارهما لجان أخرى . وسار عمل هذا المجمع الناشىء فى هدوء طوال خمس سنوات ابتداء من عام ١٩٣٤ إلى عام ١٩٣٩ ، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فحرمت المصريين من زملائهم العرب والمستعمرين ، والأمر الذى دعا عام ١٩٤٠ إلى تغذية المجمع برعيل ثان قام على عشرة أعضاء مصريين دفعوا العمل المجمعي دفعة قوية ، فتوسعوا فى تكوين لجانه . وهنا بدأ على باشا ابراهيم ـ عضو المجمع ـ فى تكوين لجنة للمصطلح الطبى ، وحرص على أن يكون فيها تعاون وتبادل رأى بين المختصين من أطباء العرب جميعا ، واتجه المجمع على أيدى هذا الرعيل الثانى إلى

وضع حجر الأساس لمشروعين كان لهما شأنهما فى العمل المجمعى والنهوض اللغوى ، وهما "معجم ألفاظ القرآن الكريم" و"المعجم الوسيط" وسار العمل فى هذين المعجمين الى جانب أعمال أخرى لغوية وعلمية .

ومما يؤسف له أن باب النشر لم يكن مفتوحا أمام المجمع فى يسر ، فوقفت مجلته عند أعدادها الخمسة الأولى طوال الحرب العالمية الثانية ولعدة سنوات بعدها ، وتوقفت تبعا لها محاضر جلساته ، ولايزال المجمع يعانى من مشكلة الطبع والنشر هذه حتى اليوم ، ذلك لأنه لم يُقدر له أن تكون له مطبعته الخاصة ، الأمر الذى فكر فيه طه حسين ولكنه لم يوضع مع الأسف موضع التنفيذ . وفى ربع القرن الأخير نشطت حركة النشر المجمعى ، فتوالى إخراج مجلته بحيث وصلْنا فيها ألى مايزيد على العدد الرابع والخمسين ، وكان ينبغى أن يصعد العدد إلى أكثر من ذلك بعد أن أتُفق على أن يصدر منها عددان كل عام ، والطاقة الطباعية فى مصر فى حاجة إلى مدد وعون كبيرين .

وانتهى الأمر إلى أن استعان بثلاث هيئات للنشر هى "المطبعة الاميرية" و"دار المعارف" و"الهيئة المصرية العامة للكتاب" وأصبحت مطبوعاته تكون مكتبة متعددة الألوان ، فيها أدب ولغة ، وفيها إحياء لتراث قديم ، وفيها إخراج بعبء لمعجمات لغوية وعلمية . ويكفى أن نشير فى باب إحياء التراث إلى أن المجمع حرص على أن يضطلع بالمعجمات اللغوية ، فأخرج منها كتاب "الجيم" للشيبانى وكتاب "الأدب" للفارابى وكتاب "التكملة والذيل والصلة" للصاغانى و«الأفعال» للسرقسطى ، وكلها كتب لغوية مطلوبة

فى الخارج بدرجة أقوى وأشد من طلبها فى الداخل . ومن المعجمات اللغوية أخرج المجمع معجمه الوسيط الذى ظهر لأول مرة عام واحد وستين ، وأعيد طبعه حتى الآن للمرة الثانية ، وكل ذلك إلى جانب طبعات غير شرعية تظهر فى لبنان عاما بعد عام . وأخرج جزئين من معجمه الكبير ، كما أخرج معجما وجيزا لمرحلة التعليم العام ، وتعددت معجماته العلمية فى الفلسفة والجغرافيا والفيزيقا النووية والفيزيقا العامة والكيمياء والصيدلة .

وأمر آخر يعنينى أن أنوه به ، وهو أن المجمع فى لجانه ومجلسه عول دائما على كبار المختصين من الخبراء الذين كان لهم شأن كبير فى نشاطه وانتاجه ، فهم الذين يربطونه بالحياة العلمية والثقافية الحاضرة ، وهم الذين يغذونه باللغة العلمية والفنية ، وهنا أحب أن أشير إلى أن المجمع فى معالجته للغة العلم لم يقف عند المصطلحات التقليدية قديمة كانت أو حديثة بل عرض لبعض مظاهر النشاط الفنى فى المسرح والسينما ، بل والنشاط الرياضى أيضا ، فعالج مصطلحات الموسيقى ومصطلحات كرة القدم ، وبرهن على أنه يعيش فى عصره ويواجه متطلباته ، وإذا كان بعض الألفاظ الأجنبية قد وجدت سبيلا إلى لغة الحديث ، فان فى إحياء اللفظ العربى وتيسيره على العلميين والفنيين ما يكوّن لغة جديدة عربية سهلة . ولم يقفل المجمع الباب على شىء من التعريب ، ولكنه رسم لذلك حدودا وقيودا معينة .

وللمجمع نشاط آخر حاوله من قديم ، لكى يحبب الشباب والناشئة فى العربية كتابةً وانشاءً وحديثاً ، بدأ منذ أربعين عاما فى وضع جائزة متواضعة لشباب الناشئين ترجمة أو

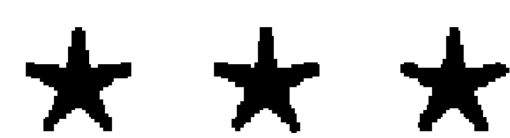
تأليفا ، وعرض موضوعاتٍ للبحث ولم يقف بها عند المصريين بل فتح الباب للعرب جميعا . وإذا كانت ميزانيته لم تسمح بمبالغ كبيرة ، فانها قد وصلت حتى الآن إلى ثلاثة آلاف جنيه للجائزة الأدبية ولاشك أن من أحرزوا هذه الجائزة يوم أن كانت متواضعة ، كانوا سعداء بها كل السعادة وهنا أحب أن أنوه بقصاصنا الأول نجيب محفوظ الذى كنت سعيدا بأن اقترح إجازته منذ أربعين سنة تقريبا . وعلى غرار الجوائز الأدبية قَررت جائزة أخرى لاحياء التراث ، وهي بدورها متواضعة ومقصورة على شباب الباحثين والدارسين ، ومن يدرى فقد يجيء يوم يستطيع المجمع فيه أن يمنح جائزة على غرار بعض الجوائز العالمية .

أما صلة المجمع بالهيئات الأدبية واللغوية والعلمية فى العالم العربى وخارجه فوثيقة ، وتتأكد عاما بعد عام . ويكفى أن أشير إلى أن فيه عشرين كرسيا لعشرين عضوا من غير المصريين ، ويشترك هؤلاء فى مؤتمره السنوى كل عام . وقد وفق أخيرا إلى أن يكوّن اتحادا للمجامع اللغوية والعلمية العربية مقره فى القاهرة ، وهذا الاتحاد همزة وصل بين الأدباء واللغويين فى العالم العربى جميعه . وللمجمع مع هذا صلات بهيئات علمية فى أوربا وأمريكا وآسيا فضلاً عن صلاته بأفريقيا واستراليا ، ويسعده أن يهدى مطبوعاته الى الهيئات العلمية التى يرجى أن تفيد منها ، ويتبادل مطبوعاته مع كثير من هذه الهيئات .

ولايفوتنى أن أشير إلى أن سر نجاح العمل المجمعى وتواصل انتاجه عاما بعد عام يرجع بخاصة الى لجانه التى

نمت على مر الزمن ، وأصبحت نحو عشرين لجنة أو يزيد وهى موزعة على أبواب الثقافة المختلفة الى جانب عنايتها بأصول اللغة ومعجماتها ، ففيها لجان للدراسات الانسانية كالتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والقانون ولجان أخرى للعلوم الطبيعية كالفيزيقا والكيمياء والصيدلة والجيولوجيا والأحياء ، وقد أشرت من قبل إلى لجنة الطب التى كانت من أقدم اللجان العلمية تكوينا وإلى جانبها لجان فى الرياضيات من حساب وهندسة وفلك .

وهذا إلى أن مظاهر الحياة الحضارية من أثاث وفراش وزى وملبس ومسرح وسينما قامت على أمرها لجنة ألفاظ الحضارة ، وفى عطاء هذه اللجان مايغذى المجمع بانتظام فى جلساته الأسبوعبة التى تعقد طوال ثمانية أشهر من العام ، أما اللجان اللغوية فهى تعمل فى صمت ودقة وطول نَفَس ، ومنها لجان وقفت نفسها على المعجمات من وجيز ووسيط وكبير ، وأخرى عنيت بأصول اللغة وقواعدها ، وتيسير كتابتها ، ولهجاتها ، ومايستجد فيها من ألفاظ وأساليب .



قدر لى أن أحظى بعضوية المجمع مع الرعيل الثالث عام ١٩٤٦ ، وكان مكونا من عشرة أعضاء سماهم أحمد أمين فى استقبالهم "العشرة الطيبة" وقد خوطبت فى أمر هذه العضوية قبل صدور قرارها ، ولاحظت أنها مبكرة بعض الشىء بالنسبة لى ، ولكن أبى كرام الخالدين الا أن يضمونى إلى صفوفهم فى وقت كانت الحياة النيابية فى مجلس الشيوخ تشغلنى كثيرا ، واستطعت بعد عام ١٩٥٢ أن أؤدى الضريبة التى قصرت بعض الشىء فى أدائها طوال ست سنوات ، وكم

أسعدني أن أشترك في بعض اللجان المختصة ، كلجنة الفلسفة ، ولجنة المعجم الكبير ، الذى أسهمت مع طه حسين فى رسم منهجه ووضع الخطوط الأولى لبدء العمل فيه ، وأفدت كثيرا من زملاء كرام عشت معهم ، وعاشوا معى طوال أربعين سنة أو يزيد ، وأسعدنى خاصة أننا انتهينا إلى انشاء دار خاصة لمجمعنا بعد أن كان من الرحالة الذين ينتقلون من نجع إلى آخر ، وحبل العمل فى خدمة اللغة طويل وعُدَّته الأولى متخصصون منذ النشأة من الشباب والكهول والشيوخ ، وهذه ناحية آمل أن يستعيد فيها تعليمنا العام والعالي نشاطه القديم ، بحيث يستطيع المجمع أن يجد فى يسر من يُعَوِّل عليه من خبراء ومحررين .

الفصــل الحادى عشــر :

تراثنا الفلسفى الاسلامى

ثمرة من ثمار الحياة الفكرية والثقافية فى العالم الاسلامى ، وقد بدأت هذه الحياة منذ الدعوة الاسلامية فى القرن الأول للهجرة (السابع الميلادى) ، ونمت وازدهرت على مر الزمن ، وبلغت أوجها فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . وتفتحت على الثقافات العالمية الكبرى كاليونانية واللاتينية والهندية والفارسية ، فأخذت وأعطت . وعالجت أبواب المعرفة المختلفة من أدب ولغة وفقه وتشريع وتوحيد وأصول وتاريخ وسياسة . وضمت إلى العلوم الانسانية الطبيعيات والرياضيات .

واستطاع إبن خلدون فى القرن الرابع عشر الميلادى أن يسجل فى مقدمته المشهورة صورة كاملة لهذه الحياة وبقيت هذه المقدمة سندا مهما للباحثين عن الحياة الثقافية فى الاسلام الى اليوم ، ثم جاء أحمد أمين أخيرا فى سلسلة كتبه المتعاقبة من "فجر الاسلام" الى "ضحاه و"ظهره" فأخرج صورة أخرى حية عن هذه الحياة يحس قارئها كأنه يعيش فيها .

وتراث هذه الحياة غزير ومتنوع وموزع بين أركان الدنيا

الأربعة ، كُتب بالعربية والفارسية والأردية والتركية ، وتسابق عليه الهواة فى أوربا وأمريكا فحصلوا على قدر منه ، واستودعوه خزائنهم ومكتباتهم . جاء كله مخطوطا ولم تجد المطبعة سبيلها اليه الا فى أخريات القرن الثامن عشر . وان كانت أوربا قد سبق لها أن طبعت بعض نصوصه العربية ككتاب "القانون" لابن سينا مثلا على أثر ظهور فن الطباعة الحديثة ، ويعنينا منه التراث الفلسفى وهو بدوره غزير ومتنوع ، لايقف عند المدرسة المشائية وحدها بل يجاوزها إلى مدارس عنيت بالفكر وقضايا الفلسفة الكبرى وهى مشكلة الألوهية ومشكلة العالم ومشكلة الانسان .

وقد وجه الاسلام النظر الى هذه المشاكل على اختلافها ، فدعا إلى النظر فى ملكوت السماوات والأرض والبحث عن أسرار الكون وعرض للانسان فى نشأته وسلوكه وبين حقوقه وواجباته ، وتوسعت فى هذا هيئات ومدارس مختلفة يمكن أن ترد إلى جماعة المترجمين ، والفرق الكلامية كالمعتزلة وجماعة المتصوفة والمدرسة المشائية وسنعرض لكل واحدة منها تباعا .

● حركة الترجمة فى الاسلام :

بدأت هذه الحركة فى أخريات القرن الأول للهجرة وعلى أيدى بعض خلفاء الدولة الأموية ولكنها نشطت وأتسع مجالها فى صدر الدولة العباسية وقد عُمِّرت نحو ثلاثة قرون ، وعرضت للثقافات القديمة على اختلافها فنقلت عن الفارسية والهندية ، كما نقلت عن السريانية والعبرية وعن اليونانية واللاتينية ، وبعث المسلمون بعوثا الى المشرق والمغرب سعيا

وراء أصول تلك الثقافات الأجنبية ، واضطلع بالترجمة رجال وقفوا أنفسهم عليها ، وأفسح الخلفاء العباسيون لهم الصدر فعاش المسيحيون إلى جانب المسلمين محاولين ترجمة ماينبغى ترجمته من نصوص وأصول قديمة ، وكان لجماعة النساطرة واليعاقبة والحرانيين شأن فى هذه الحركة النشيطة .

ومدرسة حنين ابن اسحاق تعد العنوان الأول لهذه الحركة وقد اتخذت من دار الحكمة التى أسسها الرشيد مقرا لها ، وكوّنت جيلا من المترجمين كاسحاق بن حنين وحبيش ابن الأعصم وإلى جانب هذه المدرسة يجىء بنو بختيشره الذين ضموا إلى المجد السياسى مجدا ثقافيا وعلميا ، أما الحرانيون فيمثلهم بخاصة ثابت بن قره وبنوه .

اشتغل هؤلاء جميعا بالكتب العلمية والفلسفية ، فترجموا لأفلاطون بعض محاوراته "كالجمهورية" و"طيماوس" و"دفاع سقراط" وترجموا لأرسطو كتبه المنطقية والطبيعية والميتافيزيقية واحتفظ لنا الزمن بترجمة كتبه المنطقية فى مخطوط سمى "الدستور" وحرصت عليه المكتبة الأهلية بباريس ونشر فى مصر أخيرا ، ولتلاميذ أرسطو وأتباعه مؤلفات متلاحقة من مشائى أثينا كالاسكندر الافروديزى أو مشائى الاسكندرية مثل فورفوريوس ، ثاميسطيوس ويحيى النحوى .

ولم يقف مترجمو الاسلام عند الترجمة وحدها بل كانت لهم مؤلفات فلسفية وعلمية تعد الحجر الأساسى فى النهضة الاسلامية . وقد عثرنا على بعض هذه المخلفات وربما هدانا البحث الى مؤلفات أخرى لها شأنها .

وحركة الترجمة فى الاسلام مَثَلٌ حَيٌّ لانجد له النظير فى تاريخ الثقافات القديمة على اختلافها ، عنى به بعض المستشرقين ولم ينل بعد مايستحق من عناية ، وصلته بالنهضة العلمية الاسلامية لاتقل عن صلته بالبحوث الفلسفية .

● المعتـــــزلـــة :

يمثلون دون نزاع المدرسة العقلانية الأولى فى الاسلام ، أفسحوا المجال للعقل وحكَّموه فيما عرضوا له من مشكلات وأخذوا به فى قدر غير قليل مما انتهوا اليه من آراء ونظريات ، وقد سموا بحق المفكرين الأحرار .

نشأت جماعتهم فى أوائل القرن الثانى للهجرة وعُمِّرت أربعة قرون ، ثم تلاشت أو كادت ، ولم يبق لها ذكر الا عند معارضيها من الاشاعرة والماتوريدية ، أو بعض لمحات لدى زيدية اليمن . وكانت نشأتهم بالبصرة ، حيث تتلمذ شيخهم واصل بن عطاء (١٣٠هـ) لأبى الحسن البصرى (١١٠هـ) ، وان كان قد اعتزل عنه آخر الأمر . وعاصره عمرو بن عبيد الذى يعد معه من مؤسسى هذه الجماعة ، وتلاحق مفكرون بصريون آخرون على رأسهم أبو الهزيل العلاف (٢٢٨هـ) الذى يعد المؤسس الحقيقى لهذه الجماعة ، عُمِّر طويلا وبحث وحاور وانضم اليه "النظام" (٢٣١هـ) الذى لم يقل عنه ابداعا وابتكارا ، ومن بين معتزلة البصرة نشير أيضا إلى أبى على الجبائى (٣٠٣هـ) وابنه ابى هاشم (٣٢٠هـ) الذى قضى المرحلة الأخيرة من حياته فى بغداد ، وينضم إلى هؤلاء الجاحظ (٢٥٥هـ) وبشر بن المعتمر (٢٢٦هـ) الذى

أسس فرع المعتزلة في بغداد ونكتفى بذكر علمين من أعلام الفرع هما أبو الحسين الخياط (٣١٨هـ) والقاضى عبد الجبار (٤١٤هـ) .

ودرجنا على أن نسمى هؤلاء جميعا متكلمين ، وعلم الكلام ينصب أساسا على العقيدة الاسلامية ، والبحث فى العقائد ضرب من الدراسات الميتافيزيقية واسهام فى ميدان الألهيات لايمكن أن ننكر طابعه الفلسفى ، على أن جماعة المعتزلة لم يقفوا عند البارىء وصفاته بل عرضوا للوجود والخلق وحاولوا مثلا أن يفسروهما فى ضوء نظرية الجوهر الفرد ، والمحو الى أفكار لم تخل من طرافة كالتولد والطفرة . ولم يَفُتْهم الانسان فعنوا بحرية الارادة ووقفوا عند الثواب والعقاب والخير والشر والقضاء والقدر وكل تلك قضايا تَمُتُّ إلى الفلسفة بنسب .

أما تراثهم فقد كان غزيرا ويحكى مؤرخوهم وأصحاب التراجم شيئا كثيرا عن انتاجهم ، فعدوا بعضه بمئات الورقات وبعضه الآخر بالآلاف . وقفوا كتبا خاصة على مشاكل بعينها ، وكان ابن النديم من أول من وجه النظر إلى هذا الانتاج الغزير فى كتابه "الفهرست" وتابعه من جاءوا بعده كابن خلكان صاحب كتاب "وفَيات الأعيان" وباستثناء ثلاثة منهم هم بالتحديد الجاحظ وأبو الحسن الخياط والقاضى عبد الجبار . نلاحظ أن هذا التراث العظيم لم يصلنا منه شيء يذكر .

وربما كان للخصومة المذهبية شأن فى ذلك . على أن خصومهم لم يترددوا فى أن يسجلوا آراءهم فى أمانة ونزاهة

نلحظها بخاصة لدى الأشعرى فى "مقالات الاسلاميين" ولدى الشهرستانى فى "الملل والنحل" .

ومما يلفت النظر أن واصل بن عطاء وله عدة مؤلفات لم يصلنا منه الا خطبته المشهورة التى اسْتَبْعَدَ فيها حرف الراء ، فاحتُفظ بأدبه وأغفلت دراساته الأخرى .

وبذلت جهود منذ أخريات القرن الماضى وفى النصف الأول من هذا القرن للبحث عن هذا التراث الزاخر ، ولم نهتد إلا لكتاب "الانتصار" للخياط الذى ظهر فى مصر وكتاب "المغنى" للقاضى عبد الجبار وهو يمثل متأخرى المعتزلة بوجه خاص .

وبعثت مصر إلى اليمن بعوثا خاصة للبحث عن هذا التراث ولم تهتد إلا إلى "المغنى" الذى لم يصلنا منه إلا أصول منقوصة وغير واضحة أحيانا ، ومع هذا لم نتردد فى نشره آملين أن يوجه ذلك نظر عشاق الكتب القديمة وجُمَّاعها الى امدادنا ببقية هذا الكتاب أو بمراجع معتزلية أخرى . ولانزال نأمل الكشف عن جديد فى هذا الميدان .

● **الأشاعرة :**

سبق لنا أن لاحظنا أنه حدث فى فجر القرن الثانى للهجرة اختلاف وجهتى نظر بين أستاذ وتلميذه نشأت عنه جماعة المعتزلة ، ذلك أن الأستاذ الحسن البصرى السلفى الكبير كان يُعوِّل أساسا على المنقول فى حين أن تلميذه واصل بن عطاء بدأ يفسح المجال للمعقول . وأصبح التعويل على العقل

شارة حركة الاعتزال باطراد ، ويأبى التاريخ إلا أن يعيد نفسه ، فنلحظ فى فجر القرن الرابع للهجرة اختلافا آخر بين أستاذ وتلميذه على صورة عكسية ترتب عليها قيام المذهب الأشعرى ، ذلك أن أبا الحسن الأشعرى تتلمذ نحو أربعين عاما لأبى على الجبائى إمام المعتزلة فى عصره الى جانب ابنه أبى هاشم ، وأخذ عنه الاعتزال وتعمق فيه ولكنه عدل عنه أخيرا إلى السماع والنقل ورفض قضايا المعتزلة الكبرى حول العدل والتوحيد ، وشارة الاشاعرة الأساسية هى البحث عن السماع والنقل من كتاب أو سنة أو أثر محفوظ وطبقوا ذلك على دراستهم الكلامية طوال سبعة قرون .

وأصبح مذهب الأشاعرة هو مذهب أهل السنة والجماعة . قال به الأشعرى أولا ووضع دعائمه المختلفة ثم أيده من بعده أتباعه على التوالى وفى مقدمتهم أبو بكر الباقلانى (٤٠٣ هـ) وعبد القاهر البغدادى (٤٢٩ هـ) وامام الحرمين (٤٧٨ هـ) وتوالى بعدهم متكلمون آخرون لايسلمون إلا بالنظرية الأشعرية بعد ما أُدخل عليها من تمحيص وتعديل أمثال النسفى (٥٠٨ هـ) وابراهيم اللاقانى (١٠٤٠ هـ) وأحمد الدردير (١١٩٠ هـ) والباجورى (١١٩٨ هـ) بين المعاصرين .

ويؤمن الأشاعرة بوجود صفات للبارىء متميزة عن الذات ويحاولون رد الأفعال كلها إلى الله ولم يتركوا للعبد إلا ماسموه الكسب وهو ربط صورى لايصلح دعامة كاملة للحساب والمسئولية .

وحرصوا دائما على أن يستشهدوا بأدلة سمعية من كتاب

أو سنة ، وقد استن لهم الأشعرى نفسه هذه السنة وبذلوا جهدا كبيرا فى معارضة خصومهم من معتزلة وغيرهم ، ولهم فى ذلك ردود ومناقضات كبيرة بدأها الاشعرى برده على أستاذه أبى على الجبائى ، وكأنما تجاهل الحركة الفلسفية المعاصرة له فلم يقف عند الكندى والفارابى برغم معاصرته لهما ، ويظهر أنه وقف على بعض آراء أرسطو ومؤلفاته وحاول الرد عليها ولكنه لم يُعن بها عنايته بآراء المعتزلة وحاول ثلاثة من كبار الأشاعرة أن يتداركوا هذا النقص وفى مقدمتهم الغزالى الذى وضع كتابه "تهافت الفلاسفة" ناقضا للقدامى منهم والمعاصرين ، وعنى بنقض الفارابى وابن سينا بوجه خاص ، فأكمل حلقة فاتت الأشاعرة السابقين وهو على سعة آفاقه ونظرته العقلية الفسيحة يعد سندا كبيرا للمذهب الأشعرى ، ويليه فى هذا الشهرستانى الذى يمكن أن يعد فيلسوفا بقدر ما هو محسوب بين أئمة الأشاعرة ، وثالثهم فخر الدين الرازى الذى أفسح المجال للفلسفة فى البحوث الكلامية .

وباختصار يمكن أن يقال إن البحث النظرى والدراسات الكلامية الاسلامية كلها بعد القرن السادس للهجرة دارت حول ما قال به الأشاعرة الأول دون إضافة تذكر ، اللهم الا يوم أن جاء الإمام محمد عبده (١٣٢٢ هـ) فى أخريات القرن الماضى ووضع "رسالة التوحيد" ، التى صبغت بصبغة عقلية واضحة وصوّر الدراسات الكلامية بصورة جديدة .

وشيوخ الأشاعرة غزيرو الانتاج وفى مقدمتهم إمامهم أبو الحسن (٣٣٠ هـ) وسار أتباعه من بعده على نهجه فعرضوا للمشاكل الكلامية على اختلافها . كتبوا عنها جملة أو وقفوا

عند بعض قضاياها وقفة خاصة ، واحتفظ لنا الزمن بقدر كبير من تراثهم ، ولاتزال المكتبات العربية والأسلامية تحتفظ بقسط وافر من مؤلفات لها وزنها نذكر من بينها "مقالات الاسلاميين" و"اللُمَع" للأشعرى وكتاب "التمهيد" للباقلانى و"الفَرق بين الفِرَق" للبغدادى و"الارشاد" للجوينى و"المِلل والنِحل" و"نهاية الإقدام فى علم الكلام" للشهرستانى ، وربما قست حملهتم على خصومهم فرموهم بالكفر أو الزندقة ووضعوا كتبا فى فضائح المعتزلة والباطنية ، ولايفوتنا أن ننوه بأن الدرس الأزهرى أعان كثيرا على نشر المذهب الأشعرى وتأييده ، ويكفى أن نذكر "جوهرة التوحيد" للاقانى" أو "الخليدة" للدردير وهما مؤلفان مقصوران على المشاكل الكلامية بلغة الشعر التي يسهل حفظها والتى تفسح المجال لشرح وتعليق عليها . وبقيت هاتان القصيدتان دعامتين للبحث الكلامى فى القرنين الأخيرين .

ولاشك فى أن ماوصلَنا من تراث الأشاعرة أغزر بكثير مما إهتدينا إليه من مؤلفات المعتزلة ومع هذا لايزال فى التراث الأشعرى بقايا ينبغى البحث عنها .

● **المتصوِّفـــــــة :**

تخاطب رسالة السماء القلب والعقل معا ، وتدعو إلى تطهير النفس والبدن ، وفى الكتاب والسنة دعامة قوية لنزعة صوفية قامت فى البدء على النسك والزهادة ، ثم جاوزتهما فى مرحلة تالية الى دراسة أحوال النفس ووجداناتها ، وانتهت بعد ذلك كله الى فلسفة لاتُسَلِّم إلا بوجود البارىء جل شأنه وترد إليه وحده كل ما فى الكون من عجائب ومخلوقات .

فمر التصوف الاسلامى فى مراحل ثلاثة نلخصها فيما يلى :

قامت المرحلة الأولى على الزهد والتخلص من ملذات الحياة . فيهجر المرء الدنيا ، ويتجه نحو الآخرة ، ويستمسك بالطاعات والقربات ، وقضى متصوفوا الاسلام على هذا النحو قرنين ، وزُهَّاد الصدر الأول كثيرون ، نذكر من بينهم الحسن البصرى (١١٠ هـ) على رأس زهاد البصرة ، وابراهيم بن أدهم (١٥٩ هـ) على رأس زهاد بلخ ، ورابعة العدوية (١٨٥ هـ) على رأس زاهدات النساء ، وحاول هؤلاء العُبَّاد أن يتزيوا بزى خاص ، فلبسوا الصوف ، وأتخذوا للعبادة أماكن منعزلة عن الناس ، على غرار الأديرة والصوامع ، ولايكاد يخرج التصوف فى هذه المرحلة عن ضرب من السلوك والقدوة العملية ، التى ترمى الى طهارة الروح والجسد . فهولايعنى كثيرا بدرس أو بحث ، ولايحاول وضع نظرية ولانشر فكرة .

ثم أخذ المتصوفة فى مرحلة تالية يدرسون ويبحثون ، فاتجهوا أولا نحو النفس يكشفون عن أسرارها ، ويبينون أحوالها ومقاماتها ، فتحدثوا عن العشق والشوق ، والخوف والرجاء ، والحب والوَجْد ، والغيبة والحضور ، والفناء والبقاء ، وتعلقوا بالحب الإلهى أيما تعلق وعالجوا أشياء شبيهة بالدراسات السيكلوجية ، وظهرت ثمار ذلك فى القرن الثالث الهجرى على أيدى المحاسبى (٢٤٢ هـ) وذى النون المصرى (٢٤٤ هـ) وانضم اليهما أبو اليزيد البسطامى (٢٦٠ هـ) الذى عنى بحال الفناء وهى أسمى مرتبة يصل إليها المريد ، فتنكشف له الحُجُب ، ويسمو الى مرتبة الفيض والالهام ، ووضع بذلك دعائم نظرية الاتحاد التى تعد قمة التصوف الاسلامى وغاية الوصول الى الله .

وقد قام على هذه النظرية رجلان ، شُغلا بها ولما ينقض القرن الثالث الهجرى وهما الجنيد والحلاج ، فيذهب الجنيد (٢٩٨ هـ) إلى أن المتصوف قد يصل إلى درجة يتحد فيها بخالقه وتفنى شخصيته فى الذات الالٰهية . فيصعد الى عالم النور ، وتتكشف أمامه المغيبات ويخيل الى جلسائه أنه حاضر وهو غائب ، وأنه قريب وهو بعيد ، وغالى الحلاج (٣٠٩ هـ) فى هذه النظرية واتخذ من نفسه وسيلة لاثباتها . فنادى بحلول اللاهوت فى الناسوت ، وزعم أن الولى أصبح الدليل الحى على الله ، بحيث يصبح "هو هو" وانتهى به الأمر أن قال : "أنا الحق" ، تلك القولة التى أدت إلى سجنه وأودت بحياته ، وباختصار يمثل القرن الثالث والرابع الهجريان العصر الذهبى للتصوف الاسلامى .

وفى إثارة هذه المسائل الدقيقة مازاد الصوفية عناية بالابحاث العقلية ، وماوجههم لأن يكوِّنوا فلسفة خاصة بهم ، وظهر بينهم فى الدور الثالث رجال أشبه ما يكونون بالفلاسفة ، وعلى رأسهم السَّهْرَوَرْدى المقتول (٥٨٦ هـ) ومحيى الدين بن عربى (٦٣٧ هـ) صاحب مذهب وحدة الوجود ، وابن سبعين (٦٦٨ هـ) القائل بالوحدة المطلقة . وتابعهم جماعة من شعراء الفرس ، أمثال فريد الدين العطار (٦٢٧ هـ) وجلال الدين الرومى (٦٧١ هـ) وكلهم يرمى الى أن يقيم التصوف على دعائم فلسفية ، فكانت لهم نظريات فى الوجود والمعرفة تقترب كل القرب من نظريات الفلاسفة ، واختلط التصوف بالفلسفة اختلاطا كبيرا ففى القرنين السادس والسابع اكتمل التصوف الفلسفى .

لم يكن القول بالاتحاد الذى ذهب اليه الجنيد ليُرْضِى أهل السنة ، لأنه يؤدى الى الاشتراك فى ذات البارىء جل شأنه ، ولم يرضهم أيضا القول "بالحلول" الذى نادى به الحلاج لأنه يلحق المكانية والجسمية به تعالى ، وقد أشار الأشعرى إلى هذه الآراء الغريبة ، ولم يتردد الأشاعرة فى رفض الاتحاد والحلول معا ولم يقبلوا من التصوف إلا ما اتصل بالزهد والتنسك ورياضة النفس ، وعلى رأسهم أشعرى صوفى كبير هو القشيرى (٤٣٧ هـ) وأيدهم الغزالى فى ذلك كل التأييد ، وبخاصة فى كتابيه "الإحياء" ، و"المنقذ من الضلال" ، فلم ينكر التصوف فى أساسه بل قرر أن هناك عالمين : عالم الظاهر ، وعالم الباطن . واذا كانت الحواس وسيلة ادراك الأول ، فان الفيض والالهام وسيلة إدراك الثانى ، غير أن هذا الفيض لايتم عن طريق اتحادٍ أو حلولٍ وانما هو ضرب من الكشف والمشاهدة ، ولون من المعرفة الذوقية ، يحدث فى حال النوم أو اليقظة لكل مِن أعرضوا عن الدنيا ، وتحلّوْا بأسمى الفضائل ، وقد انقسم المتصوفة تبعا لهذا قسمين : معتدلين متطرفين ، سُنِّيين ومبتدعين ، فتصوُّف الحلاج ومَن جاراه يجاوز دائرة الكتاب والسنة ، فى حين أن تصوف القشيرى والغزالى يتفق مع تعاليم الدين . وكأنما قُدر لأهل السنة من النجاح فى ميدان التصوف ماقدر لهم فى ميدان علم الكلام ، وما إن بدأ القرن السادس الهجرى حتى أخذ التصوف السنى يعدو على التصوف الفلسفى ، وظهر فى هذا القرن علمان من أعلام التصوف السنى قدر لطريقتيهما نجاح كبير فيما بعد ، وهما عبد القادر الجيلانى (٥٦٢ هـ) وأحمد الرفاعى (٥٧٨ هـ) ، ولم يقف أثر الغزالى عند القرن السادس ، بل امتد الى القرون التالية ، واستمر التصوف

السني يغالب شعبة الصوفية الفلاسفة حتى غلبها ، وأصبحت له السيادة في أوائل القرن الثامن . ويتفق الصوفية المتأخرون مع الغزالي في أن التصوف قبل كل شيء دراسة للسلوك ورسم للسيرة الفاضلة ، فلا حاجة به الى نظريات فلسفية دقيقة ولا الى أبحاث نفسية عميقة ، وكل مايعتمد عليه انما هو الطاعة والتقرب إلى الله ، والزهد والإعراض عن الدنيا . وقد يصل الطائع بعبادته الى مالا يصل اليه العالم بعلمه من رضا الله ومحبته ، ولم يكن غريبا أن نرى في القرون الأخيرة أميين يشرفون على الطريق ويتولون قيادة الاتباع والمريدين ، وفي وسعهم ان يصلوا إلى العلم اللَّدُنّي ، واتجهت عنايتهم إلى الأوْراد يلقوننها وحلقات الذكر يديرونها ، وتعددت طرائقهم فرأينا بينها الشاذلية والنقشبندية إلى جانب القادرية والرفاعية ، واتخذت كل واحدة شعارا يميزها عن الطرق الأخرى ، وكان في أحاديث كرامتهم الذائعة ماحبب الخاصة فيهم ، ودفع العامة إلى الالتفاف حولهم . وعلى الجملة عاد التصوف في هذا الدور الأخير الى الصورة التي بدأ بها ، في شيء من المبالغة والاعتداد بالمظاهر والشكليات ، وولوع بالتحزب والطائفية ، وقَلَّ أن نجد فيه بحثا يجاوز آداب السلوك ومكارم الأخلاق ، ويخرج عن سرد بعض القصص والآثار ، هذا إلى جانب شروح وتعليقات على مصنفات المتصوفة السابقين ، كما صنع القاشاني (٧٣٨ هـ) والشعراني (٩٧٢ هـ) في شرحهما لابن عربي ، وكان لابد أن ننتظر الى أوائل القرن العشرين لنرى فلسفة صوفية واعية ومجددة على يَدَيْ محمد إقبال (١٩٣٨م) .

★ ★ ★

وللمتصوفة كالجماعات الأخرى تراث غزير ومتنوع ، وقد

احتفظ التاريخ بمعظمه وتداولَه الدارسون والباحثون ، وعنى به المستشرقون حديثا عناية ملحوظة ، ولم يكن جانبه الفلسفى أقل حظا من الجوانب الأخرى ، فدُرس السهروردى ونشرت بعض مؤلفاته كما درس ابن سبعين على أيد مختلفة .

أما ابن عربى فهو بخاصة الشغل الشاغل لمن عالجوا تاريخ التصوف الاسلامى ، مادته غزيرة وكتبه متعددة ، ولاتزال محل تقدير فى البيئات الاسلامية المختلفة وبخاصة فى آسيا .

● المدرسة المشائية :

هى الممثل الأول للفكر الفلسفى الاسلامى ، بدأت فى القرن الثالث للهجرة فى جو حركة الترجمة النشيطة الشاملة التى وضعت أمام الباحث العربى صورا عن الفكر الفلسفى اليونانى لدى السابقين لسقراط ، ولدى سقراط نفسه وأفلاطون وأرسطو ، وألَمَّت بشيء عن الرواقية وعنيت بمدرسة الأسكندرية فكوَّنت من ذلك كله مددا لمفكرى القرن الثالث من فلاسفة ومتكلمين ، ويُعد الكندى (٢٥٢ هـ) وهو الفيلسوف الاسلامى الأول واحدا ممن عُنوا بالترجمة ، ويُظَنُّ أنه ألَمَّ باللغة السريانية أو اليونانية إلى جانب العربية ، ونُرَجِّحُ أن مهمته اقتصرت على مراجعة بعض النصوص العربية التى نُقلت عن اليونانية أو السريانية . ومن بين المترجمين من كانت له ميول فلسفية واضحة كإسحق بن حنين أو يحيى بن عديّ .

وأسهم نشاط آخر له شأنه فى قيام المدرسة الفلسفية

الاسلامية ، وأعنى به نشاط جماعة المعتزلة ، لقد بلغ هذا النشاط أوجه فى القرن الثالث الهجرى وأثيرت فيه قضايا ومشاكل حول العالم ووجوده وحول البارىء وصفاته وحول الانسان فى قيمه وسلوكه ، وكل تلك أمور تربط الفكر المعتزلى بالفكر الفلسفى ، وكان الكندى نفسه همزة وصل بين الطرفين وفى وسعنا أن نعده متكلما بقدر ما نعده فيلسوفا ، وفى القدر الضئيل من رسائله التى وصلت الينا مايشهد على ذلك ، وسار البحث الفلسفى فى طريقه طوال أربعة قرون ، فأيده فى المشرق فيلسوفان كبيران هما الفارابى (٣٣٨ هـ) وابن سينا (٤٢٨ هـ) ثم انتقل هذا البحث الى الأندلس وقادَهُ مفكرون ثلاثة هم ابن باجه (٥٣٤ هـ) وابن طفيل (٥٨٠ هـ) وابن رشد (٥٩٣ هـ) .

وسبق لنا أن أشرنا الى أن هذا البحث الفلسفى ، قد امتد صداه الى بعض الفرق والمدارس الاسلامية الأخرى كجماعة الأشاعرة والمتصوفة ، وبين هؤلاء مَن أسهم فى الحركة الفلسفية الاسلامية إسهاما واضحا ، ولايفوتنا أن نشير إلى جماعة الشيعة الذين لم يقف بحثهم عند الخلافة وشروطها والدفاع عن علىٍّ وأبنائه ، بل توسعوا فى بحثهم وانتهوا إلى آراء فلسفية لها وزنها وبخاصة عند جماعة الإسماعيلية .

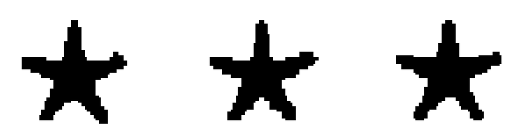
ولم يبق اليوم شك فى أن هناك فلسفة اسلامية لها خصائصها ومميزاتها ، أخذت عن أرسطو ومن أجل ذلك سميت المشائية العربية إلحاقا لها باتباع أرسطو من المشائيين السابقين . ولكنها حرصت على أن تلائم بين العقل والنقل وأن تعنى بقضايا لم تستوقف الفيلسوف اليونانى طويلا كمشكلة الألوهية . وجارته فى منطقه ودراسته

الطبيعية ، وان أضافت إليها ما أسفر عنه بحث علماء الطبيعة المسلمين وتدارك فلاسفة الاسلام ، وبخاصة ابن سينا ، ما فات أرسطو من الدراسات الرياضية والفلكية ، ولهم فى الموسيقى ـ ويمثلها الفارابى خاصة ـ بحوث جاوزت ماعرفناه من التراث اليونانى . وكان لهذه الفلسفة أثرها فى فلسفة القرون الوسطى المسيحية واليهودية ، بل فى مصر فى عصر النهضة الحديث . وعَرفت السوربون بفرنسا وجامعة أوكسفورد بانجلترا ، ابن سينا وابن رشد بقدر ما وقفت عند أرسطو وأتباعه الغربيين .

ازدهر الدرس الفلسفى الاسلامى طوال أربعة قرون أو يزيد ، ثم أخذ يتلاشى بعد حملة الغزالى عليه ، ومنذ القرن السابع الهجرى لانكاد نجد له ذكرا إلا فى حدود ضيقة ولم يُسلَّم بشىء منه الا بالمنطق ، ومن بعض مفكرى هذه القرون المتأخرة من قال بتحريمه . ولم يعد الدرس الفلسفى الاسلامى الى الوجود مرة أخرى فى العالم العربى الا فى القرن العشرين .

ولفلاسفة الاسلام كتب ومؤلفات كثيرة ، منها ما يلخص آراء أرسطو أو يفسرها ، ومنها مايعبر عن آراء هؤلاء الفلاسفة الاسلاميين أنفسهم ، وتراثهم فى هذا غزير ، وان غاب عنا منه حتى الآن قدر غير قليل فللكندى عشرات المؤلفات فى مختلف العلوم والفنون حصرها ابن النديم فى "الفهرست" حصرا تاما ، ولم نقف حتى الآن إلا على قدر قليل منها ، وحظنا من مؤلفات الفارابى أعظم ، وقد أحيا المستشرق "ديترتصى" منها قدرا منذ فجر القرن الحالى "كآراء أهل المدينة الفاضلة" و"الثمرة المرضية فى الرسائل

الفارابية" وللفارابى مؤلفان آخران أخرجا أخيرا وهما "الموسيقى الكبير" . و"كتاب الحروف" . ولابن سينا مؤلفات كتبت بالعربية والفارسية وفيها رسائل صغيرة وكُتُبٌ مطولة وفى مقدمتها كتاب "النجاة" وكتاب "الاشارات" وانتهزنا فرصة ذكراه الألفية فأخرجنا مؤلفه الكبير "الشفاء" إخراجا علميا دقيقا . ويحتاج فلاسفة المغرب إلى عناية أتم وأشمل وبدأنا نحظى بشيء مما خلفه ابن باجه وابن طفيل . أما ابن رشد فقد سبق أن اتجهت إليه أنظار الغربيين لصلته الوثيقة بأرسطو ، شارحا كتبه أو ملخصا فيما سماه "الجوامع" و"التلخيصات" و"التفاسير" وقد ترجم كثير من هذه التعليقات إلى العبرية واللاتينية . وحاولت الأكاديمية اللاتينية بجامعة كامبريدج بالولايات المتحدة أن تمزج قدرا من هذه المؤلفات ، ثم اتجه نحوها أخيرا الاتحاد الدولى للأكاديميات وكوَّن شعبا ثلاثا لإحيائها ، فعنى معهد القديس توما بكولونيا فى ألمانيا اللاتينية وعنيت باريس وتل أبيب بالترجمات العبرية واضطلعت مصر بالأصول العربية .



وبعد فما أغزر تراثنا الفلسفى وما أشد تنوعه وما أكثر مَن شُغلوا به فى فرق ومدارس ، ومن أسهموا فيه من شيوخ وأئمة ، وتراثه باب من أبواب التراث العربى كله ، وقد وجه النظر الى هذا التراث منذ قرن أو يزيد مستشرق ألمانى كبير هو "بروكلمان" الذى حاول أن يحصر المؤلفات العربية فى ضوء ماوقف عليه من مخطوطات ، وبَذَل فى ذلك جهدا يعتد به وإن احتاج إلى شيء من التعديل والتنقيح . وهذا مايضطلع به الآن زميلنا الاستاذ (سيسجين) ، واتجهت الجامعة العربية

منذ زمن الى انشاء "معهد المخطوطات" وخيراً فَعَلَتْ . فبعثت بعوثا إلى المشرق والمغرب باحثة عن أصول الفكر العربي ومراجعه ، وتَوفر لها من ذلك زاد له قيمته ، وقد توقف العمل فى هذا المعهد منذ زمن ، وما أجدرنا أن نعيد اليه نشاطه وأن نتابع البحث والحصول على صور لتلك المخطوطات المبعثرة شرقا وغربا ، ورأينا منذ زمن أن خير سبيل لاحياء ذكرى مفكر من مفكرى الاسلام ان نجمع ما يمكن جمعه من أصول مؤلفاته ، وأن نحاول نشرها على أساس منهج علمي دقيق ، وقد طبقنا ذلك منذ أربعين سنة أو يزيد على الذكرى الألفية لابن سينا التى كان من ثمارها موسوعته الفلسفية الكبيرة وهى كتاب "الشفاء" واقتضى هذا الاخراج أن نرسل وفدا من باحثين كريمين هما الأب جورج شحاتة قنواتى والدكتور مختار الوكيل الى اسطنبول حيث قضيا شهرا أو يزيد فى جمع أصول هذا الكتاب وكان من ثمار ذلك كتاب "مؤلفات ابن سينا" الذى وضعه الأب قنواتى ، وعدنا الى هذا مرة أخرى فى احياء الذكرى المئوية السابعة لابن رشد التى أثمرت كتابا آخر وضعه الأب الكريم وهو "مؤلفات ابن رشد" . وتلك سنة نرجو ان نأخذ أنفسنا بها فى احياء ذكرى كبار مفكرى الاسلام وتخليدهم ، ودعونا أيضا إلى أن يُعد التحقيق العلمى ضربا من البحث الجامعى الذى يُمكن من الحصول على الدرجات الجامعية كالماجستير والدكتوراه ومن حسن الحظ أنه أُخِذ بذلك .

هذا هو السبيل لأحياء هذا التراث وأملنا كبير فى أن يسلكه الباحثون والدارسون وأن يمنحوه كل مايستحقه من صبر وجلد ، وحياة العلم مذكراته .

خاتمـــــــــة

أحرص على أن أقرر أنى إنما حاولت فى هذه الصفحات السابقة أن أسجل بعض تجارب ودراسات مررت بها طوال حياتى وشئت أن أضعها أمام الشباب لكى يستفيدوا من الماضى ويُعدُّوا للحاضر ، ولست فى حاجة أن أقول إن هدفى الحقيقى هو أن نستفيد من هذه الدروس وأن نضعها موضع التنفيذ ، وعبء ذلك منصب على المفكرين والقادة والمصلحين ، وفى وسعهم أن يضيفوا مايشاءون ، وأنا من المؤمنين بأن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة والمهم أن نخطو إلى الأمام .

لا أقف طويلا عند حياتنا الثقافية ففيها استنارة تبعث على الأمل وحيوية آمل أن تؤتى أكلها على مر الزمن وأكتفى بأن أشير إلى الملحوظتين التاليتين :

١ ـ تحدثنا كثيرا عن مكافحة الأمية ، وحاولت أن أسهم مع آخرين فى هذه الدعوة ، ولكن تجربة خمسين عاما أو يزيد جعلتنى أومن بأن المكافحة الحقيقية إنما تتم فى مرحلة التعليم العام بحيث تستوعب مدارسنا فى هذه المرحلة كل الناشئين وتغذيهم غذاءً صحيحا وكافيا إن فى اللغة والأدب أو فى العلوم الطبيعية والرياضية ، ولنا فى تجربة الجزائر مثل حى فقد أخذوا الناشئة باللغة العربية منذ البداية ، وأصبح أبناء الخامسة عشرة والعشرين يتكلمون عربية ما كنت ألحظها بينهم فى السنين الأولى للاستقلال .

ونعد أنفسنا بحق أنا نجحنا فى مكافحة الأمية إذا وجد كل ناشىء مكانا فى مدرسة خاصة أو عامة ، وإذا رُبِّىَ هذا الناشىء تربية سليمة ومفيدة ، ولست فى حاجة أن أشير إلى أن مِن بين أميينا من مروا بمرحلة التعليم الالزامى بل الابتدائى ، ولكنهم نسوا هذا بعد قليل وانضموا إلى زمرة الأميين .

٢ ـ لوسائل الاعلام شأنها فى كل نهضة ثقافية وحضارية ، ونحن نشهد نهضتها المستمرة ، وأدع جانباً الصحافة الحزبية راجيا أن تكون اليوم موضوعية كما كانت بالأمس ، وأن تسمو بلغتها وصحافتها عن المهاترات والسباب ، أما الاذاعة المسموعة والمرئية فقد سميتهما منذ زمن مدرسة الشعب ، وكان لهما دون نزاع شأن فى تقدم ثقافتنا الجماهيرية . وأسعدنى أن نتوسع فى الإرسال بحيث يشمل القرى والمدن فى القطر جميعه ، وإن كان هذا يدعونا إلى محاسبة وتحرٍّ لما نرسله ، وإلى تحديد زمن للارسال كما تصنع كثير من البلاد الواعية ، وأدع الولايات المتحدة جانبا فى هذا الموضوع لأنها مثل لايحتذى فى الأمم الناهضة .

فهرس

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والأفريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N
٢

رقم الايداع : ١٩٩٠/٧٤٠٧

I.s,B. N
977 - 07 - 0021 - 5

هذا الكتاب

مؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ الدكتور ابراهيم مدكور أستاذ الفلسفة الاسلامية الشهير صاحب العديد من الدراسات الاكاديمية الرائدة ومنها على سبيل المثال لا الحصر "مكانة الفارابى فى المدرسة الفلسفية الاسلامية" و"اورجانون أرسطو فى العالم العربى" و"الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق" الى جانب عشرات الابحاث الدقيقة فى كافة الدوريات الفلسفية فى العالم أجمع وهو معلم أجيال أصبح بعض نجومها أساتذة بدورهم فى مختلف الجامعات العربية والغربية . وهو رئيس مجمع اللغة العربية الذى ازدهرت دراسة العربية فى عصره ازدهارا هائلا يشهد به هذا الكم الهائل من إنتاج المعاجم والقواميس والدراسات التى يشيد بها كل مهتم بلغتنا . وهو السياسى الذى رفض دائما أساليب المناورة وحرص على التمسك بأصول العلم السياسى فى كافة معاركه السياسية مدعما موقفه وشارحا له بكتابات متعمقة منها على سبيل المثال "الاداة الحكومية" .

أما الكتاب فهو من حيث المضمون شهادة المعلم على تاريخ بلاده المعاصر بكل جوانبه الفكرية والسياسية والاجتماعية . ولأن صاحب الكتاب فيلسوف فهو يستخلص الدروس من هذا التاريخ ، ولأنه مسلم فهو لايكتفى بالجانب التأملى النظرى بل يتجاوزه اما الى التقييم والنقد بهدف التنبيه الى ضرورة الاصلاح ، واما الى إقتراح الحلول . ومن حيث المنهج الكتاب درس جديد من "الشيخ الرئيس" فى مجال الكتابة التاريخية لأن صاحبه لم يبرز سيرته الذاتية على حساب تاريخ بلاده بل قدم تاريخ مصر مشيرا من وقت لآخر لالهاماته فيه لأن الأمة دائما فوق جميع أبنائها .

والهلال يسعده اليوم أن يقدم هذا الكتاب الذى سيسد فراغا كبيرا فى المكتبة العربية .



Bibliotheca Alexandrina
03398054

